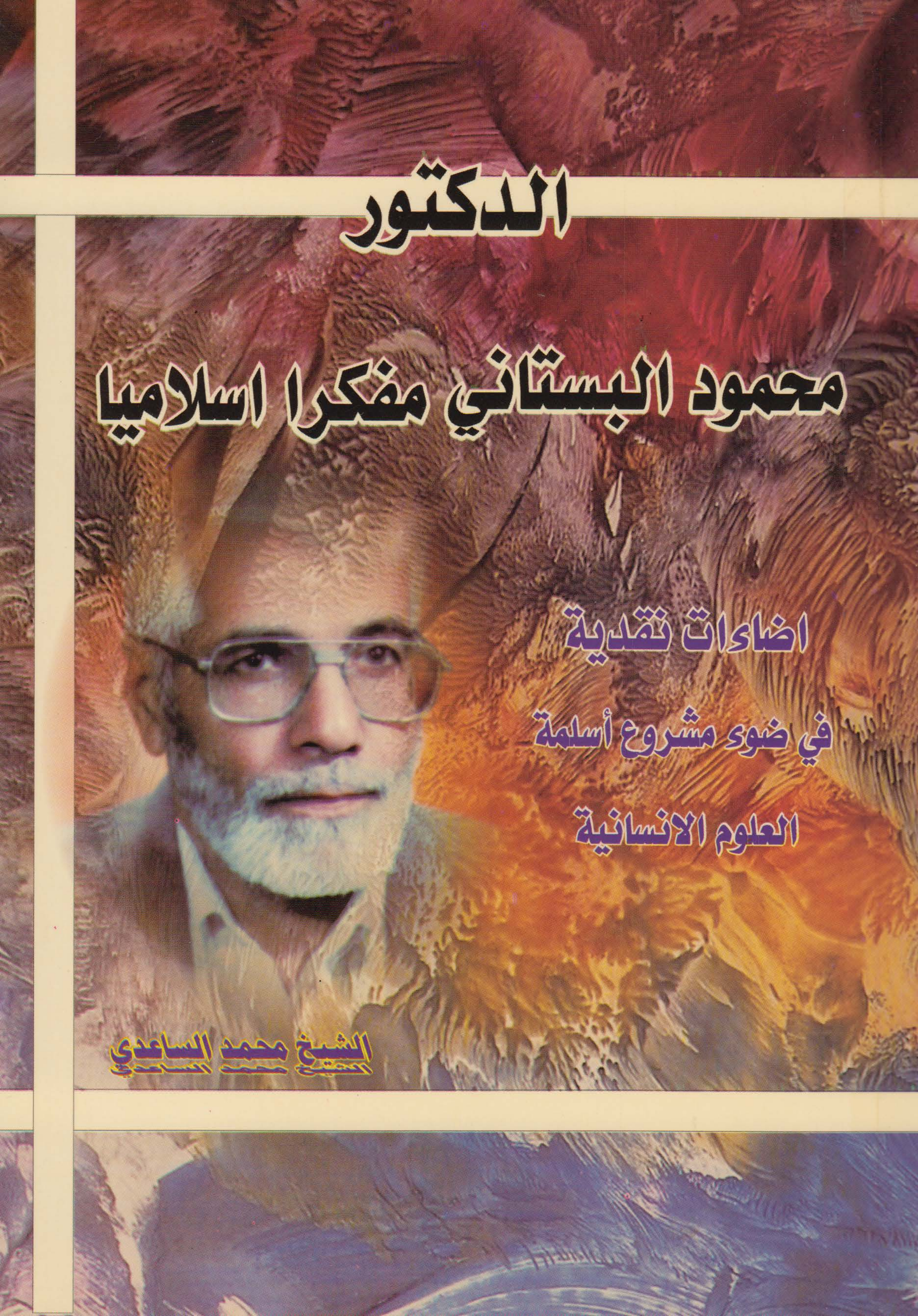

الدكتور
محمود البستاني مفكرا اسلاميا
اضاءات نقدية
في ضوء مشروع أسلمة
العلوم الانسانية
الشيخ محمد الساعدي



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

الدكتور محمود البستـــاني

مفكّـــراً إســـلاميـــاً

اضاءات نقدية حول مشروع أسلمة المعرفة ونشاطاته الفكرية الأُخرى

تأليف

الشيخ محمّد الساعدي

هويّة الكتاب

اسم الكتاب : الدكتور محمود البستاني مفكراً اسلامياً

تأليف : الشيخ محمّد الساعدي

المصحّح والمرتّب : الشيخ محمّد الساعدي

الناشر : المؤلّف

المطبعة : أمير

الطبعة : الأُولىٰ / ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الدكتور البستاني
مفكّراً إسلامياً



تقديم

عندما أخبرني فضيلة الشيخ محمّد الساعدي حفظه الله أنّه قد أعدَّ دراسة عن حياة الأخ الجليل والمفكّر الإسلامي الدكتور محمود البستاني حفظه الله سرّني الأمر وأكبرتُ فيه هذه الروح ، فإنّ الله تعالى يحبّ الوفاء لعباده ، بعضهم لبعض.

والأخ الدكتور البستاني بما قدّم من أيادٍ جميلة للفكر والثقافة الإسلامية المعاصرة يستحقّ مثل هذا الوفاء والتقدير.

فقد عرفت هذا العبد الصالح منذ أربعين سنة ، وكانت بداية تعارفنا في الأوساط الفكرية والثقافية للنجف الأشرف ، وكان حفظه الله يومئذٍ شاباً طموحاً متطلّعاً نشطاً في هذه الأوساط.

وقد تحوّل ذلك الطموح خلال أربعين سنة من عمره المبارك إلى أعمال فكرية وثقافية إسلامية وقرآنية قيّمة وجليلة في أسلمة المعرفة الإنسانية في حقول النفس والاجتماع والفنّ...

وقد وفّقه الله تعالى خلال هذه الفترة من عمره المبارك لخدمات علمية جليلة في حقول عديدة من المعرفة الإسلامية ، ولا سيّما في حقول البيان والنقد والدراسات الأدبية.

أسال الله تعالى أن يمدّ في عمره ، وينعم علينا بالمزيد من علمه وفكره الخصب. وجزى الله خيراً مؤلّف هذه الدراسة الشيخ محمّد الساعدي لهذا الوفاء الجميل ، والجميل لا يصدر إلّا من الجميل ، وأسأله تعالى أن يجعل هذا العمل باكورة طيّبة وبداية مباركة لأعمال علمية كثيرة إن شاء الله في حقل الثقافة والمعرفة الإسلامية.

محمّد مهدي الآصفي



تشتد الحاجة في المرحلة الراهنة الى الدخول المباشر مع (رموزنا) الفكرية في حوار جاد ، يتيح لنا قراءة خصوصياتهم [التجريبيّة] بصورها النهائية مع التوفر المكثف على اضاءة مكنونات كلٍ منهم ، بدءً من فهم الخطوات الأولىٰ ، وانتهاءً في اسـهام ارهاصات الذات وما أفرزته عبر معاناتها الشاقة في ميدان الخلق والإبداع . . .

ذلك من أجل ادامة التواصل الحيّ مع روافد (الحضور) فيما قدمته من اسهامات ومعالجات على ساحة المعرفة المعاصرة ، لكي يكون الانطلاق الحضاري مشحوناً بزخمٍ فاعل من عناصر القوة والامتداد .

والواقع ، ان جملةً من الولادات ـ على طريق الحوار ذاته ـ قد تبينت خيوطها العامة في غضون فتراتنا الحاضرة ، إلّا أنها لازالت محبوسة في اطار رؤيوي قاصر ، حيث يغلب علىٰ أكثرية المحاولات بصمات الانحياز والميولات أللا موضوعية مع نمط من الشخصيات التي اكتسبت بعد ذلك سمة الامتياز والعالميّة ، في حين أن أدنى ملامسة جدية لواقعها الفعلي يسفر على نفي أية مؤهّلات تدلّ على ذلك .

ولم تقف المسألة عند هذه الحدود فحسب ، بل ان بعض المحاولات كانت تهدف الى اقصاء نخبة من رجال الفكر الاسلامي بالرغم من مشاركاتها الضخمة ودورها الملحوظ في إثراء حقول الفكر والمعرفة بنمطيها الموروث والمعاصر .

من هنا تجئ هذه المحاولة ـ ومن خلفها أكثر من مسوغ يحفزها على المبادرة والاسهام في دراسة جمع من المفكرين الذين تمتاز أعمالهم بمفردتي الاصالة والمعاصرة ، الى جانب هدفية السلوك ورسالية التحرك اللذين يشكلان أشدّ ملامحهم نصوعاً .

ان الوقوف على طبيعة نتاجاتهم وما رافقها من ملابسات يمثل ضرورة نهضوية ملحة فيما لو حاولنا أن نكوّن رؤية تحليلية محكمة عن آليات التغير الفكري التي طرأت في

النصف الأخير من القرن الحالي .

فنحن ازاء تحول واسع ومسؤليات ضخمة تتطلّب في كل مفصل منها بذل الجهد وملاحقة الأعمال التي تتّسم بالعمق والتأصيل ومقاربة قضايا العصر في سبيل تجاوز أسوار التحدي القائم بنجاح يؤكد فاعلية الفكر الاسلامي في رسم مختلف المضمونات التي تتكفل بصياغة المجتمع وفق أرفع المستويات .

ولا نبتعد كثيراً ، وقد وقع اختيارنا في مشروعنا هذا على شخصيةٍ يصعب الحديث عنها ، حيث تتسم بخصوصيات معرفية ضخمة ، مما تجعل من الباحث متلكأً في محاولة الوقوف علىٰ ما أفرزته من نتاجات شملت أكثر من حقل معرفي أمثال : النفس ، الاجتماع ، الفن ، الآداب . . . الخ .

لذا تجدني أميل الى ضرورة عقد مؤتمر يتناسب مع حجم الشخصية ذاتها ، فيما تكون هناك ورقة عمل تحدد فيها الموضوعات التي تقترح على نخبة من الباحثين والمعنيين بقضايا الفكر والمعرفة . فالمسألة ـ كما أسلفنا ـ أوسع من اعداد دراسة أو بحث ، وليست هي من قبيل الاحياء أو التكريم الذي تغلب عليه الخطابيات المكرورة . . .

أن شخصية الدكتور البستاني : تعد رافداً اسلامياً معاصراً مما يحتم على النقاد بذل المزيد من الاهتمام لمقاربة أعماله عبر الاضاءات النقدية الواعية ، فهناك الكثير من المكتنزات والكشوفات التي توصل إليها البستاني ـ من خلال تجربته الخاصة ـ لم تتّضح بعد لدىٰ عامة المتلقّين .

فلقد توفر على مشروعٍ فكري ذي طابع تأصيلي موفق بحيث أكد به على حضورية الفكر الاسلامي وقابليته الفاعلة في أخذ زمام الحضارة المعاصرة الى حياة تشيع فيها نسائم الخير والمساواة و . . . الخ . فيما استبدل بمشروعه عينه مناهج ونظريات كانت ولا تزال مصدراً مرجعياً يعكس تصورات الطرف الآخر بكل أبعادها المتصلة بالموقف الفلسفي من الكون والانسان والحياة .

والواقع ، إن إسهامات البستاني حافلة بكل ما هو جاد وأصيل ، فالملاحظ انها تنطلق من منظومة تتسم بالعمق والموسوعية الجادة . . . بحيث يقف المتلقي أو الدارس أمام طاقة تعبيرية وزخم هائل من الرؤىٰ المبدعة الى جانب الأدوات الأخرى التي يعتمدها البستاني في بلورة أفكاره ونظرياته .

ومما ينبغي التأكيد عليه ، ان هناك سمة أعطت نتاجاته مزيداً من الانشدادية والذيوع عند قرّائه والمتابعين لأعماله .

والسمة المشار إليها هي احدىٰ مصاديق تواصله الروحي وارتباطه الحيّ مع عالم السماء ـ وهذا ما لم يغب عن تلامذته والمقربين اليه .

فلقد بذل من الجهد في مجال (السير والسلوك) جانباً بات يغبطه عليه كل من عرفه أو اتصل به .

ان في كتابات البستاني لمسات عباديّة متمردة على قيودات البحوث الاكاديمية الجافة ، فهي تسعى الى تحرير الكتابة من النمط المألوف والصعود بها الى مجالات تنفتح على وعي عبادي مكثف .

علىٰ أية حال : فقد قمنا بهذا العمل وكلّنا أمل بان نكون قد أدّينا جزءً من الهمّ أو الطموح الذي نحمله ، كما نأمل ان نكون قد أوقدنا شرارة البحث والاهتمام في نفوس الاخوة الباحثين .

وينبغي الإشارة إلى أنّني كرّست محاولتي الدراسيّة هذه حول تجلية الخطوط العامّة التي اعتمدها الباحث في منهجيّته المتميّزة بأدوات وآليات لها خصوصياتها المعرفيّة ، لذلك تجدني غير متطرّقٍ إلى جملة من المباحث التي تمّ الوقوف عليها من خلال حشد مقولات الباحثين الإسلاميّين والغير الإسلاميّين إلّا في مواقع يفرضها السياق ؛ لأنّ الدخول في منحنيات تلك الدوائر البحثيّة يتطلّب حجماً واسعاً لا يتناسب مع طبيعة الدراسة التي هدفت كما ألمحت سلفاً إلى إضاءة مشروع البستاني الفكري بصورة عامّة من خلال الإشارات التي تحوم على إفاداته مباشرة ، لذا أرفع عذري إلى الباحثين جميعاً على عدم تغطية تلك المساحات التي تمّ إغفالها عن غير قصد.

ولا ننسىٰ ذكر ما واجهناه في دراستنا هذه من عناء ، حيث كان التعامل مع الدكتور البستاني ـ بخصوص الدراسة ذاتها ـ يحتاج الى طرائق تتطلب جانباً عريضاً من المشقة فهو ممن زهد بالاضواء والاصوات الاعلامية التي تحاول أن تتحدث عنه فكان يتهرب منها أيّما تهرب ، لذا فقد امتنع عن الإدلاء بالكثير من الحقائق المتعلقة به لظنّه إنها تحمل رائحة الرياء أو ربّما يفسرها الآخرون بحبّ الظهور وما شابه ذلك . . . كما كان في عملية الحصول على بعض المصادر المتعلقة بالدكتور البستاني نوعاً آخر من التعب والعناء

حيث توزعت بين دوريات ومطبوعات غير متيسرة في أيدينا لاعتبارات عديدة . . .
وبالرغم من التتبّع والاستقصاء فقد غابت عنّا جملة من المصادر المهمة .
ونسأله تعالى أن يكون عملنا مقبولاً عنده* .

محمّد الساعدي

١٧ ربيع الأوّل ١٤٢٠هـ

٢٠ / ٥ /٢٠٠٠

* كتبت هذه الدراسة قبل أربع سنوات من تاريخ طبعها .

المدخل

تبدو روائح المخاطرة واضحة ، حينما نحاول ان نفتح ملف الحديث عن خطوط النشاط المعرفي الاسلامي في الفاصلة المعاصرة . وبوجه الدقة حينما نقوم بعملية تقويم أو رصد التطور الفكري لدىٰ الاسلاميين ، بغية الولوج الى عالم (الدكتور محمود البستاني) في ما قدمه من أعمال معرفية واسعة المجالات ، لاسيما وان محاولتنا هذه تستهدف ابراز المعالم التي تصعد بتجربة (البستاني) الى مصاف التفرد والامتياز . وأتصور أن السياق الذي نحن بصدده ، لا يسعفنا في اعطاء الموضوع حقه من البسط والاستيعاب ، بيد أن ايماءات سريعة حول بعض مفاصل الموضوع ـ وان كانت على نحو المقاربات الاوليّة ـ قد تسهم في تحقيق جانبٍ مما نطمح اليه .

الملاحظ ان بدايات النشاط الفكري أو ما يصطلح عليه عادة بـ (حركة الاحياء الاسلامي) التي تفجرت على يد (الأفغاني) وامتدّت عبر مدرسة تلميذه الكبير (عبده) قد حاولت جاهدةً على تحريك الوعي وبعث مفاعيل الابداع التي كانت قد افرزتها الامة الاسلامية في غابرها المشرق ، فلقد سلطت جهودها صوب اجتثاث عوامل الغياب الفكري من خلال وقوف العقل المسلم على مكتنزات المنظومة الاسلامية بما تحتويه من أبعاد شمولية ضخمة تغطي كافة مجالات الحياة .

والحق ، ان البدايات ذاتها قدمت من الجهود ما يستحق وصفه : بـ [تحديد الاطار العام لنهضوية الفكر الاسلامي المعاصر مع رسم بعض الاساسيات الايدلوجية من قبيل : حاكمية الاسلام وحيويّة اصوله وتشريعاته الى غير ذلك . . .] لكن يلاحظ على بعض تلك البدايات ـ مع فائق التثمين والتقدير ـ أنها تظلّ موسومة في كونها مجرد بدايات لم تبلغ من العمق والنضج المستوى المفروض ـ وهذا ما يطبع غالباً كل البدايات ـ فلذا لم يؤثر عن الرّواد الأوائل مشروع ناجز يُضارع المشروعات التي تمخضت عنها الفلسفات الغربية

وقتئذٍ... وكيف ما يكون فلقد أنعكست تلك البدايات على الاجيال التي تلتها حيث ألقت بظلالها الكثيفة على معظم النتاجات المتأخرة عليها، حتى ليمكن القول: ان الكتابات التي صدرت في أربعينيات هذا القرن وخمسينياته خاصة، قد وجدت في الاعمال المتقدمة متكأً ضخماً اعتمدت عليه في نشاطها الفكري، بل أنطلقت من صميمه وعبر نسيجه العام مكملة خطوات (الاحياء) التي توثبت بقوة وفاعلية جادة مؤكدة أصالة الاسلام وديموميّة مبادئه التي شمخ بها امام عامة المدارس والفلسفات الوضعية.

والواقع ان الفترة المتحدث عنها ـ الاربعينيات والخمسينيات ـ تشكل منعطفاً بارزاً في صراع الفكر الاسلامي الحديث حيث وقفت بوجه التيارات الوافدة يومئذ كما شاركت في توعية شرائح واسعة من الكوادر الاسلامية. ولا زالت الكثير من المؤسسات تعتمدها كمادة مهمة في برنامج التثقيف الاسلامي وبخاصة أعمال (قطب، محمد مبارك، مالك ابن نبي، المودودي...)بيد انّه من المؤسف أن الفترة المذكورة لم يتآزر كتابها فيما بينهم لكي يتوفروا على صيغة مبرمجة يتم خلالها التوفر على طرح الاسلام كمشروع حضاري متكامل، تتبدّى فيه فاعلية وشمولية مبادئه الانسانية والروحيّة العظيمة. كما ويلاحظ عليها أيضاً، أنها قد أفرزت كتّاباً ذوي نمط توفيقي ملحوظ حاولوا أن يصوغوا الاسلام وفق متبنيات الطرف الآخر وتصوراته بحيث لم يراعوا أصالة الفكر الاسلامي أو خطورة وضعه موضع الثانوي في آلية التفعيل المعرفي... ولقد وصل الأمر ببعضهم أن يكتب على سبيل المثال لا الحصر ـ كتاباً تحت العنوان الآتي: (الاشتراكية في الاسلام) كما حاول الآخر أن يحلل بعض منحنيات التاريخ الاسلامي وفق الرؤية الماركسية للصراع المادي... الأمر الذي أدى بالمفكر الاسلامي المعروف (مرتضى المطهري) أن يبذل من الرصد والمتابعات النقدية مبلغاً يمتد على رقعة واسعة من نشاطاته الفكرية، موضّحاً سلبية مثل هذا التوجّه الذي يسعى إلى خلط الأوراق وممارسة عملية التحدّث عن الإسلام تحت غطاء التحديث والتواصل. وذلك أن المنهج التوفيقي قد قدم للاسلام أساءةً لا تغتفر من حيث يشعر اصحابها أو لا يشعرون، وهذا ما أكدّ عليه أكثر من باحث اسلامي كان (المطهري) المذكور آنفاً أحد أكبر المعبرين عن ذلك، حتىٰ ان أحد الباحثين كتب دراسة كاملة عن آراء المطهري في خصوص هذا المحور بالذات.

❋ ❋ ❋

وحين نواكب مسارات النشاط الفكري فيما بعد الخمسينات نكتشف ـ وهذه من النقاط الواضحة لدى عامة المثقفين والمتابعين ـ ان قفزات ملحوظة قد حصلت بحركة الفكر الاسلامي حيث نشط أصحابها ليدشنوا مجالات حيّة مما أتاح لهم فرصة المشاركة عبر أعمالهم التي سجلوا بها حضوراً جاداً على ساحة العلوم الانسانية المعاصرة ، الى جانب نجاحهم الملحوظ في استيعاب الاشكاليات المتعلقة بـ (الاصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة) وتخطي كل افرازاتهما دون أي تلكّؤ .

والواقع ان مشارف السبعينيات هي من أخصب الفترات الفكرية حيث اتصفت نتاجاتها بالعمق والجدة ومزاولت القضايا الفاعلة والملحّة في حياتنا الراهنة ، ولقد لاحت في أفق الفترة عينها مؤشرات (الصحوة الاسلامية) التي شكلت فيما بعد ظاهرة بعثوية ضخمة في نطاقات المعرفة المعاصرة حيث بدأت معالم الخصوصية العقيديّة والفكرية تلامس مضمونات المعرفة بكافة حقولها وبخاصة ان معالجات جادة قد بذلها المعنيون في اطار المنهجة وترسيم مفرداتها . . . والمهم ، ان الاعمال المتحدث عنها قد رفعت لافتة [الأسلمة] التي نحن بصدد الوقوف على بعض منحنياتها ، لنحدد بعض ما لها وبعض ما عليها . ومما لا شك فيه ، أن جهوداً واسعة قد كرّسها المعنيون في مشروع الاسلمة وبخاصة في تحديد موضوعاتها وما يتصل بالجدليات التي تعيق من تحرك الاسلاميين . يُضاف الى ذلك ، ان اسهامات تطبيقية واسعة قد أخذت طريقها بالبروز لتمنح المشروع جانباً فاعلاً من التأصيل الذي تعدّى ممرات التنظير وفرض الاولويّات المحوريّة لتتأكد على سطح الواقع كنماذج وعيّنات ذات مستوىً عميق . من قبيل : (المعهد العالمي للفكر الاسلامي في أمريكا) والاصدار المعروف برصانته سلسلة إسلامية المعرفة التي كتب بها رموز من العيار الثقيل... والدورية التخصّصية المسمّاة بـ [مجلة المسلم المعاصر] وغير ذلك من المؤسسات والاصدارات .

بيد أن ثمة بعض الملاحظات التي تُسجل على مشروع الاسلمة نختار منها ما هو أكثر وضوحاً وأشد خطورةً ، مثل : موضوعة (الادلة الشرعية) التي تكاد أن تكون ألصق الموضوعات جدلاً .

فالملاحظ أن المعنيّين في أسلمة الحقول الانسانية قد جوبهوا بمحدودية النص الشرعي في عملية البحث عن معادل اسلامي صريح [نص] حيث اعتمدوا على النصوص

القرآنية والنصوص النبويّة وهي محدودة جداً فيما لو نظرنا إليها من الزاوية الاجتماعية أو النفسية أو الاقتصادية . . . الخ .

لذا فقد التجأوا في الكثير من دراساتهم الى مصطلحات من أمثال : روح التشريع الاسلامي ، الخط العام للشريعة وغير ذلك بغية التدليل بها على موقف الاسلام من جانب وإكساب بحوثهم الصبغة الاسلامية من جانب آخر ، وبالرغم من أن الباحثين قد بذلوا جهوداً مكثفة في اطار تطويع البحوث وفق نسقية المنهج الاسلامي وشمولية أبعاده المركزة ، إلّا أن خطوط المفارقة قد بدت واضحة بخاصة في ممارسة تقويل النص الشرعي أو تحميله آراءً ونتائج يتأباها النص نفسه ، حيث انّ رقعة واسعة من النصوص الشرعية التي اعتمدها الباحثون لا تحمل دلالات مؤكّدة يمكن لها أن تقوم مقام المعطيات العلمية لنظريات المدارس الوضعية.

❊ ❊ ❊

على هامش هذه الاشارات السريعة يمكن القول : أن خصوصية الاعمال التي أنجزها البستاني تتحدد ـ في نطاق الاسلمة ـ بكونها تجاوزت مناخات الجدلية المذكورة باعتمادها مضافاً إلى القرآن والسنة النبوية نصوص مدرسة أهل البيت عليهم السلام ذات الخصوصية المتميزة من حيث الفاعلية والمزامنة والاستشراف . . . ولا شك ان المدرسة عينها قد أتاحت بما توفرت عليه من ثروة نصوصية هائلة فرصاً واسعة في المشاركة والاسهام في مجالات المعرفة المعاصرة . . .

ونعود لنقول : ان أعمال البستاني تهدف الى ابراز عالمية المفهوم الاسلامي عبر توظيف النص الاسلامي مع حقول المعرفة الانسانية وفتح آفاق التثاقف المشروط بلحاظات الاصالة والالتزام . كما تعمل على دفع عناصر الخلق والابداع في سبيل مواصلة الحضور الفاعل أمام افرازات الطرف الآخر .

وكذلك أيضاً إنّ ما يميّز مشروعه الفكري ونشاطاته البحثيّة ، تجاوزه المناخ الجدلي الذي يمسك بزمامه عدد ضخم من الباحثين ويفرضونه كواقع تنميطي لا مناص من مزاولته والانشغال في مفاداته الموغلة في الترف التصوري لإشكاليات تجالب الحاجات الإساسية لثقافة المسلم المعاصر كما يتجلّى ذلك في كتابات جملة من الباحثين التي يخبرها كلّ من يشتغل في هذه الحقول.

ولا نغفل أن هناك أعمالاً رائدة أنطلقت هي الاخرى من منظومة أهل البيت المـعرفية فسجلت بما أنجزته اسهامات جادة في حقل الاسلمة وقد كانت بداياتها مبكرة جداً أي منذ الخمسينات وأوائل الستينات نذكر منها أعمال العلامة القـرشي والشـيخ شـمس الديـن والمفكر الشهيد محمد باقر الصدر وغير هؤلاء الاعلام ممن كانت كتاباتهم في نطاق تأطير الحقول المعرفية برؤيوية الموقف الاسلامي وبخاصة مجموعة كتاب مـجلة [الأضـواء] الرائدة .

الفَصلُ الأَوّلُ

الجذور الأُولى

الجذور الأُولى

فتح البستاني عينيه في وسط أُسريّ ، له مكانتهُ وامتداداتهُ الاجتماعية المتميزة . كما يمتاز بسمات تقوائية لائقة .

والعجيب ان الحاج (عبد الحسين أبو الريحة) ـ كما شاء النجفيون أن يطلقوا عليه هذه التسمية ـ لم يحتل وفق المعايير الدنيوية ما يجعلنا ان نعزو أسباب شهرته ذات النطاق الواسع الى ذلك . بحيث ان رموز الطائفة الشيعية وأقطابها ـ كما ينقل ذلك معاصروه وعارفوه ـ وقتئذٍ كان يربطها وإياه علاقات وثيقة من قبيل المرجع الديني الكبير (أبوالحسن الاصفهاني والشيخ النائيني والسيدمحمود الشاهرودي . . . وغيرهم) .

حتىٰ ان مجلسه الأُسبوعي كان يزخر بالوجوه العلمائية الوافدة اليه بما ذلك أصحاب الوجاهة الاجتماعية من التجار واضرابهم .

والجدير بالذكر : أن بعض العلماء المشار اليهم ، قد عهد اليه وظيفة توزيع الحقوق الشرعية الى الطلبة والمستحقين من الفقراء وذوي الحوائج .

وفي ذلك كله : ما يُثير الدهشة والأستغراب إذ كلّ ما كان يشغله [الحاج عبد الحسين البستاني] حانوتاً صغيراً يبيع من خلاله [العطور] . والواقع ان الأمر لا يكمن عند هذه الحدود فحسب بل يتعلق بحقائق هامّة أبرزها (خصوصية السلوك) . وهنا ينبغي الاشارة الى ان النجف الأشرف ، قد أفرزت عبر مسيرتها التاريخية الطويلة

نمطاً خاصاً يُعرف بسلوكيته المنفردة، وبكلمة ثانية شخصيات تقوائية تمثل الدرجة القصوىٰ في الوعي العبادي ونماذج واقعية في تجسيد مبادئ السماء بحيث لا يكاد يجتاز المارُّ مجلسهم، إلّا وتجتذبه أشعاعاتهم الروحية. ويحسّ المرء حينما يجالسهم بشفافية ندية وبقدسية مضمخة بأنفاس الطهر والايمان... إنّهم عبر نمطهم السلوكي الخاص يشكلون لوناً من ألوان النجف المشرقة بالاصالة والنفوذ.

والحاج عبد الحسين البستاني عنصر بارز من عناصر النمط المذكور بل اشراقة من اشراقات النجف الروحية، شخصية تستولي عليك باخلاقها وتنتزع منك الاجلال والتقدير حيث لا يضع فوارق بين شخص وآخر، فالكلُّ لديه يحظى بالتقدير والاحترام حتى من لم يبلغ العاشرة من العمر كان يتعامل معه بمثل تعامله مع الشخصيات المعروفة... ان عملية تصديره للحبّ، لا تعرف امتيازتنا المألوفة.

كما قد كان؛ مصدراً من مصادر تلبية حوائج الناس والتوسط بشخصيته عند أصحاب المكانة...

وبكلمة جامعة: فلقد كان على جانب كبير من التقوى والنزاهة والمواظبة على تمحيض جميع سلوكه وتحركاته وفق مبادئ الله...

يُضاف الى ذلك: فقد كان شديد التعلق والولاء لأهل البيت عليهم السلام خصوصاً بالامام الحسين بحيث كان يقتسم ربحه اليوميّ من حانوته الصغير مع الامام الحسين، وينقل بعض من شاهده بانه كان لا يملك نفسه حينما يسمع اسم الحسين عليه السلام، فتتحدر دموعه الساخنة من دون شعور...

على أية حال: من الطبيعي، ان من يولد في مثل هذه الأجواء الخصبة ان يأخذ طريقه مسرعاً بالنمو والاستواء المشبعين بكل عناصر القوة والنجاح.

ومن الواضح جداً: ان تنعكس ملامح الاب الكريم على شخصية الابن الذي حاول منذ بداياته محاكاة والده وتمثل مواقفه التي ظلّ مبهوراً بها حتى يومنا هذا.

ومن أجل اعطاء صورة حيّة عن مدىٰ تأثره بوالده يكفي ما نلاحظه عليه ، حينما يسمع شخصاً يتحدث عن أبيه أو يستشهد بـه ، فـالاطراق المـصحوب بـالخشوع والتغير المفاجئ والتنهدّات التي يبعثها من أعماقه ، شواهد ملموسة وتعبير صادق عن تفاعله العميق مع شخصية الأب التي وجد نفسه تحت ظلالها فترة من الزمن متغذياً بارفع مستويات الخُلق الروحيّ التي دأب والده على إعـمالها فـي سـلوكه وتجميدها لنفسه .

* * *

وأما من جهة الأُم : فلا ننسىٰ أنها قد تركت أصداءً عميقة في أغوار ضميره حيث مازالت ذاكرته تحتفظ بقسطٍ وافر من ذكرياته معها. والمهم فلقد أفاد البستاني منها شيئاً بالغاً في تعديل سلوكه وشحن ثقته بنفسه ، وعلى قول أحـدى الشـخصيات النجفية (ان احد أسرار موفقية البستاني يعود الى فاعلية أمه في التربية والسلوك) .

والجدير بالملاحظة : ان والدته من أُسرة هاشمية تعرف بـ(آل السرابي) شغلت رجالها ـ مدةً من الزمن ـ مواقع هامة في ميدان الدرس الحوزوي حيث برز أكثر من شخص على المستوى العلمي الفائق منهم والدها (السيد حسين السرابي) وأخوها السيد علي ، وابنه (السيد محمّد كاظم) فان كلاً من المشار اليهم ، يعد ـ في السجل الحوزوي ـ واحداً ممن أسهموا في مسار النشاط الفقهي والدرسي في جامعة الفقه الامامي بالنجف الأشرف .

وسطه الاجتماعي :

تشكّل مدينة النجف الأشرف ـ بيئة البستاني ـ مركزاً مهماً من مراكـز الاشـعاع الفكري الضخمة في العالم الاسلامي قاطبة . كما تمثل ـ في الوقت نفسه ـ مختبراً جباراً وظيفته صنع النـماذج الانسـانية وفـق أرفـع مسـتوياتها وخـلق الشـخصيات الناضجة اسلامياً كيما تقوم بتأدية وظائفها الالهية في عملية تفعيل الفكر الاسلامي

وتصعيد الجانب الروحي من خلال توجيه الكائنات الآدمية نحو الأهداف التي رسمتها السماء لهم .

وهذا كله ـ فيما اعتقد ـ ليس بجديد ، فلقد كتب عن النجف الأشرف وعن أبعاد ووظائف مؤسستها الدينية ما هو أعمق دلالة وأشمل مضموناً حتىٰ بلغ رصيدها التقيمي من الكلمات والمؤلفات التي فصلت الحديث عن محتواها ما يمكننا وصفه ـ [المكتبة النجفية] .

بيد ثمة ما يقتادنا نحو هذه الزاوية من الحديث بالذات .

فالملاحظ ان هناك اسراراً ضخمة تغلف هذه البقعة المباركة وتميزها عن سائر المدن الحضارية الأخرىٰ .

فامتدادها الزماني الحافل وخصوصيتها المكانية المقدسة مضافاً الى هويتها الثقافية الفائقة ، عناصر تفرض اهميتها على الباحث وتمنحه فرصة التأمل العميق . فهي بالنتيجة ـ المفروغ منها سلفاً ـ ابعاد تلمّح بوجود أصابع غيبية (نثرت خيرها على هذه الأرض المطهرة) فجعلتها مسرحاً لحركات الأنبياء عليهم السلام ومثوىً للأرواح الخيرة لاسيما روح مولانا أمير المؤمنين عليه السلام الذي اكتسبت شهرتها ومكانتها فيما بعد منه سلام الله عليه .

من هنا بالذات نكتشف بسهولة أسباب الهجرة الهائلة من طلاب العلم عبر تلك القرون الممتدة الى هذه المدينة النائية . إذ ان الوافد الى النجف الأشرف ـ بمجرد وصوله ـ ينبثق في داخله شعور مدهش يبث في روحه الأمن والهدوء بحيث يجعله متناسياً هواجس الغربة وظروف الحياة الشاقة المحيطة بتلك المدينة ، فينطلق الوافد على سطح النجف وهو مشبع بالقدسيّة التي تنثال عليه من السماء ببركة مجاورته لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام . ليبدأ بحياة جديدة تتفجر فيها مواهبه وتتصاعد بها طاقاته الى مستوىً يكاد لا يصدّق من حيث التفاعل بين البُعد المعرفي والبُعد

الروحي اللذين يغلفان أسوار تلكم المدينة المذكورة . . . وذلك قمة ما تتطلع اليـه أعماق من تشدهم مع السماء روابط أو وشائج ، يخبرها من عايش أجواء التجربة المشار اليها .

على أية حال : فان الحياة بالنجف الأشرف كدح وكفاح وحركة دؤوبة باستمرارية مذهلة ، فهي ملأىٰ بالمؤسسات والنشاطات الثقافية التي يتنافس كوادرها فيما بينهم بغية ان تتقدم بالعطاء نحو المجتمع الانساني بعامة والمـجتمع الاسـلامي بـصورة خاصة .

بديهياً : ان من ينمو في أحضان هذه الحاضرة الزاخرة بـالمعرفة والشـخصيات العلمائية العملاقة ينشأ وكل امنيته في الحياة ان يكون واحداً من أولئك الافذاذ ممن تخلع مدينته عليهم أكاليل التقدير والاحترام ، وطبيعياً أيضاً ان نلاحظ أثـار تـلك الحاضرة منعكسة بكل تـفاصيلها عـلى شـخصيات أبـنائها بـقدر مـا تـحمل تـلك الشخصيات من وعي وموهبة ذاتية .

في ضوء ما تقدم : فالبستاني وان تعددت وتنوعت مصادر ثقافته بحيث تجاوزت اطارها البيئي والاقليمي يبقىٰ ـ حسب تصورنا ـ احدى افـرازات النـجف الكـبرىٰ بحيث لا يمكننا عـزل أو تـجاهل المـناخ النـجفي فـي بـلورة وصـياغة شـخصيته بمستواها الحالي . خصوصاً جانبها العبادي الذي تعمّق فـي ظـلال تـلك الاجـواء الحافلة بالشخصيات التقوائية التي أسـهمت فـي اثـراء بـيئة النـجف عـبر سـلوكها العبادي المكلل بالدهشة والاثارة . . .

بكلمة عامة : فلقد كفانا البستاني مشقة الخوض في اثبات تأثره ببئيته من خلال كتاباته بالخصوص ذاته حيث أنّ نصوصاً قصيرة وعنوانات كثيرة من قبيل : [جامعة النجف الاسلامية ، الدرس الفقهي في النجف . . .][1] . . . وغير ذلك من المقدمات

---

(١) مقدّمة موسوعة النجف الأشرف .

التي صدر بها أجزاء موسوعة النجف الأشرف ، ما يتكفل بالافصاح عن حجم ونوعية فهمه لبيئته التي تحتفظ بتاريخ حاشد بالمعطيات .

وعيهُ وتفاعله الثقافي :

المُلاحظ ان عربة الفكر ـ عبر مسارها التاريخي الطويل ـ تشكّل حالةً استثنائية في عملية تفاعلها الحضاري وانسجامها مع آليات المعرفة فهي تعيش من خلال مدلول انساني خاص ، تمخض ـ هو الآخر ـ عن نمطٍ له نكهته المتميزة .

والاستثنائية المشار اليها ، لا تقتصر على هاتين الاشارتين (التفاعل والانسجام) فحسب ، بل تتعداهما لتصل الى محطات أبعد غوراً ، بحيث تتجسّد في كل مفردة من مفردات الحياة . . .

ان استجابتها للاشياء ، تختلف مع نوعية استجابتنا عامة . ومن المؤكد ان انفتاحها مع القنوات المعرفيّة ، يتم عبر خصوصيات ذاتية حادة ، تعمل على استكناه أو امتصاص (المعُطى الحضاري) بنحوٍ يجعلها تقف على قمة التفرد من حيث التواصل والامتداد مع ما افرزته الحقول الانسانية من نظرات واسهامات خالدة .

علىٰ أية حال : ان التعامل مع ما يترشح به العقل المبدع من رؤىً واشارات ذات طبيعة ملحوظة على حركة وفلسفة وافرازات الانسان . . . الى غير ذلك من الظواهر الوجودية الاخرىٰ ، تمنح الفرد قابليات فائقة من النضج والابداع ، شريطة ان يتمّ له التفاعل الكامل مع ما ينفتح عليه ، ولطالما اسفرت عمليات الانفتاح بنتائج ايجابية واضحة ، حيث اسهمت العلميات المذكورة بتشحين المفاعيل المعرفية وانماء تجاربها الخاصة .

يعنينا مما تقدم : ان البستاني قد استظلّ بسقفٍ ضخمٍ من الثقافة والمعرفة الإنسانية والإسلامية ، حيث تفتح وعي القراءة عنده بنحو مكثف جداً ذلك بسبب

العامل الزمني وما صحبته من تحديات وتطلعات ثقافية ازدحمت بها خمسينيات القرن المنصرم وستينيّاته ممّا ضاعف من مسؤولية وهموم المسلم المثقّف آنذاك .. .

كما توفر علىٰ اسلوب من التعاطي الخاص مع منحنيات القراءة . . . لذا تجدنا نعتقد ـ عبر قرائتنا العامّة لنتاجاته المتنوعة ـ : أنه قد تمكن من التكيّف الفاعل مع الاستثنائية المذكورة سلفاً ، وانفرد بمقعد مستقل في العربة المشار اليها . ومن جهة أخرىٰ تجدنا نؤكد أيضاً على عملية انفتاحه العميق مع الثقافات الانسانية بشتىٰ مستوياتها ومختلف تخومها سواء في ذلك الجانب الموروثي منها أو ما يصطلح عليه ـ (الحداثة) أو (الوافد) . بحيث لم يعش حالة الانكفاء مع الذات ، كما لم يكتفِ بالنتاجات الاقليمية في إشباع نهمته الفكرية الملحة ، بل امتدّ الى نتاجات الطرف الآخر عبر لغته مباشرة . وفي كتاباته ما يتكفل بتدعيم ما أشرنا اليه .

خذ علىٰ سبيل المثال : كتابه المعروف [في النظرية النقدية] إذ حاول فيه ـ ولا نودّ التبسط نظراً لأننا سوف نتطرق اليه عند حقله الخاص ـ ان يخطّط لنظرية كاملة في مجالات النقد الأدبي من خلال مدارسة واتجاهاته الحديثة ، وفيه يلاحظ ان هوامش الكتاب أو المصادر التي اعتمدها الباحث في دراسته قد كانت جميعها من اللغة الانجليزية بنحو قد رصد فيه لمجموعة من الكتّاب الغربيّين دون ان يتوكأ على ترجمتها للغته الاساسية [الأم] ويؤيد ذلك ان النقاد الذين تناولوا الكتاب المذكور ، قد أشادوا بثقافة واحاطة الباحث ، فضلاً عن اشادتهم بالنتائج التي انتهى اليها .

واما في حقل النفس والتربية والاجتماع والأدب . . . الخ . ما يجعلك معترفاً بموسوعيته بنحوٍ لا تجد للشك فيه من مجال . . .

والواقع أنه مستكمل لجميع أدوات المعرفة ، موروثها وحديثها وهذا مالم يتم إلّا لأنفار معدودين ، تخبرهم النخبة المثقفة في كل تفاصيل مكوناتهم وجزئيات تميزهم الملحوظ .

الفصل الثاني

مشروع أسلمة العلوم الإنسانية

مشروع أسلمة العلوم الإنسانية

تعود فاعلية البحوث الإنسانية ـ بالنسبة الى الإسلاميين ـ الى جوانب متعددة الأهمية ، أبرزها : (مستلزمات المرحلة الملحة) ، الى جانب (تسجيل الحضور) كأصحاب هوية محددة أمام أفرازات المؤسسات العلمانية التي تحتفظ بوجهات فكرية ـ علىٰ صعيد المعرفة الانسانية ـ تتساوق مع نسيجها الايدلوجي العام .

والملاحظ ان بلدان العالم الغربي أو ما يصطلح عليه بالعالم الأوّل ، قد اشتغلت بأسس ومبادئ العلوم الانسانية منذ فترةٍ ليست بالقريبة ، إذ [نقطة البداية لابد أن تكون عصر التنوير وفلاسفته الذين مهدوا بأفكارهم وآرائهم ونظراتهم الناقدة للحياة والمجتمع الأوروبي ، لقيام حركات التمرد الفكري والسياسي التي سادت القرن التاسع عشر](١) .

وهذا كله يشير : الى صدارة الطرف الآخر في الحقل المذكور ذلك لضخامة التجربة التي أسهم بها ، من خلال وفرة الانتاج وتنوعه المتمثل بجهود الباحثين الذين أحدثوا برفدهم التجريبي والتنظيري قفزات واسعة .

ويلاحظ أيضاً ، ان ثمة انكماشاً أو بالأحرىٰ فراغاً حاداً يؤشر بخواء معرفي واضح في القطاع أو الصف الاسلامي ، لا يتناسب البتة مع ما يتوفر عليه الاسلام من منظومة معرفية مشحونة بثروة هائلة من الفكر والابداع .

---

(١) عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، ص١٤٣ ، السنة ١٩٧١م ، عنوان البحث : (العلوم الإنسانية والصراع الأيدلوجي) للباحث أحمد أبو زيد .

حيث جاءت اهتمامات الإسلاميّين عامّة ، متأخّرة بعض الشيء في مجالات التخطيط ورسم الاستراتيجيات البحثيّة في ميادين العلوم الإنسانية ، ومن الممكن أن نحدّد عقد الثمانينيات بأنّه بداية العمل المركزي في هذه الميادين حيث انعقدت مؤتمرات عامّة حضرتها كفاءات علميّة في مختلف حقول المعرفة تقدّمت بصياغة مشروعات وإعداد برامج عمل مشتركة ومناقشة اشكاليات واسعة النطاق من خلال فتح ملفّات هذا المشروع على أيادٍ تضطلع بممارسة هذه العلوم في مراكز أكاديمية مشهورة في العالم الغربي والإسلامي إلى جانب رموز إسلامية ضخمة ممّا أسهم في تعاضد الدراسات من الناحيتين الإنسانية والفقهية ومحاولة تكييف النتائج بصورتها النهائيّة مع التصوّر أو الحل الإسلامي أمام النظريات الوضعية المتعدّدة.

ومن أهمّ المؤتمرات التي تداعت لهذا الشأن : المؤتمر الذي عقد في إسلام آباد عام **١٩٨٢** وفي كوالالومبور عام **١٩٨٤** وفي الخرطوم عام **١٩٨٧** إلى جانب الكثير من الندوات التي عقدت لبحث أُمور تفصيلية في الكثير من البلدان الإسلامية والغربية ، حيث نشطت العديد من المراكز المختصّة في هذا الميدان أهمّها : المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتّحدة وفروعه في القاهرة ولندن وغيرهما ، والجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد ، والجامعة الإسلامية العالمية في كوالالومبور ، ومعهد البحوث الإسلامية في ليستر في بريطانيا ، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية في كوالالومبور أيضاً ، والمؤسّسات الثقافية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي (في جدّة واسطنبول).

من أجل ذلك : فان العنوان أعلاه ـ مشروع أسلمة العلوم الانسانية ـ يقف بنا على محطة هامة ، لجهود باحث اسلامي ، حاول خلال مشروعه المعرفي ان يخطط لنظرية اسلامية مستقلة ، تستهدف التأسيس لرؤى صميمية حيال العلوم المشار اليها ، علم النفس ، اجتماع ، آداب ، ... الخ ؛ إذ اضطلع بدراستها والوقوف على اسسها ومنطلقاتها بمنهجية مبتكرة ، لعلَّ البعض من الباحثين حاول أن يسجّل عليه

من خلال المنهجية ذاتها شيئاً من الخروج عن الأُطر المألوفة في ميدان المناهج العلميّة للمواد عامة حيث صدر الباحث عن ثوابتٍ عقيدية خاصة قد لا تمثل بالضرورة مسوغات الوسط العام .

بيد انها خطوات موفقة إذ لم نعثر على من يثير الغبار على نتائجها التي توصلت اليها بحيث رافقت طرائق البحث جميعاً دقته المتناهية في مناقشة الاتجاهات واستيعاب توجهاتها الرئيسية .

وحيادياً نقول : ان البستاني قد أثبت من خلال عملية استيحاء التراث وتمثله على قدرات الاسلام في معايشة الزمن وتلبية حاجة الانسان بشكل عام والمسلم المعاصر خاصة ، بالنحو الصائب والسويّ وليس بما هو مؤقت في تشخيص المتطلبات .

والجدير بالتلميح : ان المجال الذي كتب به ـ كما هو معلوم لدى المتخصصين ـ مجالٌ تصطدم به الآراء والنظريات ذات الاساليب الشائكة والحلول المطبوعة بالتشويش الناجم عن تفاوت الرؤىٰ واضطرابها في تشخيص الحقائق التي لا تُتيح الارساء على مرفأ يطمئن اليه . وذلك بسبب عزلتها العنيفة عن عالم السماء واتكائها على وحيّ الذات فحسب .

ومن الواضح ان التخطيط لنظرية على ضوء التصور الاسلامي ورصد نقاط الالتقاء مع الفكر العلماني الصائب في بعض الأحيان ، أو التأسيس لرؤى مبتكرة لم ينجح جملة من الباحثين الإسلاميّين بالوصول الى مكتنزاتها وبمستوى فائق علمياً واسلامياً ـ يظلّ ـ في تذوقنا الشخصي ـ تجربةً رائدة وخليقة بالبحث والاهتمام . خصوصاً أننا نعلم سلفاً بان المحاولة بكر في جميع منحنياتها . إذ لم يتح لها ان تطلع على كتابات اسلامية مماثلة ترفدها بشيءٍ من التجربة في مواصلة المسار بحيث تكون مستنداً لها . فالمؤسف ان معظم الكتابات الانسانية الصادرة في بلداننا الاسلامية تمثّل اصداءً للاتجاهات ـ العلمانية عدا نماذج لم يتح لها ان تخطط لنظرية

متكاملة ، نظراً لعدم وقوفها على (نصوص شرعية) كافية . . . ممّا أدّى بها أن تنحى منحىً توفيقياً يحاول أن يخضع بعض النظريات الإنسانية مع ما يتلائم والتوجّه الإسلامي العامّ ولكن بشكل متعسّف تتّضح في ثناياه لمسات الطابع التكلّفي الواضح. وقد حاولت أكثر من معالجة إسلامية أن تؤسّس لخطواتٍ منهجية يعتمدها الباحثون الإسلاميّون في حقول العلوم الإنسانية ، كيما يتاح لهم أن يتجاوزوا تلك المطبّات الملمح إليها سلفاً ، كما في الدراسة التي قدّمها عماد الدين الخليل والتي جاءت تحت عنوان: «مدخل إلى إسلامية المعرفة» ودراسة محمّد عمارة الموسومة في «معالم المنهج الإسلامي» ودراسة محمّد محمّد امزيان التي جاءت تحت عنوان «منهج البحث الاجتماعي بين الوضعيّة والمعيارية» ودراسة إسماعيل الفاروقي المعنونة «صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية» وإلى غير ذلك من الدراسات.

والواقع ان الكتّاب الإسلاميين ، أو أصحاب الرؤوس الثقافية الملتزمة لم يتوفروا على رفد مسارات الفكر الانساني عبر نقد البنىٰ والمرتكزات الأرضية ، بمادة علمية تتعلّق بمشروع الأسلمة ، كما لم يسهموا بوضوح في التشيد لاتجاه اسلامي مستقل حيال الحقول المعرفية ، إلّا في الفترة القريبة كما أسلفنا ، يُستثنىٰ من هذه العمومية شخصيات معينة[١] . فان حالة الاستلاب والشعور بعظمة الرجل الآخر يشكلان الصبغة الطاغية على أعمال النخبة المنتجة للثقافة والفكر. وكثيراً ما يرفع البعض منهم اشكاليات جوفاء لا تتساوق مع الحقائق العلمية بشيء ذلك من قبيل رفض أو انكار أن تكون هناك علوم ذات عنوان اسلامي أي عدم تقبلهم لعنوان يحمل الصيغة

---

(١) كالشهيد المفكر محمد باقر الصدر بكتابيه (فلسفتنا واقتصادنا) والعلامة باقر شريف القرشي في كتبه (نظام العمل في الاسلام ، نظام التربية في الاسلام ، النظام السياسي في الاسلام ، والادارة ونظام الحكم في الاسلام ، والشيخ محمدمهدي شمس الدين في كتابه نظام الحكم والادارة في الاسلام) . والدكتور زهير الأعرجي في بحوثه الاجتماعية المتعددة ، امثال ، مباني النظرية الاجتماعية في الاسلام . . . إلى جانب كتّاب الطليعة الإسلامية في هذا المجالات من الاخوة الباحثين في مصر التي انطلقت منها صرخات هذا المشروع. ولكن بالإشارات التي لاحظناها على منهجيّتهم في التعامل مع حقول هذا المشروع.

الآتية مثلاً : [علم النفس الاسلامي ، الاجتماع الاسلامي ، التربية الاسلامية . . . الخ] بدعوىٰ ان الاسلامي يتوكّأ علىٰ غيره ؛ إذ ان المبادرة أو الامتياز ترجع للطرف الآخر أو بدعوىٰ ان الاسلام لم يصغ نظرية علمية في هذه الميادين ، . . . الخ .

ولا شكّ أنّ محاولة رصد مساجلات الناقدين (النقائضيّين) تنصدم بأكداس هائلة من الأوراق البحثيّة التي توجّهت لدحض الباحثين الإسلاميّين في حقول العلوم الإنسانية ، فمن غير الممكن أن نعرض لآرائهم جميعاً ، لذا سنكتفي بواحد من أهمّ الناقدين الذي تابع مسألة الأسلمة من خلال ورقة تقدّم بها إلى كتاب قضايا فكرية تحت عنوان (أسلمة المعرفة وجموح اللا عقلائية السياسية) كنموذج على الكتابات العلمانيّة علماً أنّ هناك انتقادات توجّهت إلى هذا المشروع حتّى من داخل دائرة الإسلاميّين أنفسهم.

على أيّة حال يذهب الذكتور عزيز العظمة كاتب هذه الورقة إلى إلغاء أي دور فعلي يمكن أن يتوفّر في النتاجات التي تهدف إلى أسلمة المعرفة متّهماً إيّاها بمحاولة نقل عناوين بعينها لا أكثر أو ممارسةً لإرهاب سلطوي على ميادين المعرفة أوكما يفصح (... الشهوة الشاملة للسلطة على المعرفة وعلى المعارف انتاجاً ومحتوىً وتداولاً ومؤسّسات)[1].

ويتابع عملية نقده : (... يتبيّن ممّا سلف أنّ فكرة أسلمة المعرفة ـ أي إطلاق الصفة الإسلامية على معرفة الدنيا وجعل تأويلها شأناً يستثني الخطاب العلماني والعقلاني وابتلاعها في جوف خطاب الإسلاميّين ـ مشروع هيمنة تحمله قوى عربية محلّية إضافة إلى قوى عالمية[2].

وإذا استثنينا إشارة التطرّف والارهاب الفكري... وغير ذلك من التوصيفات التي

---

(١) الكتاب الثالث والرابع عشر ـ اكتوبر ١٩٩٣ قضايا فكرية ، ص٤٠٧ ـ الصادرة في القاهرة.

(٢) المصدر السابق ، ص٤٠٨.

يجيد استخدامها ، فالعملية في تصوّره رجوع إلى الوراء وإلى أُصول عمّرت مئات السنين فهي تعني عملية نكوص مزيّنة بمصطلح الصحوة التي يرفع شعارها الإسلاميّون ، يقول : « ولذا فإنّ واقع النكوص الأيديولوجي والاجتماعي إلى ماضٍ موهوم أو مؤوّل يوتوبيا في أحسن أحواله ، هذا الواقع الذي يجمّد في لحظات نكوص محض تفضي إلى ارهاب المجتمع والدولة. إنّ واقع النكوص هذا ينظر إليه على أنّه « صحوة » لجوهر قار هو الإسلام الثابت والمتخيّل [(١)].

وحينما يقترب من دوائر منهجيّة الإسلاميّين في مشروع الأسلمة ، تتغيّر بعض الشيء لهجته التحليلية فيخلع على المجتمع الإسلامي لبوس الفهم الخلاصي للمعرفة الإسلامية وعلى البعدين الأبستمولوجي والحضاري ، الذي يعتمد التفسير النقائضي ، ممّا يسهّل الطريق أمامه في عملية مهاجمته ودحضه من خلال مقدّمات تنزع إلى إجراءات تجريدية صرفة ، « ومن نافل القول إنّ الفكر النقائضي ليس فكراً مفهومياً منضبطاً متسلسلاً ، بل عملية عقلية تصنيفيّة هي الصورة البدائية لكلّ معرفة »[(٢)].

واصلاً ذلك كلّه في جوهر المادة التي عقد بحثه من أجلها حيث يقول : « على ذلك تنصبّ مهمّة أسلمة المعرفة على خطابين نقائضيّين : خطاب سجال ، وخطاب إيجاب ، يختصّ الأوّل بنقض المناهج العلمية العالمية لدراسة المجتمع والسياسة تحت عنوان الخصوصيّة ويقوم الثاني بقسر وقائع التاريخ والمجتمع في بوتقة تصوّر إسلامي سرى لاخفاً أنّ مآله الأجير لا يتعدّى إضافة التسمية الإسلامية على هذه الوقائع حتى تكون قادرة على مجانسة ما فيها... »[(٣)].

من أجل ذلك كله : فان الوقوف على ما قدمهُ [البستاني] عبر ممارسته المعرفية

---

(١) المصدر السابق : ٤٠٧.

(٢) و (٣) الكتاب الثالث والرابع عشر ـ اكتوبر ١٩٩٣ قضايا فكرية ، ص٤٠٩ ـ الصادرة في القاهرة.

في حقول التجربة الانسانية يمثل مصدراً من مصادر البحث الاسلامي المعاصر فيما يعني ان لا غنى للباحثين الاسلاميين عنه، فلقد قطع شوطاً طويلاً في ميدان (الاسلمة المعرفية) متحملاً قدراً كبيراً من أعباء التجربة، حيث ترجع بدايات عمله الى ما يتجاوز العقد من الزمن وبوجه التحديد منذ بداية الثمانينيات (لا يفصح الدكتور البستاني ـ كما يقول أحد الكتّاب ـ في مقدمات كتبه عما يكفي للكشف عن بدايات اهتمامه بموضوع « أسلمة المعرفة ») بيد أن متابعة بحوثه تكشف عن ان البداية ترافقت مع عمله في مشروع مجلة الفجر التي صدر منها في مدينة قم بضعة أعداد ثم توقفت. فقبل منتصف الثمانينات كتب بحوثه التي أرسىٰ من خلالها ما أسماه بنظرية الالتزام في الأدب الاسلامي وعلم النفس الاسلامي فترة وجيزة... صدر له (١٤٠٤هـ) كتاب بعنوان (دراسات في علم النفس الاسلامي...) وقد ترافق اصدار هذا الكتاب مع اصدار كتاب اكتسب عنوان (الاسلام والفن) ثم جاء كتابه الأخير (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي)[١].

وللمرة الثانية نقول: ان الممارسة المذكورة قد انطوت على نقاط حساسة جداً لسنا بصدد الاشارة اليها ـ فلها أماكنها الخاصة من هذه الدراسة ـ بقدر ما ينبغي أن نلمح على ما تحوم عليه. فالملاحظ ان الباحث قد سلط اضاءته المكثفة في الحقل النفسي من خلال كتابه المذكور [دراسات في علم النفس الاسلامي] كما تطرق الى معظم التيارات المعاصرة لعلم الاجتماع عبر كتابه الموسوم [الاسلام وعلم الاجتماع] واضعاً في قبال الآراء والنتائج الأرضية نصوصاً مستفادة من الشريعة الاسلامية تحمل الدلالات ذاتها، كما ألمح الى اشارات مبتكرة تفردت بصوغها نصوص التشريع الاسلامي. ولم يكتف بذلك فحسب بل استشرف آفاقاً جديدة هي

---

(١) كيهان العربي مقالة (مراجعة) بعنوان (لبنة جديدة في مشروع الموسوعة الاسلامية). وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ كتاب (الإسلام وعلم الاجتماع) وكتاب (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي) قد صدرا بعد المقالة المذكورة.

في الواقع عناصر تعمل على تحريك الباحث عامة نحو مبادئ الشرع المقدس ، وسوف نتطرق في موضوعات هذه الدراسة الى بعض النماذج من مقارناته واستنطاقاته بغية التدليل على ما ذكرناه .

وهنا يجدر بنا قبل التطرق الى حقول المعرفة التي تمَّ أسلمتها من قبل الباحث أن نقف قليلاً مع بدايات توجهه في كتاباته المذكورة ، نظراً لما ينطوي الحديث على جوانب ذات أهمّية تاريخية تتّصل بفهم الجانب الجوهري من مشروع الأسلمة نفسه .

علماً بان معرفة ذلك قد جاء ضمن سؤالٍ طرحناه على الباحث مفاده :ـ

أسلمة العلوم الانسانية . مشروع يحتوي على عدة ضروب من المعرفة . كيف كانت البدايات ومتىٰ تبلورت لديكم .؟

■ عندما اتجهت الى الكتابة الاسلامية وجدت ان الزمن الذي نعيش فيه يتطلب ان نواكبه من جانب وان نحقق به هويتنا الاسلامية من جانب آخر ، وتجيء العلوم الانسانية في مقدمة ضروب المعرفة التي يحتاج اليها الاسلام لتوصيل مبادئه الى الآخرين ومن هذه العلوم علم النفس والتربية والاجتماع .

طبيعياً : ثمة تساؤل يُثار : ان الاسلام لم يقدم نظرية علمية لأحد ضروب المعرفة ؟ فكيف يُنتخَبُ عنوان علمي لهذه المعارف ؟

■ وجواباً على هذا السؤال ، أقول : إنّ الاسلام هو مجموعة توصيات متناثرة ، تُقال في سياق خاص . فالقرآن الكريم علىٰ سبيل المثال ، يطرح مئات الظواهر إلّا ان كل ظاهرة أو أكثر يطرحها في سياق خاص ، قد يتطلبها الظرف الذي أُلقي به الوحي ، وقد يتطلبها الوضع الاسلامي بشكل عام وكذلك احاديث المعصومين عليهم السلام فثمة حوار يتمّ بين المعصوم عليه السلام وأحد الرواة وثمة سؤال يطرح وثمة مناسبة تستدعي ان يُلقي الامام عليه السلام كلمة أو حديثاً الى الآخرين. ووظيفتنا نحن الاسلاميين

ان نلتقط هذه الاحاديث وان نبرمجها وان نصنفها ونبوبها ونرتبها بالترتيب الخاص على نحو ما نجده في الفقه مثلاً. فهذه الأبواب الفقهية التي نلقاها في الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والخمس والحج . . . الخ ، لم تُطرح اسلامياً بهذه الصياغة بل طرحت بشكل أحاديث متناثرة فجاء الفقهاء ورتبوها وبرمجوها ومنهجوها بالشكل الذي نجده الآن. وهكذا بالنسبة إلى العلوم الانسانية ، فالاسلام لم يقدم نظرية خاصة في علم النفس أو نظرية خاصة في علم الاجتماع أو في التربية وانما هي مجموعة أحاديث كما قُلت ولذلك فان وظيفتنا ـ نحن الاسلاميين ـ ان نلتقط هذه الأحاديث ونحلّلها ونفسرها ثم نبرمجها على نحو ما نجده في العلوم الحديثة التي تخضع لمنهج خاص ولتبويب خاص ولحقول خاصة وهكذا .

من هنا وجدت ان الحاجة ملحة لهذا النوع من المعرفة لأن الفقه وأصوله وما يتصل بالدروس الحوزوية ـ ولله الحمد ـ قد توفر عليها الآلاف من فقهائنا إلّا ان البحث الاجتماعي والنفسي لم يتح لكتابنا الاسلاميين ان يتوفروا عليه إلّا بالسنوات الأخيرة ووجدت ان الحاجة ـ بالواقع ـ بخاصة الى علم النفس والاجتماع ملحة جداً لأسلمتها لأن المادة النفسية هي أساس للسلوك البشري على شتى مستوياته ، وكذلك علم الاجتماع هو أساس السلوك الاجتماعي للبشر. وهذان النمطان من المعرفة يتخللآن عصب الحياة جميعاً ، لذلك فان التأكيد عليهما يظل من أهم العلوم الانسانية التي ينبغي ان (تؤسلم) وهذا ما دفعني ان أكتب عن هذين العلمين بالشكل الذي رأيتموه)[١].

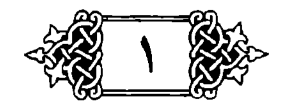
والمؤاخذة التي لا بدّ من تسجيلها على الباحث هي انعدامية وجود تعريف خاصّ لمشروع الأسلمة عند الباحث على عكس الباحثين الإسلاميّين الآخرين . والواقع إنّ عملية تثبيت تعريف خاصّ لمشروع أسلمة المعرفة يبقى في تصوّري

(١) حوار خاص أجريناه مع الدكتور البستاني ـ بتاريخ ١٤١٦هـ.

مركزاً محفوفاً بعدّة تحفّظات ، فبالرغم من التقاء المعرّفين في أهمّ أركان التعاريف التي تكرّس تأكيديّة الجانب الديني ـ التوحيدي ـ في انتاجية هذه العلوم ، نجد أنّ نوعاً من عدم الوضوح يغلب على مقولات «المعرّفين» في محاولة التوفيق بين الوضعي والديني ، حيث يُختزل المنجز الوضعي المشترك في تأسيس بناء المفهومية مدارس متشّعبة الأُصول والتوجّهات ، بمقولات تكاد تفتح باباً واسعاً من الايرادات النقدية ، فإنّ عامّة المعرّفين الإسلاميّين يرتكبون خطأً منهجياً فاضحاً حينما يضعون ـ عند عمدٍ أو غير عمد ـ مدارس العلوم الإنسانية كلّها في خانة واحدة وينظرون إلى المسألة ككلٍ مشترك لا تمايز جوهري فيه مادام منطلقاً من دائرة الفلسفة اللّاإلهيّة. ويمكن مراجعة أهمّ تلك التعاريف والوقوف على مفاداتها بنحوٍ مستوعب من خلال قراءة الدراسة المختصرة التي قدّمها الأُستاذ الرفاعي المعنونة بـ«إسلامية المعرفة... مفهومها ـ مسارها»[1] فكأنّما أدرك الباحث خطورة هذا الجانب فتملّص من الدخول في مضاعفات لينجو ببحوثه من منزلقات فكرية كثيرة لا تستوعب هذه الدراسة من الإشارة إليها.

---

١ ـ مجلّة الحياة الطيّبة، العدد الثاني، سنة ١٩٩٧م.



الحقل النفسي

يمكن القول : بأنّ دراسات (البستاني) النفسية قد لاقت رواجاً يتناسب بعض الشيء مع ضخامة محتواها . فبمجرد ظهورها على مسرح الفكر وانتشارها بين أيدي المثقفين والمعنيين بالحقل النفسي خاصة أخذ الجميع يشعر بأهميتها ونوعية المعطى الذي تكتنزه . بحيث لم يتمّ علىٰ صدورها إلّا أيام قلائل حتى بادر أكثر من باحث بالتعليق والاشادة بكشوفاتها ونقاط الجدة التي قدمها صاحب البحث .

وبذلك أحس البستاني بالتجاوب والتأييد فازدادت سعرات تحفزه نحو أسهامات أخرىٰ . وبالفعل تضاعفت نشاطاته بنحوٍ ملموس حيث كانت بحوثه النفسية منحصرة بأحدى الدوريات الثقافية (مجلة الفجر) في باب خاص بها . واذا بها تطل على القراء من خلال كتاب ضخم تحت عنوان (دراسات في علم النفس الاسلامي) وفي بروز الكتاب المذكور حاز على سمة الحضور أو الامتياز إذ أخذ المعنيون بالحقل النفسي يتعاملون معه كصاحب اتجاه جديد ، نذكر من ذلك ما أشار اليه أحد الباحثين في أبرز دورية اسلامية تُعنى بأسلمة العلوم يقول الباحث المذكور : (ومن المحاولات التي بُذلت في الاتجاه الأخير تلك التي قام بها محمود البستاني « ١٩٨٨م » وفيها يحاول بناء علم نفس اسلامي على أساس شيعي)[١] .

---

(١) مجلّة المسلم المعاصر ، بحث للدكتور فؤاد أبو حطب ، ص١٤٣ ، ع٦٣ ، سنة ١٤١٢هـ . وهو محاضرة أُلقيت في ندوة علم النفس بالقاهرة ، ونشرت في المجلّة المذكورة.

وأشتد شعوره بنجاح محاولته أكثراً حينما أخذت أكثر من مؤسسة ثقافية ـ جامعية وحوزوية ـ بتطبيق مقترحات الكتاب على برنامجها الدرسي .

والحق ان ما قدمتهُ الأبحاث المشار اليها ، يعدّ فتحاً جديداً ، فيما لو حاولنا مقارنتها مع كتابات الحقل النفسي الحديثة إذ يتضح ان شيئاً متميزاً يغلّف المحاولة الأخيرة ، مما يجعل القارئ يتذوق نكهةً جديدة في المجال ذاته ، ربّما لا يتحسّس وجودها في الكتابات السابقة عليها. والسبب في ذلك ، يعود الى مصادر أستسقاء الباحث ، وبكلمة ثانية : القنوات التي شحن نفسه بروٰاها ، وهي بطبيعة الحال نصوص التشريع الاسلامي بنمطيها ـ الكتاب وأحاديث المعصومين عليهم السلام بحيث جعل خطوط البحث تتسم بالوضوح والشمولية ، الى جانب اليقين العلمي الذي تفتقر اليه أغلبية الأبحاث النفسية .

يُضاف الى ذلك : ان الباحث ، لم يكتفِ بممارسته ، ان يثبت للآخرين ، بكون المنظومة الاسلامية ؛ تنطوي على جميع المؤشرات الايجابية المتوصل اليها في الحقل المذكور ، بل تجاوز ذلك ليدلّل على كنوزات الاسلام المعرفية في الحقل النفسي ، بحيث أسّس في محاولاته الناجحة لرؤى جديدة ، تعتمد في نتائجها على ما توفرت عليه النصوص الشرعية من دلالات صريحة في الحقل عينه . كما لم يعش الباحث مهزماً في تجربته المشار اليها ، من خلال تطويع النصوص الشرعية وأخضاعها لاشياء ونظرات تتجافىٰ مع واقعيتها بغية التدليل على عمليّة التوافق مع الطرف الآخر ، بل رفض ما لم يتماشَ مع الواقع وما لم يجد له مسوغاً شرعياً ، وهذا ما أوضحه أحد مترجمي كتابه الى اللغة الفارسيّة (وهو عضو الهيئة العلمية في كلية الطب بالأهواز) حيث قال : (طرح في ميدان علم النفس مفهومات ومعاني ذات قيمة من جملتها : مفهوم الشهوة والعقل ، حيث شرح فيها الآلية [ميكانيزم] التي يصدر البشر من خلالها . وقد أوضح المؤلف في الفصل الثاني من الكتاب ، وجهة نظر الاسلام في ميدان مراحل النمو ، عند الأطفال حيث قدم من خلال أحاديث

الفقه الشيعي ـ بشجاعة تعبر عن التزامية الشخصية المسلمة ـ آراءً ونظريات تتميز عن نظريات علم النفس ، حيث يندر وجود قائلٍ بها ، مثل تقليله من أهمية مرحلة الطفولة في انعكاسها على مستقبل الشخصية . . . الخ مما ينبغي ان يُدرس بـدقة ، وفي الفصل الثالث ، قدم نظريات في حقل الأمراض النفسيّة ومعالجتها ، حيث تعدّ مطالعتها ضرورية لكل معالج نفسي . بخاصة التعريف الجديد الذي قدمه في هذا الميدان إذ لم يحصر الأمراض بما هو نفسي وجسمي فحسب ، بل جعل الأنحراف العقائدي داخلاً في تعريف المرض)[١] .

منهجهُ في البحث النفسي :

ترتكز منهجيتهُ الخاصة ـ في تناوله للمادة النفسيّة ـ على عناصر متعددة تتوافق مع عناصر البحث النفسي المألوف حيناً وتختلف أحياناً اخرى ، مما أتاح لها فرصة البروز والذيوع في وسطنا الثقافي . فعلى صعيد التوافق : يُلاحظ ان الباحث يصدر في ممارسته من خلال الأدوات المألوفة وبنحوها العام مما لا يحد ضرورة في اجراء التحفظ في عملية [الأخذ أو الاقتفاء] في بعض الخطوط المنهجية للأرضيين ـ حسب تعبيرهُ ـ بطبيعة الحال ثمة سياقات تفرض عليه بالتصريح أو المطالبة بضرورة التحفظ كما لو أصدمت بعض الأدوات مع المبادئ التشريعية .

كيف ما يكون : ان العنصر المهم الذي توفرت عليه ـ منهجيتهُ في ضوء التقويم الاسلامي . هو ما يصطلح عليه بـ [التكيف الفقهي] بـمعنى ان نـتلمس انسـجامية النتائج مع خطوط التشريع. وبكلمة أكثر دقة تكيّف المعرفة فقهياً بسبب تلاحم الآراء أو الرؤى التي يتوصل اليها مع العنصر الفقهي بحيث يحصل التزاوج الطبيعي بينهما. وهذا ما يمنح الأعمال ـ أيّاً كانت حقولها ـ بُعداً قيّمياً فائقاً . لذا ان تقويمنا لأعمال (البستاني) يظلّ حائماً حول هذه الميزة بالذات. والسرُّ في ذلك أننا ننطلق من زاوية

---

(١) اسلام وروان شناسي مقدمة المترجم (محمود هويشم) ، ص١٧ .

اسلامية خالصة في جميع نشاطاتنا الحياتية ، مما يعني بالضرورة ان نتساوق مع (مبادئ السماء) ونتأطر بوجهة نظرها الخاصة .

لذلك فان العنصر المشار اليه يشكّل سمةً أو خصيصةً بارزة في تصنيف ومعرفة أكثرها تعبيراً عن الهوية الاسلامية. ولا نبالغ بالقول : فلقد نجح الباحث في عملية التأكيد على جميع الاشارات المذكورة . بحيث تمّ له الانصهار والتفاعل مع جميع مفردات السمة المتقدمة الذكر وبدرجة قصوىٰ .

وسيتاح لنا التحدّث عن ذلك في عنوان آخر في تضاعيف هذه الدراسة .

ولا يأخذنا الاسترسال بعيداً : فان منهجيته مضافاً على تميزها بالعنصر المذكور تتحدد من خلال الومضات الآتية ـ وان كانت بصورة مقتضبة : [لا نجد أنفسنا ملزمين باصطناع طرائق البحث الأرضي في تناول (المادة النفسية) أو الوقوف عند الدائرة التي يحصر موضوعاته فيها بل يمكننا ان نتجاوز ذلك الى تخوم علم الاجتماع والفلسفة مثلاً أو نختزل بعض موضوعاته حيناً آخر والسرّ في عدم التزامنا بمناهج البحث الأرضي هو ان البحث الأرضي منفصل عن السماء في تفسيره للعمليات النفسية وتنظيمها ، أنه يتسلّم الكائن الآدمي (بما انه موجود فعلاً) لا بما أنه كائن ابدعته السماء . . . بحيث تكيف العلميات النفسية وفقاً للمهمة المذكورة][1] .

الى جانب الومضات المتقدمة نجد ثمة تذوقاً بارزاً توفر عليه الباحث في معالجة المفاصل المتعارضة والمتضاربة أثناء مصادفته لبعض المحطات المعقدة . حيث ينشط التذوق المذكور في ردم الفجوات وتنظيم المسار البحثي ببراعة ممّا يفصح عن حسٍّ خبروي ضخم لا يُتاح إلّا للقلة من النخبة المتمرسة في الحقل النفسي وميادينه البحثية .

أمّا من حيث منهجية الدراسات أو الكتاب بعامة ، فقد توزع على اربعة أبواب .

---

(١) الاسلام وعلم النفس ، الدكتور محمود البستاني ، ص٨ ، طبعة مشهد ، ايران .

تناول في الباب الأول منه (الأصول النفسية للسلوك) وقد انشطر الى فصلين :

فصل حمل العنوان التالي (الأصول المحركة للسلوك) وفيه أبطل النظرية التي تُدعىٰ (بالنظرية الغريزية) حيث تذهب النظرية المشار اليها بـ (ان الكائن الآدمي يصدر عن مجموعة من [الغرائز] تدفعه الى الحركة والنشاط من نحو غريزة (البحث عن الطعام) (غريزة الاجتماع) (غريزة القتال) . . . الخ ، هذه الغرائز قد تكون ذات أصل حيوي مثل البحث عن الطعام وقد تكون ذات أصل نفسي مثل (القتال) وفي الحالتين فان هذه (الغرائز) تشكل ارثاً فطرياً يحمل الآدميين على التحرك من خلالها)[١] .

بينما يرى الباحث ان البحث عن الأصول المحركة للسلوك [(ينبغي في ضوء التصور الاسلامي) إلّا تطرح من خلال (نظرية الغرائز) أو ما يضادها ، بل من خلال البحث عن أصل (عام) يسبق البحث عن الغرائز أو تصنيفها الى ما هو حيوي أو نفسي وهو ما نستهدف معالجته في هذا الحقل . . . يقول الامام علي عليه السلام (ان الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة ، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل ، وركّب في بني آدم كليهما. فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوتُه عقلَه فهو شر من البهائم) .

ان هذا النص الاسلامي يحدّد لنا الأصل المحرك للسلوك من خلال سمة رئيسة تطبع (الأصل) المذكور وهي سمة الثنائية في هذا الأصل بمعنىٰ ان هناك طرفين يتجاذبان الكائن الآدمي في بحثه عن اللّذة واجتنابه عن الألم هما : (العقل والشهوة) أو الخير والشر أو الموضوعية والذاتية][٢] .

كما يلمح الباحث بوجود أرث فطري يرثه الانسان يطلق عليه تسمية (الوعي أو

---

(١) دراسات في علم النفس الاسلامي ، ص١٠ ، الدكتور محمود البستاني .

(٢) المصدر السابق ، ص١٤ .

(الادراك) يقول : [هذا الميراث القطري (من حيث البُعد النفسي) يواكبه ميراث فطري آخر من حيث البُعد الادراكي] هو : (الوعي) بمبادئ الشهوة والعقل تقول الآية الكريمة : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ . انّ إلهام الفجور والتقوى ، يعني : الادراك لمبادئ الشهوة والعقل .

واذن : كل من العنصر (الادراكي) و(الوجداني) من الشخصية قد صيغا وفق تركيب ثنائي قائم على وجود طرفين يتجاذبان الكائن الآدمي في بحثه عن اللّذة والاجتناب عن الألم)(١) .

طبيعياً ثمة ملاحظات طويلة يوردها الباحث على نظرية الغرائز والنظرية المضادة لها أيضاً لا مجال لذكرها .

هذا أهم ما يمكن تسجيله بالنسبة إلى الفصل الأول .

وأما الفصل الثاني : فقد تطرق الى « الأصول النفسية » بين الوراثة والبيئة حيث تناول أولاً (الأصول الذهنية) وبعدها (الأصول النفسية) ناقش في ذلك أهم المدارس الأرضية التي اضطلعت بالموضوع ، مثل : (الأتجاه الشرطي اتباع مدرسة بافلوف والاتجاه النفسي في الاتحاد المنهزم) حتى خلص الى هذه النتيجة : (بعامه فان التصور الاسلامي لعنصري (الوراثة) و(المحيط) يتمثل في : ان النوع الانساني يرث (اصلاً نفسياً) عاماً على مستوى الوراثة النقية لا يتمايز من خلالها فرد عن آخر سواء أكان ذلك متصلاً بالمهارات الذهنية أو العمليات النفسية بعامة .

بيد ان هناك ـ والكلام للمؤلف ـ (وراثة طارئة) تُدرج ضمن شروط خاصة تتصل بالافراد أو الرهوط ، فيما تشكل (استثناءً) للقاعدة العامة . وخارجاً عن ذلك ، فان (التنشئة) تتكفل بتحديد النمط الذي تختطهُ الشخصية في ضوء (الأصل النفسي) الذي ترثه بـ(القوة) ، ونعني به قدرتها على (التميز) و(اختيار) النمط الملائم من السلوك) .

---

(١) المصدر السابق ، ص١٥ .

اما التصور الأرضي للظاهرة ، فقد توزعته شتى الاتجاهات بدءاً من الاتجاه النافي للبيئة ، مروراً بالاتجاه النافي للوراثة ، وأنتهاءً بالاتجاه المزاوج بينهما حتى انتهى الى نسبة تقريبه هي ٦٢ ٪ تكاد تتمحض للوراثة قبالة ٣٨ ٪ للمحيط حسب بعض الدراسات المعاصرة)[١] .

دخل بعد ذلك في (الباب الثاني) حيث تناول (الأصول النفسية ومراحل النمو) فكان الفصل الأول منه يبحث عن (المرحلة التمهيدية) التي تُعالج مسألة (التحسين الوراثي والبيئي) فأعطىٰ صورة دقيقة حدد من خلالها مراحل التحسين المذكور أولاً فكانت حسب تصنيف الباحث المستمد رؤيته من النصوص التشريعية ، خمس مراحل :

١ ـ مرحلة الانتقاء الزوجي .

٢ ـ مرحلة انعقاد النطفة .

٣ ـ مرحلة الحمل .

٤ ـ مرحلة النفاس .

٥ ـ مرحلة الرضاعة .

اتجه بعد ذلك الى (الفصل الثاني حيث حفل هذا الفصل بموضوعات هامة مثل : (مرحلة الطفولة المبكرة) و(مرحلة الطفولة المتأخرة) والمهم في هذين الحقلين ان الباحث بعد ان صرح بتوافق التصور الاسلامي مع بعض الخطوط الأرضية في تصوراتها للمراحل المذكورة وجزئيات كلٍّ منهما ، وجدناه يؤكد بوجهة نظر خاصة للتصور الاسلامي تميزه تماماً عن كل التصورات الأرضية مدعماً رأيه بأدلة مفصلة لا مجال لذكرها الآن ، وهي التأكيد على الطفولة المتأخرة من حيث انعكاساتها على الشخصية .

---

(١) دراسات في علم النفس الاسلامي ، ص٣٦ ، الدكتور محمود البستاني .

أضاف الباحث للفصلين المتقدمين فصلاً ثالثاً تناول بـه (المـرحـلة الراشـدة) والمتمثلة بحقل مهم جداً ألا وهو (مرحلة المراهقة) .

يلاحظ ان الباحث قد أولى المرحلة المذكورة مزيداً من الأهتمام أيضاً ، حيث استغرق في بحثها وتحديد ملامحها منطلقاً في ذلك من خطورة الآثار المترتبة عليها في حالة عدم نجاح المرحلة الثانية من الطفولة ، الى جانب التشديدات الصادرة من قبل التشريع الاسلامي بخصوصها . كما قدم في نهاية الفصل توصيات حسّاسة الى المشتغلين في حقل التربية والتعليم . مضافاً الى توجيه أولياء الأمور ـ الأبوين ـ على بعض النقاط التي يفترض ان تراعىٰ .

الى هنا نصل الى أعتاب (الباب الثالث) حيث تواجهنا فصول ثلاثة الأول منها تحدث فيه عن (التصنيفات المتنوعة للسلوك) من خلال عرضه للتصنيف الأرضي والتصنيف الاسلامي كعادته في طرح المسائل ، مبيناً المفارقات العلمية التي سقط فيها البحث الأرضي . في حين يشمخ الجانب الاسلامي بتصوراته الصائبة . فيما تناول في (الفصل الثاني) سمات الشخصية ، مثل :

١ ـ السمات الذهنية .

٢ ـ السمات الداخلية أو المزاجية .

٣ ـ السمات الاجتماعية .

٤ ـ السمات الفكرية .

في حين تطرق في (الفصل الثالث) الى « الأصول النفسية والأمراض » . والشيء المهم في هذا الفصل هو اشارة الباحث الى ان ثمة مرضاً لم يتوصل علماء النفس الى كنهه فيما يشكل ـ باعتقاده ـ درجة عالية من الخطورة ذلك هو (المرض الفكري أو العقيدي) ويلاحظ من خلال المرض المذكور أن البحث قد أخضع التقسيم (المرضي) الى نوع جديد فصل الحديث عن وعما ينسجم منه .

كما أشار الى (ان التصور الاسلامي للمرض نشأةً وعلاجاً ، يظلّ في ـ واحد من أنماطه ـ وهو (التفسير الوضعي) للمرض متوافقاً مع التفسير الذي أهتدى الأرضيون اليه مؤخراً مع افتراقه عن التفسير الأرضي في تصديه لظواهر لا زالت غائبة عن البحث الأرضي مثل العلاج بالنوم في أوقات خاصة على سبيل المثال . . . بيد ان الاسلام لا يقف عند تخوم التفسير الوضعي للمرض (طالما يظل هذا التفسير منحصراً في أسباب دنيوية صرفة) . بل يتجاوزه الى (التفسير العبادي) بصفته تفسيراً للحقيقة المطلقة لوجود الانسان على هذه الأرض)[١] .

بصورة عامة يظلّ الباب المذكور ـ بفصليه ـ نمطاً ملحوظاً في امكانية الباحث على استخلاص النتائج واستنطاق النصوص الاسلامية. فلا يخفى أن الباحث قدم أكثر من قائمة ينطوي تحتها تصانيف هامة يندرج في كل واحدة منها سمات السلوك السوي في قبالة السلوك المرضي أو الشاذ .

وأخيراً نصل الى (الباب الأخير) من الكتاب حيث تضمن الباب المشار اليه ـ بفصليه الضخمين ـ مجموعة من النظريات الأرضية ، في حين جهد بتأسيس نظريات جديدة تقف مع النظريات الاخرىٰ موقف المجابهة والرفض مثل : (نظرية الانتماء الاجتماعي) حيث وضع قبالها (الانتماء الى الله) وكذلك أيضاً (التقدير الاجتماعي) وضع أمامها (التقدير الالهي) ويلاحظ ان الباحث في محاولة (التأسيس) المشار اليها لم ينكر فاعلية النظريات الأرضية في حدودها الطبيعية بل أكد على ان الشريعة المقدسة أعربت عن موقفها حيال الاهتمامات البارزة في مجال (التقدير أو الانتماء الاجتماعي) .

(بيد ان الفارق بين التصورين الأرضي والاسلامي لمفهوم الانتماء الاجتماعي) يبدأ من تحديد نمط وحجم (الانتماء) أو (الحماية) التي توفرها الجماعة البشرية .

---

(١) المصدر السابق ، ص١٥٠ .

ان التوصيات الاسلامية تؤكد بان (السماء) هي المصدر الوحيد لـ (حماية) الكائن الآدمي ، وتؤكد بان الانسان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا وتؤكد بأنه « اذا أراد أحدكم ان لا يسأل ربّه شيئاً إلّا اعطاه : فلييأس من الناس كلّهم ولا يكون له رجاء إلّا عند الله » .

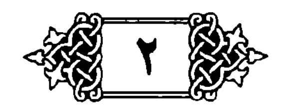
ان اليأس عمّا عند الناس والرجاء حيال الله فحسب : يعني (الغاءً) لمفهوم (الانتماء الاجتماعي) من حيث كونه مصدراً لتوفير (الحماية) النفسية والامنية .

لكن ان الغاء مفهوم (الانتماء الاجتماعي) هنا لا يعني الغاءً لمظهره الخارجي بل الغاءً للفاعلية البشرية واستبدال ذلك بفاعلية (الانتماء الى الله تعالى)[١] .

بقي ان نشير الى ان هناك مجموعة كبيرة من الموضوعات التي تطرق الباحث اليها في الباب نفسه ، والتي تمثل تفرداً بارزاً من حيث الطرح مثل : الحاجة الى التملك والحاجة الجمالية والحاجات الامنية والدوافع الحيوية وطرائق تنظيمها . . . والاحلام وتقسيماتها ، وغير ذلك من المفردات التي لا غنىً من الوقوف على محتوياتها.

---

(١) المصدر السابق ، ص١٦٩ .



الحقل الاجتماعي

كانت الخطوة الثالثة في مسار (موسوعة الفكر الاسلامي) التي نشط البستاني في تقديم أجزائها السابقة ، بغية التعريف بفكرنا المعاصر وابراز رؤاه الخاصة ، بحقول المعرفة الانسانية الحديثة ، هو كتابه الموسوم : [الاسلام وعلم الاجتماع] .

والكتاب ـ كسائر كُتبه ـ حافل بالجدة والرصد والتأطير بما يوافق وجهتنا الايدلوجيّة ، حيث شحن فصوله الأربع بأهم تصورات المذاهب الاجتماعية الحديثة مع ترديف النظرات المطروحة بموقف الفكر الاسلامي ، من حيث التحفظ أو القبول أو التأسيس الذي ينفرد بجوانبه الحقل الاسلامي خاصة . ودون ان يلتجأ لتحميل النصّ الشرعي ما لا يستسيغه كما حدث لبعض الباحثين في مجال أسلمة المعرفة عامة بسبب عدم اطلاعهم على نصوص قادة التشريع الاسلامي ، المتمثلة في شخصيات الأئمة المعصومين عليهم السلام حيث توفرت نصوصهم الشريفة على قواعد ونظرات معرفية يمكن من خلالها أن يؤسّس الباحث الاسلامي مذهباً أو اتجاهاً مستقلاً ، في كل فرع من فروع المعرفة الانسانية. فهناك زخمٌ هائل من النصوص المنطوية على أبعاد شمولية ، طرحها المعصوم عليه السلام بشكل يحتفظ بحيويتها ومواصلة الافادة من مكتنزاتها عبر تقدم الزمن وتفتح الوعي على مجالات المعرفة الحديثة .

على أية حال : فان معلومات سريعة تحدد مسارات علم الاجتماع بنمطيه الموروث والمعاصر ، من قبيل اليمين التقليدي واليسار التقليدي وما تفرع عنهما من تيارات نقدية برزت من أجواء الاتجاهين المذكورين ، فيما أطلق عليه الباحث

بـ(اليمين الجديد) متمثلاً بـ (الوجودية) و(الظاهراتية) و(العبثية) و(الرمزية) وكذلك ما أسماه بـ (اليسار الجديد) الذي تبلور بوضوح في أواخر الستينات مع ظهور ما يسمىٰ بـ (ثورة الطلاب) التي واكبها علماء الاجتماع اليساريون . (هذا فضلاً عما نتوقعه من بلورة اتجاهات جديدة شهدها العقد الأخير (١٩٧٩ ـ ١٩٩٠) مع بروز (التغير الاجتماعي) الذي فرضته (الصحوة الاسلامية) في أوائل العقد ومع بروز التغير الاجتماعي الذي فرضته (البيريسترويكا) في اخريات هذا العقد فيما استتبع التغير الأول (الصحوة الاسلامية) بروز (الاسلام) بصفته موقفاً فلسفياً من الكون والمجتمع والانسان فارضاً فاعليته على المجتمعات الدولية ، وفيما استتبع التغير الآخر (البيريسترويكا) اعادة النظر أساساً في الاسس الماركسية في شتىٰ تغيراتها التي شهدتها العقود الماضية . . .)[١] .

أقول ان ذلك كله تجده تحت عنوان : (خارطة علم الاجتماع المعاصر) الذي ينتظم تحت لائحة الفصل الأول (علم الاجتماع) وقضاياه .

فيما تجد في الفصل نفسه موضوعات أساسيّة في الحقل الاجتماعي مثل : علم الاجتماع والالتزام ، وماهيّة علم الاجتماع حيث انتهى الباحث بتعريف جديد بالرغم من صعوبة تحديد تعريف معيّن نظراً لتفاوت البُنى الفكرية بين باحث وآخر .

(يمكن أن نعرف علم الاجتماع بأنه : « دراسة الحياة المشتركة بين الناس ») .

وكذلك تجده قد تناول في نفس الفصل موضوعين هامين هما : عنصري الظواهر والعلاقات حيث تطرق لموضوعات كلٍّ منهما موضحاً أساليب المعالجة وفق التصورين البشري والاسلامي . . .

دخل بعد ذلك في موضوعات الفصل الثاني الذي رفع لافته (علم الاجتماع والحياة المشتركة) مثل : مبدأ التعايش ، مبادئ التوازن الاجتماعي ، المسؤولية

---

(١) الاسلام وعلم الاجتماع ، ص٨ ، الدكتور محمود البستاني .

الاجتماعية ، المسؤولية والضبط الاجتماعي ، التكيف الجزائي للمجتمعات . انتهىٰ بعد ذلك الى تقديم وجهة نظر اسلامية حيال المبادئ المشار اليها . فيما تناول بعد ذلك ابرز الفصول الأربع من حيث غزارة الموضوعات وعمقها اطلاقاً . وهو الفصل الثالث الذي تصدرت لائحته بـ [الأفعال المشتركة] يقول الباحث في معرض التمهيد لمنطلقات تحركه في الفصل المشار اليه : (القيم أو المبادئ الاجتماعية التي عرضنا لها : ـ المقصود هو المفهومات التي تناولها الباحث ضمن لائحة الفصل الثاني ـ إسلامياً وأرضياً ، تجسّد ـ كما رأينا ـ عنصراً له فاعليته الرئيسة في تحديد حجم (التوازن الاجتماعي) ، .. بيد أن التوازن الاجتماعي لا يصبح (ممكنا) إلّا بقدر خضوعه لأفعال أو عمليات اجتماعية يتفاعل الناس من خلالها في آليات خاصة من السلوك ، وفي مقدمتها : عملية (التعاون) فيما بينهم ، أو عملية (الصراع) مع القيم المنحرفة ، أو (التنافس) المفضي الى أهداف مشتركة أو (التكيّف) مع بيئات تتطلب تنازلاً عن الذات ، أو تمثيلاً وتوحداً مع بيئة جديدة ، أو (الانسحاب) أساساً من ميدان التفاعل : حفاظاً على قيمة ايجابية . . . الخ) .

هذه العمليات الايجابية تقابلها ـ بطبيعة الحال ـ عمليات سلبية تفرضها نزغات الشيطان أو الجهل تبعاً لذاتية البشر وعدوانيتهم من جانب وقصورهم المعرفي من جانب آخر ، فيما يستتبع مثل هذا السلوك تفاعلات مفضية الى التفكك الاجتماعي ،...

وفي الحالين ، فإن عمليات وأفعالاً من نحو : التعاون ، التنافس ، الصراع ، التكيف ، الانسحاب : بمستواها الايجابي والسلبي تظل فارضة فاعليتها في الحياة المشتركة بين الناس ، مما يتعين على الباحث الاجتماعي طرحها في ميدان الدراسة ، والانتهاء من ذلك الى تحديد القيم الايجابية المفضية الى تحقيق التوازن : وتحديد القيم السلبية المفضية الى التفكك الاجتماعي ، ذلك من خلال المقارنة بين التصورين الأرضي والاسلامي)[1] .

---

(١) الاسلام وعلم الاجتماع ، ص١٢٥ ، الدكتور محمود البستاني .

ينتهي الباحث بعد ذلك الى موضوعات الفصل الرابع وهو آخر فصول الكتاب.

يحمل الفصل المذكور عنوان: (تنظيم الحياة المشتركة) وفيه يتوفر الباحث على تقديم نظرات متنوعة بالنسبة الى كل ما يدخل ضمن هيكلية الحياة، وطرائق تنظيم مؤسساتها عامة، من قبيل: (العلاقات الخاصة) التي يندرج ضمنها مجموعة من الروابط مثل: الأسرة، الأصدقاء... الخ.

فيما يتطرق في الفصل عينه، الى (العلاقات الثقافية) والتي تتضمن أيضاً اشكالاً اجتماعية متعددة مثل: (جماعة المجلس ـ الدرس ـ الذكر) العلاقات الشعائرية، العلاقات النفعية...

يتناول بعدها موضوعات حساسة جداً أمثال: (المؤسسة الاقتصادية) و(المؤسسة السياسية (الدولة) من حيث التنظيم، من حيث الوظائف، العلاقات المتبادلة بين الدولة ورعاياها، العلاقات الخارجية، العلاقات مع الاقليات...).

يقول الباحث بعد تقديم وجهات نظر العلماء الاجتماعيين في ظاهرة الدولة ومشروعيّة قيامها...

(إسلامياً: لا ترديد في أن مهمة الانبياء عليهم السلام منذ أول تجربة في الأرض، متمثلة في آدم عليه السلام وخلفائه وانتهاءً بنبوة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم واستمراريتها،... هذه المهمة قد اقترنت بقضايا (التنظيم) لمختلف السلوك البشري بشكل أو بآخر...، ولا ادلّ على ذلك من ملاحظة (حكومة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث جسدت مفهوم (الدولة) و(وظائفها) بجلاء في شتىٰ الميادين: سياسياً، وإدارياً، وعسكرياً، واقتصادياً... الخ، كما ان التوصيات تؤكد قيام (الدولة) بشكل أو بآخر تحقيقاً للأهداف التي تمت الاشارة اليها... كل ما في الأمر ان التصور الاسلامي لـ(الدولة) يتميز عن التصور الأرضي لها، بكونه ينطلق من مبادئ عبادية لابد من مراعاتها: انسجاماً مع سائر المؤسسات الاجتماعية التي تنظّمها المبادئ المشار اليها...)[١].

---

(١) الاسلام وعلم الاجتماع، ص٢٢٠، الدكتور محمود البستاني.

والجدير بالذكر: ان الباحث قد تناول في حديثه عن الدولة الاسلامية . . . موضوعاً أو جانباً مهماً بالنسبة لـ (مشروعية الدولة) حيث تفاوتت وجهات نظر الاسلاميين في تحديد الاشكالية ذاتها . يقول الباحث :

(أما اسلامياً ، فان التشريع يظل منحصراً في مبادئ الله تعالى أي لا وجود لنخبة (مشرّعة) بل لنخبة تقوم بعملية (توصيل) لمبادئ الله تعالى ، متمثلة في المعصومعليه السلام وهذه الولاية أو النيابة تنحصر مهمتها في توضيح المبادئ من خلال اجتهاداتهم المنتقاة من النصوص الاسلامية وهي نصوص أو تشريعات أو مبادئ (ثابتة) من قبل الله تعالى ، مع ملاحظة أنها تنطوي على (حيوية) بحيث تتناول ما هو مستحدث من الظواهر التي تفرضها عمليات (التغييرالاجتماعي) .. . لذلك)[١] .

لكن : يلاحظ على الباحث ، ان كثيراً من المفهومات التي تحدث عنها ، قد تناولها بصورة مختزلة جداً بحيث لا تعطي تصوراً كافياً للمتلقي في عملية فهم الاشكاليات واستيعاب منحنياتها .

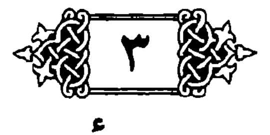
فعلىٰ سبيل المثال : توجد الكثير من الجدليات التي تطرق اليها بخاصة جدلية [الفقيه] وحدود صلاحية [سلطنته التشريعية] وغير ذلك من الأمور بالنحو الذي لا ينطوي الموقف الأختزالي على أي مؤشرٍ ايجابي .

كما ان الباحث لم يقف مع الباحثين الاسلاميين ـ ممن أسهموا في الحقل الاجتماعي ـ موقف الاشادة أو التثمين أو على أقل التقادير موقف الاشارة الى أعمالهم ـ بدءً من [ابن خلدون] وحتىٰ المعاصرين . . .

وهذا ـ باعتقادي ـ نوع من الاقصاء .

---

(١) المصدر السابق ، ص٢٢٣ .



الحقل الأدبي

النظرية الأدبية :

ليس ثمة من شك في ما تشهده الخارطة الأدبية المعاصرة من زخم تنظيري ووفرة انتاجية كبيرة أثر تطورات نوعية قد تمّت بسرعة قصوىٰ ، مما استتلى الوضع ذاته ايقاد صراعات واسعة بين الأطراف المتوزع فيما بينهم بطاقات الحضور .

تغذي الأطراف جميعاً (ايدلوجيات) تتقاطع بعضها مع البعض الآخر في طبيعة الأهداف والمرتكزات ، الأمر الذي أدىٰ إلى تأرجح الرؤىٰ وتفشي حالات فكرية غامضة مصحوبة بارهاقات عصبية حادة بالنسبة للمعنيين بقضايا الأدب ومداخلاته .

فما أن تبرز على السطح مدرسة أدبية جديدة وتتبدىٰ للجميع معالم القوة والجدة فيها . . . لتفاجئ الوسط العام بما هو أحدث وأعمق منها معلنة عن موت السابقة ومجتذبة الانظار نحو مكامن الاثارة والابتكار التي تستبطنها معطياتها الحديثة باطراد مستمر. ومثالاً على الواقع المعاش فان (البنيوية) التي وقفت لمدة طويلة في العصرين الأخيرين كماردٍ جبار على الساحة الفكرية والأدبية معاً جاءها (ديريدا) على حين فجأة معلناً عن موتها ومشيداً في الوقت نفسه (اتجاه ما بعد البنيوية) أو ما يصطلح عليه بـ (التفكيكية).

ان الفكر الاسلامي الذي تطرحه قطاعات ومؤسسات اجتماعية ودولية متعددة

بديلاً عن الافرازات المقابلة لم يولِ الحقل الأدبي ما يستحقه من الاهتمامات التي تتناسب وخطورة فاعليته إذ يلاحظ ان غياباً واضحاً لجناح لا تستقيم بدونه الحركات الفكرية في عمليات التغير الواعية . بل ان نوعاً من القحط الثقافي يمتد بكاهله على رقعة واسعة من نشاطات الاسلاميين في الصعيد المذكور.

ويخرج من العموميّة السالفة ولادات معاصرة لبعض الأعمال ذات الطابع الاسلامي ، لكن في اطار جزئي ومحدود دون أن تمتد الى نطاقات التنظير والتخطيط الذي يماثل الصراع الموجود .

من هنا ينبغي الاشادة بما قدمته شخصيتنا المتحدث عنها في الحقل المشار اليه ،كما تبرز قيمة ونوعية أعمالها في المضمار نفسه .

ولا نذهب بعيداً : فان اضاءة سريعة نحو أعماله ذاتها تكشف عن مديات رصده وتعمقه في متغيرات المدارس الحديثة الى جانب نوعية أبحاثه التي صرف لها جهداً كبيراً .

والواقع ان نشاطاته في أسلمة النظرية الأدبية تنشطر الى قسمين :

الأوّل : نظري تخطيطي وذلك ما اضطلع به كتابه الموسوم (الاسلام والفن) وبه يحاول أن يرسم الخطوط العامة للأدب والفن وبالرغم من أن الكتاب قد جاء مختزلاً في موضوعاته إلّا أنه ينطوي علىٰ مضمونات ومفهومات أساسية في عملية التأسيس في مجالات النظرية الأدبية حسب التصور الاسلامي لها .

وعلى سبيل المثال : فانه قد تناول مفهوم الالتزام الذي سوف نعرض له بعد قليل كما تحدث عن عناصر الفنّ أو العمل الأدبي مثل : العاطفة ، التخيّل ، الصورة ، الايقاع ، البناء . مثل ما تناول الاشكال الفنية من قبيل :

الشعر والقصة والمسرحية . . . وغيرها من الموضوعات المتعلقة بالجانب نفسه . وبما أننا سوف نتطرق لهذه التفاصيل في حديثنا عن الجانب التطبيقي الذي توفر

عليه الباحث . نكتفي هنا بذكر بعض العناصر من قبيل :

العـاطفة : فلقد ذكر من خصوصيات العنصر العاطفي اموراً ملفتة للغاية ومواقف التصعيد العاطفي سواء الإيجابي والسلبي كما بيّن مواطن تحفظ الوجهة الاسلامية لبعض أنواع التفعيل العاطفي منطلقاً في تأييد الرؤية الشرعية حيال العاطفة من خلال الزاوية النفسية ونتائجها التي لا تقبل التشكيك(١) .

بعد ذلك انتقل بالحديث عن وظيفة العنصر العاطفي في الاعمال الأدبية ومقدار ما ينبغي استخدامه فيه ، يقول :

(بيد ان ثمة فرقاً بين مطلق التعبير العاطفي ـ كما قلنا ـ وبين المبالغة فيه ، فالعاطفة مادامت تشكل أحد وجهي الاستجابة (الفكر والعاطفة) حينئذٍ لابد أن تأخذ نصيبها من العمل الفني أيضاً ، مع ملاحظة أن أدواته من (تخيّل) و(ايقاع) ونحوهما تساهم في التصعيد العاطفي : إلّا أنه في نطاق محدد . . . ، وبكلمة جديدة : إذا كان المشرع الاسلامي يسمح ـ على سبيل المثال ـ بالتصعيد العاطفي في مواقف خاصة مثل عاطفة الأم حيال طفلها الصغير أو عاطفة الجندي في ساحة المعركة أو عاطفة الشخص حيال قريبه ، فان (العمل الفني) يعدّ واحداً من هذه المواقف التي يتصاعد من خلاله العنصر العاطفي لاحداثه اثارة خاصة عند المتلقي . . . فنقل الفنان لأحد مشاهد الطبيعة الجميلة ، أو لاحدى المعارك العسكرية أو التثمين لأحدىٰ شخصيات المعصومين عليهم السلام مثلاً ، عندما يقترن بالتصعيد العاطفي لها ، حينئذ يكتسب صفة المشروعية دون أدنىٰ شك لأن التصعيد المذكور يجعل التواصل مع الله تعالى من خلال مشاهد الطبيعة أو المعارك الاسلامية أو شخصيات المعصومين عليهم السلام أشد حجماً من الاستجابة العادية . . . وثمة فرق بين التصعيد العاطفي وبين المبالغة أو التورّم ، فالأول تفرضه حقائق الواقع

---

(١) حيث يدعي الباحث بان سمة المبالغة تظل مطبوعة ـ في اللغة النفسية ـ سمة المرض والشذوذ .

والآخر يتسبب عن شذوذ أو مرض ،كما قلنا)[١] .

وأما الثـاني : فهو تطبيقي عملي وقد تكفل بموضوعاته كتابه المعنون بـ (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي) .

لا يخفىٰ ـ وان كان في القول شيء من التكرار ـ ان الباحث يمتلك رصيداً خبروياً عالياً في المجال ذاته وهو حصيلة ما يزيد على ثلاثة عقود من البحث والتدريس والتفرغ المشهود به عند ذوي الأختصاص كما سوف يتبين لاحقاً .

وهذه احدىٰ النقاط التي تؤخذ بنظر الاعتبار في عملية التقويم دون أدنىٰ شك .

وكيف ما يكون : الكتاب الذي بصدد قرائته أو التعريف به يطفح بظواهر ايجابية متعددة وكلها تستحثُ الدارس بالوقوف ازاءها . بيد من الممكن أن نختزل الظواهر جميعاً ضمن فرزها على ملمحين مهمين ، بحيث تتغطىٰ بذلك غالبية السمات التي يكتنزها الكتاب .

الأوّل : الملمع الفكري : وهو محاولة لتطبيق (نظرية الالتزام) بكافة مستوياتها على تخوم العمل الأدبي الذي تتقاذفه تيارات غير خاضعة البتة لأهداف المنظومات القيميّة والأخلاقية التي تمثل الممارسة الأدبية ـ حسب التطور الأخلاقي ـ احدى وظائفها المؤثرة .

ومفهوم الالتزام عند البستاني يتوسع بدلالاته واغراضه ليضم أبعاداً عباديّة عميقة . . . فيلاحظ أن المفهوم الذي يسعى الباحث الى تطبيقه يعيش تضخماً نوعياً لم نألفه عند الآخرين ممن سعوا كذلك الى تطبيق مفهوم الالتزام إذ أننا نجد أن ما يعنيه الغالب ، يتسم بنظرة أحادية الجانب بحيث تتحدد برؤىٰ تحوم على موضوعات جزئية من قبيل : حرية الذات المنتجة وحجم الانفتاح على الطرف

---

(١) الاسلام والفنّ ، الدكتور محمود البستاني ، ص٢٣ .

الآخر... الخ. دون أن تقفز بالممارسات الأدبية نحو معطياتها العباديّة من حيث تجسّد عملية التلاحم بين العناصر الروحيّة والذوات المبدعة عبر ومضات سحرية تتجلىٰ بها جاذبية المبادئ الموشاة بجمالية الفنّ الالهي الأصيل.

ان الباحث في خطوط منهجه العام يحاول جهد الامكان ابراز النماذج الايجابية من تراثيات الأدب العربي فيما يحاول من جانب آخر نقد النماذج المنحرفة وتحليل سلبياتها الفكرية من وجهة نظر اسلامية وانسانية مبتعداً عن الانماط المألوفة التي تخضع النصوص الأدبية حسب المنهج السياسي المتبع حيث يدرس مؤرخو الأدب التراث الأدبي من خلال تدرج المؤسسات السلطوية المنحرفة فتضيع نتيجة ذلك اسماء عظيمة بسبب معارضتها للمؤسسات المذكورة... وكما حدث بالفعل لشعراء عرفوا بانتمائهم لأهل البيت عليهم السلام.

والأهم من ذلك كله: ان عناية كبيرة يبذلها الباحث في اعطاء الأدب التشريعي مكانته اللائقة به كتاباً وسنة حيث تطالعنا عنوانات لعصور أدبية جديدة تحقّب التاريخ الأدبي وفق تسلسل الشخصيات المعصومة خلافاً لما هو موجود من قبيل (أدب القرآن... الأدب النبوي... أدب المعصومين عليهم السلام) وكما أشرنا حسب التسلسل الزمني الى جانب التلميح بالأدب البشري الذي يصطلح عليه المؤلف بـ(الأدب العام) مع دراسة أدب ما قبل الاسلام بنحو موضوعي يكاد أن ينفرد بتحليلاته التي قدمها عن العصر المشار اليه وبالخصوص الزاوية التي حاول أن يربط من خلالها بين (أغراض الشعر الجاهلي أو موضوعاته) وبين طبيعة الحياة المنحرفة وقتئذ.

ويتابع الباحث عصور ما بعد الأئمة عليهم السلام الذين تتوزع فصول الكتاب عليهم ليصل بنا الى العصور المصطلح عليها بـ(العصور المظلمة) موضحاً لعوامل انحطاط الحياة الأدبية التي لم يلحظ فيها أي عمليات ابداع وجدة ومعللاً لبروز الظواهر التي عُرفت بها العصور نفسها من صناعات لفظيّة ممجوجة وغير مستساغة.

فيما ينتهي بعد ذلك بعصر (النهضة الحديثة) راصداً جميع التطورات الاجتماعية والأحداث السياسية التي انعكست على الأدب بصورة عامة .

ولا ننسىٰ ان الباحث من زاوية مفهومه الالتزامي أو الأخلاقي يشجب بعض الانواع الأدبية التي تزدحم بها المصنفات المختصة بذلك من قبيل : الغزل ، الهجاء ، الفخر الذاتي . . . الخ .

حيث يقول : (انه من المؤسف جداً أن نلحظ أن أدب الجنس والخمر والغناء واللّهو بعامه ، مضافاً الى الأدب الزائف (مدح الملوك والوزراء . . . الخ) والأدب العدواني (الهجاء الذاتي . . . وليس الموضوعي) والأدب الذاتي (الفخر . . .) هذه الانماط من الأدب السلبي تُغطي خارطة النتاج المكتوب باللغة العربية (وغالبية الآداب الأجنبية أيضاً) في مطلق العصور . . . أمثلة هذا الأدب هي جزء من الانحراف الاجتماعي الذي لا يزال علماء الاجتماع والنفس والتربية الأرضيون أنفسهم يجهدون في تشخيصه وعلاجه لتحقيق التوازن الفردي والاجتماعي . . . ومع ذلك نجد : أن المعنيين بشؤون الأدب يؤرِّخون لأمثلة هذا النتاج المنحرف بحجة « الموضوعية في البحث » وبحجة أنه (فن) يحقق الاشباع للحاجات (الجمالية) لدىٰ البشر : علماً بان أبسط مبادئ المعرفة تُقرر بان الحاجات البشرية ينبغي أن تحقق من خلال الطرائق السويّة للاشباع وليس من خلال الاشباع المنحرف . . . . الخ ، لقد حاولت دراستنا السريعة لتاريخ الأدب أن تتجنب هذه المزالق التي وقع فيها مؤرخو الأدب واضعين بنظر الاعتبار أن التاريخ أو التراث ينبغي أن نفيد منه في « الحاضر » مستهدين ـ في ذلك بُخطى القرآن الكريم الذي يُؤرّخ للماضين وقصصهم باعتبار ذلك (عبرة وعِظة) (لقد كان في قصصهم عبرة . . .) وليس لمجرد الامتاع والتسلية واللهو)[1] .

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي ، الدكتور محمود البستاني ، ص٦ .

ويعجبني هنا أن أستشهد بأحد النصوص التقويميّة عن الكتاب نفسه، لأزيد من اضاءة الجانب المتطرق اليه؛ يقول أحد الباحثين في تناوله لكتابه المذكور: (يحاول الدكتور محمود البستاني في كتابه تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي تقديم رؤية أخلاقية دينية تنصف النماذج الأدبية التي لحقها حيف من قبل الدارسين الآخرين ... وإذ كان مؤرخو الأدب العربي قد وزعوه الى حقب بحسب قيام الدول وتعاقب الحكام فان التجديد الذي يقدمه المؤلف هو في توزيع ذلك وفق منظور ديني ومذهبي يبدأ من حياة النبي ﷺ وينتهي في حياة آخر الأئمة في اعتقاد الشيعة الاثنا عشرية ويلاحظ صلتهم بعصرهم خصوصاً على الصعيد السياسي وتأثير أدبهم في رجالات العصر من شعراء وكتاب) . ويساعد هذا التحقيب المبتدع على تتبع مظاهر الاستمرارية في حركة الأدب رغم تبدل الدول ... ويضيف الناقد الذي حاول قراءة الكتاب : (إذا كان هناك أدب سلطاني محله مجالس الأمراء ومجاله المديح وتنطق فقراته بالبشائر والتهاني فان هنا استبدالاً له بأدب ايماني موضوعه العقيدة والأخلاق الاسلامية والتزام القدوة الحسنة والمأثور من كلام النبوة والعترة الطاهرة ... كما أنه يلتزم مفهوماً تطهرياً صارماً .

وبحوث الكتاب ينتظمها نفس ايماني تشيع فيه معاني الحكمة الراقية والاشراق الالهية والتعليمات السامية)[1] .

❊ ❊ ❊

الثاني : تظل الاداة الفنيّة أشد أدوات الباحث تألقاً في ممارساته قاطبة . حيث تتبدى من خلالها مهارته التي ترتفع به لتجعله في قائمة الاسماء المحدودة على صعيد الحقل الأدبي المعاصر .

ان مجموعة (رؤاه) الفنيّة قد تكفل بطرح نقاطها الأساسية كتابه المتقدم

---

(١) العالم (مجلة) السبت (١١) كانون الثاني ١٩٩٢ ، ص٥٤ ، ع٤١٢ ـ لندن .

(الاسلام والفنّ) حيث ألمح هناك عن طبيعة الطرائق المعتمدِ عليها في عملية الصياغة الفنيّة وكيفية تحقيق (عنصر الاثارة في القارئ) كما أوضح للدارس أنماط الاستجابة عند المتلقي (من حيث بناؤه النفسي) وما ينطوي عليه من دقائق حساسة والأمر الذي نطمح بالاشارة اليه هو الجانب التطبيقي للبُعد الفني وذلك ما توفر عليه كتابه الموسوم (تاريخ الأدب العربي) علماً بان ثمة كتابا للباحث بعنوان (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي) هو الآخر قد حفل بموضوعات فنية نقدية يأتي الحديث عنه فيما بعد . . .

والحق ان هناك قابلية مدهشة في نفاذ الباحث الى مجاهيل النصوص التي يتناولها ، تكاد ان تبلغ بنا حداً لا نجد كيفية التعبير عنها . أو تصويرها بالنحو الذي هي عليه .

المهم ان العناصر الفنيّة التي تحرك الباحث علىٰ ضوئها تتمثل في أربعة عناصر بارزة حسب وجهة نظرنا الخاصة علماً بان هناك عناصر اخرى يطرحها الباحث في أكثر من مكان ، والعناصر هي كما يلي :

١ ـ البنائي . ٢ ـ القصصي . ٣ ـ الصوري . ٤ ـ الايقاعي .

وكل عنصر من العناصر المشار اليها يتخذ أشكالاً متعددة لعلّ في بعض أشكالها نوعاً من الجدة أو الاضافة التي لم يخبرها الآخرون خصوصاً من الوجهة النفسيّة التي يتناول بها الموضوعات عامة . . .

١ ـ العنصر البنـائي :

أشرنا سابقاً في حقل التفسير عن منحنيات العنصر المذكور بشيء أكثر تفصيلاً ، فلا حاجة للتعرض اليه مكرراً . بيد ، الجدير بالملاحظة أن العنصر البنائي في كتابه الذي نحن بصدده ، يتناول موضوعات جديدة لم نلمح اليها في الحقل التفسيري وذلك من قبيل ابراز بنائية النصوص الشرعية غير الكتاب مثل أحاديث المعصومين

وخطبهم وادعيتهم ووصاياهم مضافاً الى توضيح بنائية النص الشعري والقصصي في تناوله للأدب البشري أو الأدب العام .

والواقع ان كثافة اهتماماته بتجانس العناصر الفنية من خلال بنائها العام أمرٌ من الوضوح بدرجة حيث نبه أكثر من باحث عليها نشير الى أحد النصوص الذي جاء عفوياً مسترسلاً وفي سياق تحديد خطوط النظرية الاسلامية للأدب : [والفكرة التي يقوم عليها هذا البحث والتي لها صلة بالأبعاد الفنية لنظرية الأدب الاسلامي هي فكرة التجانس بين أجزاء العمل الأدبي وهي فكرة ليست جديدة بل أشار اليها الدكتور محمود البستاني في بحثه الموسوم بـ (نظرية الالتزام في الأدب الاسلامي)] (١).

ننتخب من الأشكال التي تحدث عن بنائيتها نموذجاً واحداً لنتعرف على طبيعة تناوله والنموذج المنتخب هو (الخطبة) حيث جاء في تحليله لأحدىٰ خطب الامام الحسين عليه السلام من الزاوية البنائية : (هذه الخطبة تعدّ نموذجاً للنص الذي تتوفر فيه عناصر الفن بارفع مستوياته ، فمن حيث الموضوع تحوم الخطبة علىٰ « فكرة » واحدة هي (قضاء حاجة الآخرين) . . . ومن حيث الهيكل الفني للموضوع نجد أن تلاحم أجزائه وتناميها العضوي يجسّد أرفع مستويات الإحكام الفني . . . .

فالخطبة تبدأ بالحديث عن المنافسة والمسارعة في عمل الخير مما تفصح هذه المقدمة عن أن التركيز فيها سيكون على ما هو خطير ، . . . ثم تربط الخطبة مباشرة بين ذلك وبين قولها . . . الخ .

إذن : وصل النص الآن الى صميم الفكرة التي يستهدفها وهي (قضاء حوائج الناس) بعد ذلك تنمي الخطبة عضوياً هذه الأفكار على قضاء الحوائج . . .

إذن : جاءت هذه الخطبة محكمة كل الإحكام متلاحمة عضوياً ، بحيث يرتبط

---

(١) التوحيد (مجلة) ع٨٣ ، ص١٦٧ ، ١٩٩٦م ، بحث للدكتور شلتاغ عبود بعنوان : التجانس بين عناصر العمل الأدبي في نظرية الأدب الاسلامي .

كل جزء بالآخر ويتنامى كل جزء الى فكرة متطورة عن الجزء السابق . . . مضافاً الى التوكؤ علىٰ عنصر الايقاع والصورة من استعارة وفرضية واستدلال مما يجعل الخطبة نصاً فنياً له جماليتهُ الفائقة وصياغته المحكمة الممتعة)[١] .

٢ ـ العنصر القصصي :

بالرغم من أن الباحث يتناول القصة كموضوع مستقل له خصائصه وضروبه المتنوعة وذلك ما تضمنه كتابه التنظيري المتقدم (الاسلام والفنّ) وحتىٰ كتابه الذي نحن بصدده فقد تحدث عن القصة كعنصر بارز في سياق تناوله للأدب القرآني : (الملاحظ أن النص القرآني قد استخدم العنصر القصصي بنحوٍ ملحوظ . . . ان القصة القرآنية قد استخدمت عنصراً موظفاً لانارة السورة الكريمة عدا بعض السور التي تمحضت للقصة مثل سورة (يوسف ، نوح ، المسد ، الفيل . . .) إلّا أنها في الواقع لم تتجاوز الوظيفة الفكرية التي توفرت عليها في سائر السور . . .) .

ويأخذنا الباحث بجولة طويلة في عالم القصة من حيث الشكل والاغراض وغيرها وبالامكان أن نلخص جولته المشار اليها بما يلي :

من حيث العرض سلكت القصة القرآنية كلاً من الاشكال الآتية في عرضها للأحداث والشخصيات والمواقف :

ونكتفي هنا بالاشارة اليها :

١ ـ السرد الخالص .

٢ ـ السرد والحوار .

٣ ـ الحوار الخالص .

٤ ـ الحوار الداخلي .

٥ ـ الحوار الخارجي .

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي ، الدكتور محمود البستاني ، ص٣١١ .

٦ ـ الحوار السماوي .

٧ ـ الحوار الملائكي .

مع عرض واف للمسوغات التي تشكل الانماط الآنفة . وضيق المجال لا يسع لذكر الشواهد .

٣ ـ العنصر الصوري :

لا شك أن العنصر الصوري أو التخيلي ، يعدُّ ركناً اساسياً في الممارسة الأدبية عامة ، بل ان ما يميّز الأعمال الأدبية عن غيرها ، بحيث تخلع عليها سمة الفنّ أو الأدب هو : العنصر المذكور وهذا وفق المقولة الشائعة : من تأكيد البديهيات .

بيد النقطة التي تستحق التسجيل في الموضوع ذاته : أن الباحث ، يسهم في اكتشاف أشكال صورية جديدة ، لم تتوفر البلاغة القديمة عليها ، أنها تحصر موضوعات الصورة في اشكال محددة يرثها جيل بعد جيل دون أن تشهد تطور أو إبداعاً : (البلاغة الموروثة تحصر الصور في رقم محدّد هو : التشبيه ، الاستعارة ، الكناية . . . الخ . إلّا أن ما نجده من تنوع الصور من جانب والفوارق الدقيقة فيما بينها من جانب آخر وطبيعة التصور الجمالي لوظيفها من جانب ثالث يقتادنا الى تصنيفها وفق مالي :

١ ـ التشبيه . ٢ ـ الاستعارة . ٣ ـ التقريب . ٤ ـ التمثيل . ٥ ـ الرمز .

٦ ـ الاستدلال . ٧ ـ التضمين . ٨ ـ الفرضية . ٩ ـ المبالغة . ١٠ ـ الاحالة)

طبيعياً ، ان النص المستشهد به آنفاً ، يظل مندرجاً ضمن مجالات الحقل التنظيري للنقد والبلاغة حيث تحتشد المجالات التنظيرية بدقائق وشموليات وتأسيسات تحتاج الى حقل خاص بها إذا لم نقل دراسة مستقلة .

لذا تجدنا في الوقت الحاضر مكتفين بتناول بعض نماذجها على الصعيد التطبيقي الذي أردنا توضيح بعض خطوطه العامة .

ونتنخب من جملة ما أرصدناه من تطبيقات العنصر الصوري ، وقفات الباحث مع أدب الامام علي عليه السلام حيث جاء تحت عنوان (العنصر الصوري) ما يلي :

(تظلّ العناية بالعنصر الصوري لدى الامام عليه السلام أمراً ملحوظاً في غالبية النتاج المأثور عنه ، حتىٰ ان بعض النصوص تتحول الى غاية كثيفة من الصور المتتابعة والمتواصلة بشكل لافت للنظر)[١] .

ويتابع الباحث حديثه عن العنصر المشار اليه ، حيث يتوغل في أعماق النصوص ومن زوايا متعددة ابرزها : الجمالية ، النفسيّة . . .

الى أن يصل بنا الى محطة ، يعمل خلالها بعرض واسع وممتع لاشكال الصورة في النصوص المأثورة عن أمير المؤمنين عليه السلام واليك بعض المقتطفات حسب الاشكال المصنفة :

١ ـ **التشبيه** : (مادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف) ، (يقفون علىٰ مثل الجمر من ذكر معادهم) .

٢ ـ **الاستعارة** : (فقأتُ عين الفتنة) ، (قدّم للوثبة يداً وآخر للنكوص رجلاً) .

٣ ـ **التمثيل** : (الحلم عشيرة) ، (ـ كان ليلهم ـ في دنياهم ـ نهاراً : تخشعاً واستغفاراً وكان نهارهم توحشاً وانقطاعاً) .

٤ ـ **الاستدلال** : (من وثق بماء لم نظمأ) ، (الشجرة البرية أصلب عوداً) .

٥ ـ **الرمز** : (آه من قلّة الزاد ، وطول الطريق ، وبُعد السفر) ، (صبرتُ وفي العين قذىً ، وفي الحلق شجا) .

٦ ـ **الفرضية** : (لو أحبّني جبل لتهافت) ، (لو كنت شخصاً مَرئياً ، وقالباً حسياً لأقمتُ عليك حدود الله . قوله مخاطباً الدنيا) .

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي ، ص٢٤٧ .

٧ ـ التضمين : (ما كان الله ليدخل الجنة بشراً بامر أخرج منها ملكاً) ، (لستم ممن يتبوأ الدار والايمان) .

٨ ـ التورية : (كنتم جند المرأة واتباع البهيمة . . . وغا فأجبتم وعقر فهربتم) .

ان هذه النماذج الصورية جزء من تراث ضخم هائل لم نعرض لها إلّا لكونها مؤشراً الى أنه عليه السلام قد توفر علىٰ جميع الاشكال الصورية التي تستخدم في ميدان الصياغة الأدبية(١) .

❊ ❊ ❊

٤ ـ العنصر الايقاعي :

فيما تقدم أشرنا الى ثلاثة من العناصر الفنيّة التي تربعت على مساحة واسعة من أعمال الباحث في ميدان التخطيط النظري والميدان التطبيقي . وهنا تجيء بالعنصر الرابع الذي يشكل سمة بارزة في أعماله المذكورة . والملفت ان الباحث في ميدان التطبيق ، يكشف عن حضور العنصر الايقاعي وبأنماط متعددة في ثنايا النصوص التشريعية مثل : الايقاع الخارجي .

ـ الايقاعي الداخلي .

وما يتصل بالبُعد الثاني من عناصر الايقاع وهو التجانس .

كل ذلك نجد له شواهد واقعية تجسده بنحوٍ لا يحتاج الى تأويل أو التماس الأدلة المتكلّفة فان النص القرآني والحديث النبوي وتراث أهل البيت عليهم السلام نماذج ناطقة بما يذهب اليه الباحث ، ولا أعتقد أن ذكر النماذج في هذا السياق ، يعود بفائدة علمية ، خصوصاً أن كتابه الذي يقع في (٧٥٠) صفحة حافل بذلك .

---

(١) المصدر السابق ، ص٢٥١ .

ملاحظات حول كتاب تاريخ الأدب العربي

جاء في تعريف أحدى (المراجعات النقدية) التي قدمها أحد الباحثين ، ما يلي (وصلتنا هذه المراجعة لكتاب الدكتور محمود البستاني الجديد القيّم « تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي » من الدكتور عبد المجيد زراقط الذي ثمن الكتاب والجهد المبذول فيه وابدئ بعض الملاحظات النقدية والمجلة تنشر كما وردتها آملة أن يكون ذلك حافزاً للحوار حول الملاحظات التي أبداها وذلك من أجل بلورة نظرية أدبية اسلاميّة وهو ما أكد عليه الدكتور زراقط نفسه)[(١)] .

لا أحسب أن المراجع قد وقف على خيوطها المتناثرة كما ينبغي عليه الوقوف .

على أية حال : ان أهم ما لاحظه المراجع على الكتاب هو أن الباحث ـ أي البستاني ـ قد وقع في مفارقة حينما وضع عنوان الكتاب (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي) في حين قد سجّل الباحث في كتابه (للأدب السويّ فقط) فكان ينبغي عليه أن يعرض للأدب قاطبة كيما ينطبق العنوان على ما تضمنته فصول الكتاب ، وإلّا فالأجدر أن يختار عنواناً آخراً أكثر دقة في دلالته .

والواقع أن هذه النقطة بالذات لا تستحق الوقوف مطلقاً ، طالما أن الباحث قد وضع بين أيدينا مسوغات عمله هذا بوجه لا يتسرب اليه التشكيك . أشار البستاني في تصدير كتابه وكما مرّ ذكر هذه الكلمات (لقد حاولت دراستُنا السريعة لتاريخ

---

(١) نور الاسلام (مجلة) ص٩٢ ، العددان ٢١ و٢٢ سنة ١٤١٢هـ .

الأدب أن تتجنب هذه المزالق التي وقع فيها مؤرخو الأدب ، واضعين بنظر الاعتبار أن التاريخ ، أو التراث ينبغي أن نفيد منه في « الحاضر » مستهدين ـ في ذلك ـ بخُطىٰ القرآن الكريم الذي يؤرخ للماضين وقصصهم باعتبار ذلك (عبرة وعظة) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ... ﴾ وليست لمجرد الامتاع والتسلية واللهو)[١] .

فهو في صدد تقديم النموذج الذي يتوافق مع رؤيته الايديولوجية الخاصة ، لذا تجده مبتعداً عن كل ما يفسد ذوق (الدارس) من النماذج المنحرفة ، إذ الهدف الأساس هو : تفعيل المبادئ الاسلامية عبر التحليل والكشف والاشارة الى النصوص الملتزمة بفكرتها الاصلية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ مع أن الباحث لا ينسج صمتاً حيال النصوص التي توفر عليها الأدب العربي بشكلها العام فلقد عرض لنماذج كثيرة من منطلق النقد والردّ مساهماً بذلك في توعية القارئ .

واما النقطة الثانية التي أثارها المراجع فهي : (منهجية الكتاب) والمقصود هو تقسيم الباحث للعصور الأدبية وفق رؤيته الجديدة .

يقول المراجع : (وتتمثل المسألة الثانية في تصنيف الأدب الى مراحل تاريخية وفق أي معايير يتم ذلك والمعروف ان ما يميز مرحلة عن اخرىٰ هو التحول النوعي الناتج عن جملة العوامل التاريخية ، دينية وسياسية ، واجتماعية واقتصادية . . . الخ والتصنيف ينبغي أن يرتبط بمثل هذا التحوّل وأسبابه . .)[٢] .

وجواباً على هذه المسألة نعرض لوجهة نظر البستاني بشيءٍ من التفصيل والتبسيط : (ان المسوغ لتقسيم العصور الأدبية الى هذا العصر أو ذاك ينبغي أن ينحصر في السمات الفنيّة التي تميز جيلاً عن آخر ، وهذا ما توفّرت عليه دراسات متنوعة . . . ، لكن بما أن المؤسسة السياسيّة « الدولة » تجسد الهرم الاجتماعي الذي

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي ، ص٦ .

(٢) نور الاسلام (مجلة) ص٩٤ .

تلتقي عنده جميع الخطوط الاجتماعية حينئذٍ درج الكثير من الكتّاب على تقسيم الأدب وغيره الى العصور السياسية ،كما أن الوقائع التاريخية التي تسحب اثرها على مصائر الدول «كالحروب الدولية والاقليمية والمحلية » تفرض فاعليتها على التقسيم التاريخي نظراً لأهميتها المشار اليها . . .

كما نلاحظ بان الاتجاهات الايدلوجية تفرض فاعليتها أيضاً في بعض التقسيمات نظراً لابتناء المؤسسات الاجتماعية عليها . . . وهناك تقسيمات تخضع لاشكال أُخرى من الحركة الاجتماعية التي تتميّز باهمية خاصّة في نظر هذا المجتمع أو ذاك . . . وهذا جميعاً يعني أن ما هو مهم في تصوّر المجتمعات « وهو بطبيعة الحال أمر نسبي » هو الذي حدد نمط الدافع الى هذا التقسيم أو ذاك . . . بيد أن ما هو مهم ينحصر ـ في الواقع ـ في ظاهرتين هما : الاتجاه الايدلوجي والاتجاه الفني .

أما الاتجاه الايدلوجي فبصفته هو الجهاز القيمي الذي تبتني عليه المجتمعات سواء كانت ذات كيان سياسي « كالدول » أو كيان عام « كالأُمة » حينئذٍ يشكل مسوغاً له مشروعيّته التي لا تضارعها أية تقسيمات اخرىٰ مادامت جميع المؤسسات والنظم الاجتماعية تخضع للبُعد الايدلوجي الذي يحدّد هويّتها . . .

واما « التقسيم الفني » فيفرض مشروعيّته أساساً مادام التغير الذي يطرأ عليه يسحب أثره على الفن ـ سواء كان الفنّ أدباً أم غيره من الاشكال الثقافية . . . لكنّ الفنّ ـ سواء كان الفنّ أدباً أم غيره من الاشكال الثقافية . . . لكنّ الفن ذاته لا يمكن أن تتحدد سماته إلّا من خلال الزمن ، والزمن مادام يخضع ـ كما قلنا ـ للبُعد الايدلوجي ، حينئذٍ فان تحديده بهذا العصر الايدلوجي أو ذاك يظل حقيقة لا مفر منها . . . ، وهذا يعني ـ في نهاية المطاف ـ ان التقسيم الايدلوجي لعصور الأدب وغيره هو المعيار الأشدّ مشروعية من غيره . . .

وفي ضوء هذه الحقائق ، فان الايدلوجيا الاسلامية مادامت هي جهازنا القيميّ الذي تبتني عليه مجتمعاتنا ، ومادامت المجتمعات لا تنحصر في كيان سياسي

« الدولة » بل تتجاوزه الى « الأمة » ومادام الواقع السياسي أو العسكري يجسّد بالضرورة تعبيراً صادقاً عن الجهاز القيميّ للمجتمعات ، حينئذٍ فان ما يلتئم مع الواقع ، يظلّ هو الذي يفرض مشروعيّته لهذا التقسيم أو ذاك . . . ولا شك ان هناك « أمة » مقتنعة بان مجيء الاسلام يتواكب مع فترتين : فترة تشريعية تمتد من زمن النبي ﷺ الى سنة « ٢٥٦هـ » وفترة تبدأ مع غياب المشرع)[١] . الى أجل غير مسمّىٰ ، حينئذٍ فإنّ الجهاز القيميّ يفرض على المؤرخ ان يقسم تاريخ الفنّ الى هاتين الفترتين بصورة عامة ، وان يقسّم الفترات الخاصة وفقاً للشخصيات المشرّعة للجهاز القيميّ المذكور أو لسمات زمنيته « كالقرون » مثلاً إلّا أن أحدهما لا ينفصل عن الآخر كما ذكرناه ، فعصر الازدهار الثقافي أو الانحطاط الثقافي أو التوقّف الثقافي . . . لا ينفصل عن الزمن الموضوعي « حساب السنين حسب القرن أو العقد »[٢] .

وختاماً هناك بعض الملاحظات من قبيل : الغزل . . . الخ يجد القارئ ما يقابلها مفصلاً في العدد المشار اليه من مجلة (رسالة الثقلين) .

---

(١) لا شك ان المشرع بالأصل هو الله تعالى ، وانما يقصد بالتشريع هنا ما هو أعم من تبليغ التشريع ، والتشريع فيما خُوّل من ملئ الخلأ والفراغ وليس التشريع بالأصل والاستقلال .« المجلة »

(٢) رسالة الثقلين (مجلة) العدد الأوّل ، السنه الأولىٰ ، ص٢٠٥ .

النقد الأدبي

ليس بامكان محاولة بسيطة كهذه، ان تقتحم جانباً خطيراً، كان البستاني قد دخله، فأثبت من خلاله، ريادته المتفردة وقدرته الفائقة، خصوصاً انّنا نعلم سلفاً بان مجموعة من النقاد تصفه: [بالناقد المنظر لنظرية النقد...] وبصاحب مدرسة متكاملة في المجال النقدي الحديث.

لكن: هذا لا يعني ان ننسج حيال الجانب المذكور صمتاً فانّا وبحسب ما نتوكأ عليه من ثقافة نقديّة متواضعة، نستطيع أن نقول: بنبرات واثقة ـ أن البستاني قد قفز بالدرس النقدي المعاصر قفزات عملاقة، أكّدّ بها على عمقه المعرفي واصالته الفذة، كما قد ساهم في ارساء وتثبيت معالم النقد الاسلامي المستقل من خلال أعماله المتنوعة بهذا الصدد.

من هنا، فان تسليط الضوء على بداياته النقدية ورصد نتاجاته التأسيسيّة وما غلفها من إعلام ودوافع ذاتية أدّت الى نجاحها. يعطي للباحثين في فكره النقدي اشارات أساسيّة، تمنحهم القدرة على دراستها وكشف الحقائق المرتبطة بذلك بغيَة رفد وإثراء التجربة النقديّة لديهم. والواقع، حينما نتجه نحو خطواته الأولى في عالم النقد. نجد ان النقد عنده شيءٌ فطري!!! أو بعبارة أدق: ملكةٌ كسائر الملكات الأخرىٰ عنده.

فلقد ولد البستاني وهو يحمل النقد في أعماقه، حسّاً وذوقاً ودرساً، حيث تدّب في مسارب وجدانه وبواطن كينونته، ومضاتٌ من الكشوفات النقديّة. يتملّى

توهجاتها المتألقة ، بقوة صفائه العميق وحدة نظراته الثاقبة . . .

مما يجعل من النصوص الابداعية ، تتعرى عن أغلفتها المكثفة لتفسح الطُرق امام ، أصابعه الباحثة . . .

هكذا هو النقد عنده صرخات محبوسة ، تبحث عن المنفذ لتعبّر عن الجمال والابداع .

❋ ❋ ❋

بعد ان أكمل دراسته في [كليّة الفقه] بالنجف الأشرف . قرّر الذهاب الى [مصر] بغية الالتحاق بالدراسات العليا ، وقد تحقق هدفه الذي سعىٰ من أجله .

فدخل جامعة القاهرة [كلية دار العلوم] ، وقدم على رسالة [الماجستير] التي حملت العنوان التالي :

[النقد الأدبي في العراق في القرن العشرين] بحيث استتلت الرسالة المذكورة منه ، ان يرصد لجميع نتاجات النقد الأدبي في العراق منذ القرن التاسع وحتى القرن الحالي : وبعدها حضّر رسالة [الدكتوراه] التي كان عنوانها : [المناهج النقدية في نقد المعاصرين] وهي أحدىٰ المحاولات الضخمة في مجال النقد المعاصر حيث حاول ان يعرض لجميع التيارات الحديثة في عالم النقد وان يتوفر على دراستها ونقدها ايضاً . . .

ولا يأخذنا الاسترسال في متابعة أعماله النقدية ، عن فهم رؤية البستاني حول انخراطه في المجال المشار اليه .

بعبارة أوضح : ثمة دوافع وتوجهات خاصة تجعل من المرء ان يميل لهذا المجال دون الآخر . فكيف كان ينظر البستاني في بداية الأمر الى تلك الميول الذاتية حيال النقد . وهذا بالضبط ما حاولنا معرفته منه بصورة مباشرة فأجابنا على ذلك : [الواقع أن اختياري للنقد الأدبي كان بصدد ان النقد فرع حديث ، والانسان عندما يريد أن

يوصل أفكاره الى الآخرين عليه أن يتوسّل بلغة العصر وثقافته، فاخترت النقد الأدبي، بصفته يتيح المجال لأن يثبت الانسان أفكاره خلال عملية النقد ومن جانب آخر تقترن عملية النقد بضروب متنوعة من المعرفة الانسانية كعلم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة... الخ. من هنا اتجهت الى النقد الأدبي وقلتُ استثمر هذا الجانب لكي أوصل الافكار الى الآخرين واساهم في امكانية تعديل سلوكهم من خلال نقد النصوص الأدبيّة] (١).

واعتقد ان هذه الكلمات المختزلة، تكفي في اعطاء تصورٍ واضح عن أسباب توجهه أو اختياره للنقد الأدبي دون غيره من فروع المعرفة الانسانية.

وحيث أتيح لنا معرفة هذا الجانب بالذات، حينئذ نعود لمتابعة أعماله في مجال النقد والتي جعلت منه ناقداً ضخماً واستاذاً تربىٰ على يديه جمهورٌ واسع النطاق ونبدأ ذلك:

« في النظريّة النقديّة »

ان أول كتاب أفرزه البستاني للساحة الأدبية هو كتابه الموسوم أعلاه (في النظرية النقدية) الذي يعدّ باكورة نتاجاته عامة.

والملاحظ ان الكتاب المذكور، رافقه اعلام عجيب بدرجة أن الصحف والاعلام ـ في العراق ـ جميعاً قد خصصت صفحات بارزة للحديث عنه، كما ان النقاد الذين تناولوا الكتاب اعتبروه أفضل كتاب صدر في حينه. حتى أن ناقداً معروفاً بالعالم العربي وهو: (جبرا ابراهيم جبرا) كان قد أُجريت معه مقابلة في احدىٰ المجلات، فأوضح هناك ما مؤداه أن الكتاب يعتبر أحد كتب أربعة صدرت في هذا العام ليس بالعالم العربي فحسب بل حتى في أوربا. لما يمتاز بالجدة في طرح الافكار

(١) حوار خاص مع الدكتور أجريناه بتاريخ ١٤١٦هـ شعبان.

والتخطيط لنظرية في النقد الأدبي[١].

والواقع ان محاولته المشارة اليها ، تستحق المزيد من الاهتمامات ، ذلك للعمق والجدة والرصد المبذول فيها ، حيث حاول أن يرصد لجميع الاتجاهات العالمية في مجالات النقد التنظيري مثل : الاتجاه السيكلوجي ، والجمالي ، والايدلوجي والوصفي . . . الخ .

مع طرح الملاحظات التي حاولت أن تسجل لمفارقات الاتجاهات المذكورة ، وعلى صعيد النظرية فحسب دون أن تمتد نحو خطوط التطبيق .

[ان طرح مفهومات نحو : صلة النقد بـ (التاريخ الأدبي) و(الدراسة الادبية) وتحديد ماهيّة النقد بـ (التاريخ الأدبي) و(الدراسة الأدبية) وتحديد ماهيّة النقد عبر معالجة (استقلاله) أو (تبعيّته) بالنسبة الى الفنون الابداعيّة أو توزعه بين القيم الجماليّة والفكرية أو تراوحه بين (التاثرية) و(الموضوعيّة) أو من ثم تحديد عناصر من نحو (المقارنة) و(النسبية) ونظائرهما ، فضلاً عن صلته بضروب المعرفة غير الأدبية كـ (التاريخ) و(علم النفس) و(الاجتماع) و(الفلسفة) و(الاخلاق) وما اليها . . . .

جميعاً عبر تآزرها في استخلاص (القيمة النقدية وطرائق استخلاصها وتحديد نسبها . . . ذلك ما تحاول تقديمه هذه الصفحات . . .)] [٢].

وبالفعل فهناك العديد من الاثارات والرؤى الجادة في تضاعيف دراسته الحافلة بالموضوعات المعاصرة .

حيث تجد فيها ما يغنيك عن مراجعة مجموعة من الكتب النقدية ، فهي على حدّ قول بعض النقاد : [حصيلة عشرين عاماً من البحث والمتابعة] .

---

(١) الكلمة (مجلة) لم يتيسر لنا في الوقت الحاضر الرجوع الى عددها ، فآثرنا ذكر شيءٍ يسير هنا .

(٢) في النظرية النقدية ، محمود البستاني ، بغداد ١٩٧٠م .

والجدير بالذكر، ان البستاني كان قد حدثنا بخاصة عن أسـباب كـتابة الكـتاب المذكور، وعن عوامل نجاحه، فيما نعرضها كيما تستبن الفكرة بوجه كامل. يقول البستاني:

(عندما قرّرت أن أترك [الشعر] وجدت في الواقع أن هناك ـ في النقد الأدبي ـ نصوصاً متنوعة، فهناك نصوص منحرفة وهناك نصوص سويّة، وهناك ما هو أهم من هذه النصوص، هي نصوص التشريع الاسلامي، كالقرآن وأحاديث المـعصومين، لذلك رايتُ الأفضل هو: أن أتوفر على دراسة النصوص الشرعيّة ذات الطابع الفني، ومن خلال ذلك استطيع أن أحقق الهدف ولكن: بما أنني كـنتُ مـعروفاً شـاعراً، حينئذ قررتُ أن أؤلف كتاباً نقدّياً محايداً، حتى أكتسب سمعة نقديّة مـن خـلال الجمهور، وبعد أن أكتسب هذه السمعة، أستطيع أن أتوفر على دراسة النصوص الشرعيّة واكتبها بالشكل الذي يتناسب مع مستوياتها. من هنا، بدأت وألّفت كتاباً في النظريّة النقديّة، واستطعت من خلال هذا الكتاب، ان أرصد الاتجاهات النقديّة جميعاً وأوضحها بشكل أو بآخر، دون أن أدلي بوجهة نظر فكرية، بقدر ما كانت وجهة النظر تنصب على الدلالات الفنيّة فحسب.

المهم ألّفتُ هذا الكتاب بهذه النيّة أي أن الكتابة مقدّمة لنشاط نقدي اسلامي خالص. وصادف أن ألفتُ الكتاب في شهر رمضان، وكان يتألف من أربـعة عشـر فصلاً، فكتبتُ كل فصل في ليلة واحدة تيمناً بأربعة عشر معصوماً عليهم السلام وبالفعل كتبتهُ خلال أربعة عشر يوماً فقط وصدر الى الأسواق ونفدت نسخه خلال أيام قليلة.

والذي أعتقده أن سبب الاهتمام بهذا الكتاب و توظيف الاعلام لهُ، هـو النـيّة الخالصة التي كنتُ استهدفها من وراء كتابته)[1].

---

١ ـ حوار أجريناه مع الدكتور البستاني.

القواعد البلاغية
في ضوء المنهج الاسلامي (*)

واصل البستاني كتاباته النقدية بنحو ملحوظ بحيث توفر على نتاج ضخم أسهم برفد المكتبة أو الحقل النقدي الاسلامي بأعمال رائدة منها كتابه الموسوم بـ [القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي]، فمن المعروف انه . . .

مع اطلالة القرن الأخير، أو ما يطلق عليه عادةً بـ (عصر النهضة الثقافية) شهد موروثنا الثقافي ـ على وجه الدقة ـ حملات واسعة من النقد والغربلة . . .

وقد وصل الأمر بالحملات النقدية الى درجة يصعب قبولها، إذ أوعز البعض منهم أسباب تخلف الأمة وسقوطها المشهود، الى تمسكها بآلية الموروث والعمل بمرتكزاته المتنافية مع متطلبات العصر.

وبعيداً عن نقد أصحاب تلك الرؤية المتطرفة أو مناقشة ما يتعلق بالموضوع ذاته.

فثمة جانب ايجابي وريادي أصيل في حملات النقد المذكورة بخاصة عمليات نقد المناهج الموروثة ومحاولات التأسيس لرؤىً حديثة مبتكرة، تنسجم مع التطور الهائل في أدوات المعرفة الانسانية في العالم المعاصر.

(*) هناك مقالان تعريفيان لمنهج هذا الكتاب هما: مقالة « رسالة الثقلين » السنة الثانية العدد السادس، ومقالة: « الفكر الاسلامي » العدد الثامن السنة الثانية.

وكان ممن تنبه على الصعيد البلاغي ـ وهو موقع استشهادنا هنا ـ جمعٌ من النقاد والباحثين الذين كان لهم دورٌ ملحوظ في عملية الاحياء الثقافي . . . حيث وجدوا ان البلاغة الموروثة ، أصبحت غير قادرة على اشباع الحاسة أو الذوق الفني الجديد ، فلقد شهد الفنّ الحديث تضخماً نوعياً في أدوات الكشف الجمالي وطرائق تعميق الاستجابة لدىٰ المتلقي .

وغير ذلك من الملاحظات والظواهر التي شكلت ـ فيما بعد ـ مصادر جدليّة تمخضت عن نتائج ايجابية واضحة .

لذا فقد انبرىٰ ـ كما أشرنا ـ أكثر من باحث كان من أبرزهم : (العقّاد ، محمد خلف الله أحمد ، عزالدين اسماعيل . . . الخ)[1] .

فطرحوا تصورات من وجهة نظر نفسية وفنّية وغيرها . . .

لكن : يلاحظ عليهم ـ بالرغم من موقفنا المثمن لما قدموه ـ عدم توفرهم على مشروع يمكن الارتكاز عليه ، من حيث الشمولية والاستيعاب ، خلا بعض النظرات المشار اليها ، وهي بطبيعة الحال ، لا تعطي حسماً للموضوع . . .

من هنا : ـ وعبر هذه الاشارات الخاطفة بالذات ـ تتبدّىٰ قيمة الكتاب الموسوم أعلاه (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي) فهو ـ حسب ما تمكنت من رصده ـ من المحاولات التي بذلت في اطار الالتفاف الجاد على افرازات الموروث الابداعي من خلال عملية استشفافه وفق عناصر [جمالية] جديدة ، توصل اليها الباحث بنحو يعزّز من عمق واصالة المحاولة عينها . بيد أن ما يرفع من قيمة المحاولة ويبرز جانباً من فاعليتها الواسعة ، أن محاورها الرئيسية تنصب على المادة ـ النصوص ـ الشرعية بما في ذلك الكتاب والسنة وأحاديث أهل البيت عليهم السلام ، ايماناً بضرورة تشكيل خطاب بلاغي أصيل ، يعتمد في مضموناته على صيغٍ اسلامية

---

(١) أنظر كتاب (شعرنا القديم والنقد الجديد د . وهب أحمد روميّة) . (سلسلة عالم المعرفة) ، ص٢٨ .

صميمة ، مضافاً الى أن النصوص الشرعيّة تحمل من الدلالات الاعجازية ما جعلتها تتخطى الفواصل الزمنية بتفرد وقوة بالغة (بحيث صيغت بنحو تتوافق مع سائر التطورات التي شهدتها العصور الأدبية ومنها « المعايير البلاغية الحديثة ») .

فيما جهد الباحث على ربط المفهومات البلاغية الموروثة ـ ذات الطابع الصائب ـ مع طرائقية الأدوات البلاغية المعاصرة ، ذلك عبر توسله العميق بثقافة تسعفه على استيعاب ومواكبة النمطين المذكورين ، دون ان يلاحظ عليه شيئاً من الوهن أو الضمور .

فلقد حرص من خلال ما كتبه على تقديم رؤية تأسيسية شاملة لمبادئ البلاغة الحديثة ، فيما سجّل ـ في الوقت نفسه ـ مساهمةً واضحة في حلقات التأسيس الاسلامي المعاصر ، وملأ فراغات المعرفة الانسانية عبر عقد العلاقات الحثيثة بين افرازات المعرفة الصائبة ، ومكتنزات الفكر الاسلامي العظيم .

وجد الباحث ان : [البلاغة القديمة تطبعها جملة من العيوب التي لا يمكن التغاضي عنها ، بخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن صياغة قواعدها تمتد الى أكثر من ألف عام ، حيث حدثت تطورات فنية خلال هذا الزمن ، بنحو يجعل البلاغة الموروثة قاصرة عن عن تمثل ذلك ـ بطبيعة الحال .

طبيعياً ، نحن لا نملك الحق في مطالبة البلاغيّين القُدامىٰ بان يتجاوزوا حدود زمنهم ، وان يصوغوا القواعد التي لا تسمح بها ثقافتهم الفنية آنذاك ، ولكنّنا نملك الحق في توجيه اللّوم الى المعاصرين الذين جمدوا على قواعد اسلافهم ، بحيث يمكن القول بان دراساتهم للبلاغة التقليديّة أفسدت أذواقهم وعطلتها بدلاً من أن تُنميها وتُصقلها . . .] [1] .

وبعد أن يصرّح سلفاً بان هناك جملة من القواعد البلاغية القديمة ، لا يزال

---

(١) القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي الدكتور محمود البستاني ، ص١٣ .

يحتفظ بفاعلية وحيويته ، إلّا ان في الجانب الآخر توجد العديد بل القسم الأكبر من القواعد الموسومة بالعيوب المخلة في فهم جمالية النصوص الأدبية . . .

يلخصها الباحث عبر هذه النقاط الآتية :

١ ـ عدم شموليتها لجميع القواعد ، بمعنىٰ ان البلاغة القديمة لم تتناول كل أشكال الفنّ وكل قواعده ، بل اقتصرت على البعض منها دون البعض الآخر . . .

فالقصة ـ على سبيل المثال ـ مع أنّها تحتلّ مساحة كبيرة من نصوص القرآن الكريم لم تتحدّث البلاغة القديمة عنها حتّىٰ بكلمة واحدة ، علماً بأنّ بعض البلاغيّين يصرّح بأنّ هدفه هو : دراسة الاعجاز القرآني الكريم فكيف يهمل أهم عناصر هذا الاعجاز وهو : القصة القرآنية!

٢ ـ تتسّم البلاغة القديمة بالتناول « الجزئيّ » للنصّ بدلاً من التناول « الكلّيّ » له ، بمعنىٰ أن قواعدها تتناول المُفردة أو الجملة أو الفقرة فحسب ؛ حيث تحصر ذلك في نطاق المسند والمسند اليه وقيودهما من الذكر والحذف والتقديم . . . الخ ، في « حقل المعاني » وفي نطاق التشبيه والاستعارة والكناية . . . الخ في « حقل البيان » وفي نطاق المحسّنات اللفظيّة والمعنويّة في « حقل البديع » ، علماً بان النصّ الادبي لا تنحصر جماليته في فقراتٍ أو آياتٍ مستقلّة ، بل في كونه جملاً أو آياتٍ يرتبط بعضها مع الآخر ، ويخضع لهندسة خاصة من حيث تنسيق الافكار والمواقف.. .)[١].

٣ ـ العيب الثالث الذي يطبع البلاغة الموروثة هو : خطأ المفهومات البلاغية ذاتها . . . فمثلاً نجد في حقل « التشبيه » أن البلاغيين يذكرون بأنّ « التشبيه البليغ » وهو ما حُذفت منهُ أداة الشبه ووجه الشبه ـ أشدّ بلاغةً من التشبيه المقترن بالاداة ، وان « تشبيه التمثيل » ـ وهو ما كان وجه الشبه فيه منتزعاً من أطراف متعددة ـ أشدّ بلاغة من غيره . . . انّ امثلة هذه المعايير فضلاً عن أخطائها الملحوظة التي تشتمل

(١) يراجع الكتاب نفسه ، ص١٥ ، فهناك تفصيلات لا مجال لعرضها هنا .

على التناقض بينها ، تنطوي أيضاً على خطأ المعيار ذاته ، أما التناقض فيتمثل في ذهابهم الى أن التشبيه الذي حذفت أداته ووجه الشبه فيه هو أبلغ من غيره ، يتناقض مع ذهابهم الى أن التشبيه الذي تتعدّد أوجه الشبه فيه هو أبلغ من غيره ، فإذا كان حذف وجه الشبه دلالة على بلاغته ، فكيف يصبح تعدّد وجه الشبه دلالة على بلاغته أيضاً؟!

أليس هذا تناقضاً واضحاً بين المعايير؟! واما خطأ المعايير ذاتها فيتمثل في ذهابهم الى كون التشبيه الذي حذفت أداته ووجه الشبه هو أبلغ من غيره ؛ حيث يترتّب على ذلك أن تكون تشبيهات القرآن الكريم مثلاً ـ وهي في الغالب تشتمل على ذكر الاداة ووجه الشبه ـ أقلّ بلاغة من التشبيهات التي يصوغها البشر وهذا هو « الكفر » بعينه ببلاغة القرآن)[١].

وبعد ان يأخذنا بجولة طويلة يعرض خلالها عيوب وأخطاء المعايير الموروثة ينتهي الى هذه الحقائق التي تكسب الكتاب مزيداً من الأهمية والاعتبار . . . :

(ان هذه العيوب ونظائرها ـ ممّا نعرض له خلال هذا الكتاب ـ تحملنا على اعادة النظر في البلاغة الموروثة ، ومحاولة صياغتها من جديد في ضوء النصوص الشرعيّة « الكتاب » و« السنة » حيث نحاول ان ننتزع قواعدها من نصوص القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام ، وهي نصوص أعجازيّة تخطّت حدود الزمن ، بحيث صيغت بنحوٍ تتوافق مع سائر التطورات التي شهدتها العصور الأدبية ومنها : « المعايير البلاغية الحديثة » .

طبيعياً ، أن الاسلام لم يقدّم لنا قواعد جاهزة ، بل قدم نصوصاً تنطوي على القواعد المشار اليها ، والسّر في ذلك هو : أن المشرع الاسلامي ، سمح لكلّ شخص بأن يستخلص القواعد وفقاً لطبيعة الثقافة التي تغلّفه والبيئة التي ينتسب اليها ، إلّا في

---

(١) المصدر السابق ؛ ص١٦ .

نطاق محدّد من القواعد العامة التي تشكّل تراثاً مشتركاً لجميع الأزمنة . .)[١] .

والملاحظة التي تستحق التسجيل : ان الباحث ، قام بتقسيم القواعد البلاغية ـ في كتابه عينه ـ الى ثمانية عناصر ، فيما شكل كل عنصر من العناصر المذكورة فصلاً من فصول الكتاب ، والعناصر هي :

١ ـ العنصر الفكري : يحوم العنصر المذكور حول [فكرة] النص الأدبي بمعنىٰ ان النص الأدبي ـ وان تعدد موضوعاته ـ يبقىٰ مؤكداً من حيث المنطلق الأساسي على فكرة عامة .

لذا يتعين على البحث البلاغي أن يكتشف كل ما يتصل بادوات تعميق وابـراز الفكرة في الاعمال الأدبية . فمن حيث المستوىٰ يخضع العنصر الفكري لمستويات متنوعة ، أهمها :

١ ـ انتخاب الفكرة . ٢ ـ تحديدها . ٣ ـ وحدتها وتنوعها . ٤ ـ الفكرة الرئيسة والثانوية . ٥ ـ الفكرة المعترضة ، ومسوغات الأخيرة بالذات ـ الفكرة المعترضة ـ من قبيل البحث عن مستوياتها التي تتمثل بـ :

- التداعي الذهني .
- التداعي الفني .

مضافاً الى أقسامها العامة ، حيث تنشطر الفكرة المعترضة الى قسمين :

١ ـ مباشرة . ٢ ـ غير مباشرة .

وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بصياغة الفكـرة المـعترضة واسـاليبها مـما لا يسعنا إلّا الايماء العابر ، تاركين التفصيل الى الكتاب نفسه .

٢ ـ العنصر الموضوعي : يهدف العنصر الموضوعي ، الى ما يحمله النص من

---

(١) المصدر السابق ، ص١٧ .

الموضوعات التي تجسِّد الفكرة التي أشرنا اليها آنفاً . والعنصر المتحدث عنه ، يتربع على جملة من المباحث الهامة . مثل :

١ ـ الموضوع ومادته [إن مادة الموضوع التي يتوكأ عليها تتكون من أربعة عناصر ، وهي : ١ ـ الشخصيات . ٢ ـ الحوادث . ٣ ـ البيئات أو الأشياء . ٤ ـ القيم أو المواقف .

فيما يطرح الباحث مفهومات ضخمة تختص بالعنصر ذاته نحو :

■ الموضوع وعلاقته بالمواد الأربع .

■ الموضوع وعلاقته بالمادة الواحدة .

■ الموضوع وفكرته ، مثل :

١ ـ انتخاب الموضوع . ٢ ـ تحديده . ٣ ـ وحدته وتنوعه وغير ذلك ..] .

٣ ـ **العنصر المعنوي** : يأتي الحديث عن العنصر [المعنوي] كخطوة متأخرة عن العناصر التي تقدم الحديث عنها . فهو في مجموعة العام آلية (تترتب من خلالها المعاني في ذهن المنشئ الأدبي) .

وفيه يتحدث الباحث عن موضوعات [المسند] و[المسند اليه] من حيث مفهوماتها وتقسيماتها التي لم يتفق في بعض جوانبها مع مقررات الموروث البلاغي بخاصة ما يصطلح عليه بـ [القيود] التي اعتاد البلاغيون القدامىٰ أن يصفوا بها بعض الاسنادات (الاسناد الناقص) . بيد المهم أن الباحث يتناول من خلال العنصر نفسه موضوعات هامة مثل : (الوصفية) (المعيارية) بصفتهما أحد اساليب العنصر المذكور ، في حين تناول مستوياتهما : التي جاءت ضمن العنوانات الآتية :

١ ـ التعبير المجرد . ٢ ـ التعبير الاستدلالي . وقد انقسم الأخير (الاستدلالي) من حيث المستوىٰ أيضاً الى : الاستخلاص ، التعليل ، التفسير ، بلاغة الوصف ، الانتخاب عضوية الوصف ، الوصف الخارجي والداخلي . . . وما الى ذلك من

العنوانات التي تتصل بافرازات البلاغة والنقد الحديث .

٤ ـ **العنصر الصوري** : كل ما يمكن قوله عن العنصر المذكور هو :

ان العنصر الصوري ينحصر في دائرة البلاغة الموروثة بثلاثة محاور هي [التشبيه ، الاستعارة ، الكناية] .

لكن الباحث من خلال متابعته الدقيقة ووفق تصورات جمالية بحتة يجد ان هناك اشكالات اخرىٰ قد ألمحنا اليها سابقاً ، وهي :

١ ـ التقريب . ٢ ـ التمثيل . ٣ ـ الرمز . ٤ ـ الاستدلال . ٥ ـ التضمين .

٦ ـ الفرضية . ٧ ـ المبالغة . ٨ ـ الاحالة ... الخ.

* * *

ان كلاً من العناصر المتقدمة ـ الفكري ، الموضوعي ، المعنوي ، الصوري ـ تختص ـ حسب وجهة نظر الباحث ـ بمادة النص خاصة .

اما العناصر الخاصة بهيكلة الخارجي ، فهي :

٥ ـ **العنصر اللفظي** : يبحث فيه عن اللفظ أو الالفاظ بنمطيها المفرد والمركب ، حيث تطرق في الفصل ذاته الى المفردة ومستوياتها كما تناول [العبارة المركبة] و[الاسلوب اللفظي الحوار والسرد] ولعل موضوع [الحوار] هو أخصب موضوعات العنصر المذكور وبخاصة ما يتصل بتقسيمات الحوار مثل : الداخلي ، الخارجي ، المشترك ، الانفرادي ، المزدوج ، المتكرر ، الفرضي ، الرمزي ، الصامت . . . الخ .

حيث تبرز قابلية الباحث في تجليه الفوارق بين حوار وآخر وهي عمليات تتطلب جانباً من الدقة التي لا تتوفر للآخرين .

٦ ـ **العنصر الايقاعي** : وفيه يتناول الايقاع من حيث البنية ، من حيث الصوت ، من حيث المدىٰ ، من حيث الصياغة ، كما يتطرق الى الايقاع بنمطيه الخارجي والداخلي ، وفي الفصل نفسه يضاعف الباحث من ذكر الامثلة والشواهد التي تجعل

من الدارس على قناعة تامة في مايذهب الباحث اليه .

٧ ـ العنصر الشكلي : يقول الباحث : [المقصود من (العنصر الشكلي) هو : المظهر الخارجي للنص من حيث البنية الجسميّة له ، مثل السورة القرآنية ، والخطبة ، والقصّة ، والخاطرة ، والقصيدة ، والمسرحية الى آخره ويُطلق على هذه الاشكال الأدبية مصطلح مثل (الاجناس الأدبية) أو (الفنون الأدبية) أو (الأنواع الأدبية . . .)] .

والمقصود ان كلاً من الاشكال الأدبية يختص بعمارة معينة تميزه عن الاشكال الاخرىٰ فالقصّة تفترق عن الشعر حيث يعتمد الأخير على الوزن والقافية وتكثيف العنصر الصوري وما الى ذلك . بينما للقصة بنية أو عمارة تتألف من عناصر خاصة بها ، وهكذا بالنسبة للمقال أو المسرحية . . . الخ .

من هناك يتعين على الباحث البلاغي أن يلقي مزيداً من الاهتمام الى هذه الزاوية التي يتعهد بموضوعاتها العنصر المشار اليه وبما أن الباحث يلتزم بمفهوم [الاسلمة أو الشرعنة] فان الاشكالات التي يتحدث عنها في هذا الفصل هي اشكالات منتزعة من صميم المأثورات الشرعية ذات الجانب الابداعي مثل : الدعاء ، السورة ، الحديث الفني ، الزيارة ، الذكر ، كما يتطرق الى ما هو مألوف في الوسط العام مثل الخطبة ، الخاطرة ، الأدب القصصي بانماطها المعروفة : القصة القصيرة الرواية ، الحكاية ، المسرحية ، المقالة ، الرسالة .

٨ ـ العنصر البنائي : وهو آخر فصول الكتاب ، وقد تقدم الحديث عنه في غضون هذه الدراسة مما لا مبرر من تناوله مجدداً . لكن ينبغي التنبيه على أن العنصر ذاته قد حفل بنقاط متعددة الأهمية وذلك من الزاوية التنظيرية ، لذا فمن الضروري الرجوع الى ما ذكره الباحث بغية الوقوف على جوانبه بنحو يزيد من إلمام الدارس لها .

❋ ❋ ❋

ويلاحظ بعد ذلك كله : ان الكتاب بمادته عامة ، ينتظم وفق تخطيط منهجي محكم ، حاول الباحث أن يستبدل به [كتب البلاغة] التي تتداولها المؤسسات الثقافية بنمطيها الحوزة والجامعة ، حيث يغلب على الكتب المشار اليها غموضية المعلومة من جهة وفقدانية التساوق في عرض الموضوعات والمبادئ من جهة اخرىٰ . مضافاً الى الاخطاء التي ألمحنا اليها وتجدد الأدوات البلاغية المعاصرة .

ولا يفوتنا ـ المثال والشاهد ـ حيث اعتمد على النماذج الشرعية خاصة حتى بلغ رصيد ما ذكره من النصوص القرآنية فقط [خمسمائة آية قرآنية] .

وهذه من الخطوات الجادة في تعميل الخطوط المعرفية ذات الصيغة الخالصة في عملية استنهاض وبعث المفاعيل الايدلوجية المستقلة .

❊ ❊ ❊

وبكلمة خاتمة : يمكننا وصف اعماله النقدية ـ بنمطيها التنظيري والتطبيقي ـ أنها قد تمكنت وبقدرة مدهشة من التمرد على هيمنة الثقافات الأرضية التي سقط في شراكها جملة من رجالات الفكر الاسلامي بدعوى التحررية والتلاقح المعرفي ،كما ساهمت في اعطاء تصورات تأسيسيّة جديدة للدرس النقدي الحديث ، مستفادةً بذلك من نصوص المشرع الاسلامي التي استنبطها الباحث بقابليته الحيّة وهذه باعتقادي الميزة الهامة في تقويم أعماله عامة ، طالما نعتمد ـ في عملية تحديد ما هو ايجابي أصيل عما هو سلبي مهزوم ـ على معيارية الاستقلال وعدم التبعية ، مع ملاحظة التوافق أو التعامل مع الاعمال المطبوعة بملامح التصورات الصائبة ، دون تحديد هوياتها الفكرية ، فالاستقلال ـ كما أكد ذلك أكثر من باحث ـ لا يعني التحفظ المطلق أو التحجر والانزواء .

❊ ❊ ❊

موقفهُ من الشّعر

يحتلّ الشعر من تجربة الدكتور البستاني الثقافيّة ، ما غطىٰ بشهرته على سائر ضروب المعرفة التي سجّل بها حضوراً اسلامياً مشرقاً .

وأسباب تلك الشهرة الواسعة ، تعود لعوامل متعددة أهمها :

الشاعريّة المبكرة :

ان ولادته الشعرية المبكرة تعدّ احدى النقاط الحساسة في آليّة دراسته كشاعر له تجربته الرائدة في تيارات الشعر النجفي . حيث تتكفل الخصوصيّة ذاتها بفهم حجم كبير من شهرته المشار اليها . وبخاصة ما رافقها من نبوغ حادٍ ، يمثل تفرداً وخروجاً نوعياً عن دائرة المألوف البيئي .

والغريب في مثل هذه البداية المبكرة ان البستاني ، قد امتزج بالشعر ودخل عالمه الرحب ، من دون ان تتدخل (ايادٍ) في تنشئته الشعرية أو ان ترسم له الخطوط التي تبعث في أعماقه الحافز لممارسة هذا اللون بالذات . وكما هو مألوف عند بداية كل تجربة شعرية من قبيل الانماط التي تعمل على تنمية المواهب وتنضيج استعداداتها .

فالملاحظ ان البستاني قد استجاب للشعر فطرياً والفطرة وحدها التي قامت بربط العلائق ومدّ الجسور فيما بينهما .

فليس ثمة ما يشير بمروره عبر قنوات (التلمذة) و(التعليم) . في عمليّة

التأهيل الشعري .

وقد تصح بعض الاعتبارات الذاهبة الى ان (للمناخ النجفي) دوراً ملحوظاً في منح أبنائه امكانيّة (التعاطي) الشعري وتوليد الموهبة بواطن نفوسهم من خلال (ظاهرة) تفشي الشعر وانتشاره بشكل مدهش للغاية .

لكن هذا كله : لا ينسحب على تجربة (البستاني) ابداً .

مادمنا نعلم ، بان حداثة سنه تتأبى من أن تنعكس عليها افرازات الآخرين بحيث تجعل منه شاعراً ذا مستوىٰ معروف .

ان المعلومات التي نمتلكها ، تفصح بكونه قد (نظم) الشعر أو (كتبه) وهو في (العقد) الأول من عمره . كما تلمح بأنه قد (نشر) نتاجه الشعري في امهات الصحف العراقية وهو لم يكمل بعد (عقده) الثاني أي في منتصف الخمسينيات بالضبط .

هذه نقطة ـ أسجلها سريعاً ، لمن يبغي التعمّق في دراسة البستاني من خلال تجربته الشعرية ـ وأما الاخرىٰ ، فهي :

الجنبة التجديدية :

نحاول ـ قبل بدء الحديث عن اللمسات الابداعيّة التي توسّل بها البستاني في صياغة قصيدته الشعرية ذات البناء المنطوي على عناصر الفنّ الحديث ـ ان نتحرىٰ عبر الاضاءة المختزلة لبعض مراحل الشعر وقضاياه ، بغية ان تتضح ملامح التجديد في شعره .

والملاحظ على مسار الشعر العربي بصورة عامة ، أنه قد مرّ بعد سقوط الدولة العباسيّة بعصور زمنية يطلق عليها مؤرخو الأدب : بـ (القرون المظلمة) أو (عصور الانحطاط) أو باصطلاح البستاني الخاص : (العصر الوسيط) ، افتقد الشعر خلالها مواصلة النمو والنضج والابداع الذي كان عليه قبل انهيار الدولة المذكورة . حيث

انشغل الشعر بعناصر جوفاء حالت دون تطور مضموناته ووظائفه التي يتوخىٰ منها أن تساهم في عمليّة التغير الاجتماعي ، مما تفرض على الدارس ان يوليها نوعاً من الاهتمام ، مضافاً الى تلكئه الشديد من حيث الشكل واللغة التي انتكست بدرجة مقرفة . . . واستمر الحال بالشعر حتى مشارف القرن الحاضر ، حيث شهدت الساحة الادبية والثقافية عامة ، نهضة نوعية ذات نطاق واسع ، ذلك إثر الانفتاح العميق مع معطيات (الوافد) وثقافاته التي احدثت تحولاً ملحوظاً في ميادن الادب والشعر بوجه خاص .

والواقع ان الفترة المتحدث عنها افرزت عدداً كبيراً من الشعراء الذين يشكّل البعض منهم وهما ـ لبنان والمهجر ـ اصداءً صارخة للشعر الادبي الجديد في العالم العربي .

فيما يمثّل البعض الآخر اصداءً للاصداء المشار اليها مع الاقرار بوجود شريحة من الشعراء المتحفظين ، حيث شكلّت نتاجاتهم ما يمكن تسميته بالشعر (الاحيائي) ذات الطابع المشابه لعصور الازدهار الشعري أبان وجود الدولة العربية ، وكانت النجف في مقدمة الحواضر الأدبية التي انعكست عليها التيارات المذكورة ، فبرز على السطح الادبي شعراء كبار من أمثال : محمد جواد الشبيبي ، محمد باقر الشبيبي ، الجواهري . . . وغيرهم أعادوا للشعر صولته القديمة في عصور ازدهاره .

كما انعكس التيار الحديث من حيث اساليبه في صياغة اللغة والصورة الشعرية ، متمثلة في شعراء من أمثال : علي الشرقي ، محمد جواد السوداني ، محمّد رضا الشبيبي وسواهم .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، برزت تيارات أكثر جدة وعمقاً من خلال ترجمة الشعر الاوربي وانعكاساتها على مدرسة النجف ، حيث تمخضت الفترة المذكورة ـ فيما بعد ـ عن مجموعة من الشباب ، كانت أشدّ لصوقاً ، كانت أشدّ لصوقاً ـ بالنسبة

الى من تقدم عليها ـ من حيث تدميج العلاقات مع الثقافات الوافدة بخاصة ما قطعته [الشعرية] ـ وقتئذ ـ من اشواطٍ واسعة .

وكان مشروع المجموعة الجديدة ، يهدف الى نقد [الذات] وابراز الهوية . . . ، كما سعت ـ عبر تدفق نتاجاتها الملحوظة ـ الى تقطيع اسلاك الجمود والانحسار وبعث روح التجديد والخلق كيما تفضي الى تغير الواقع وظواهره المنهزمة حضارياً واسلامياً .

والمجموعة المشار اليها ، تتألف من عدّة اسماء لامعة ، أمثال : (مصطفىٰ جمال الدين ، صالح الظالمي ، محمد الهجري ، أحمد الوائلي ، محمد حسين فضل الله ، حسين بحر العلوم ، محمود البستاني)[1] .

يمكننا بعد هذه الجولة الخاطفة ، ان نفتح الحديث مجدداً لنتناول منحنيات (الجنبة التجديدية) التي ألمحنا اليها سلفاً .

لكن ينبغي ـ هنا ـ أن نومئ الى بعض الحقائق الهامة . فالملاحظ ، ان تجربته الذاتية قد خضعت لاعتبارات اكتسبها مزيداً من التفرد والذيوع مسجلة بذلك انفلاتاً ملحوظاً عن دائرة المجموعة المذكورة والتي كان الاتجاه الرومانسي يشكل طابعاً بارزاً لتأثراتها الشعرية .

وليس من شك ، ان تجاوزه لاطار المدرسة أو المجموعة المشار اليها ، حدث عبر عمليات مرهقة من التوغل المفرط بافرازات الحداثة واستيعاب تيارتها المختلفة مع توثب ابداعاته الخاصة في تحريك عناصر الالهام الذاتية .

وللتأريخ نقول : ـ إنّ البستاني قد أسدل على ماضيه الشعري ستاراً من التناسي ،

---

(١) الملاحظ ان الشعر (الحر) في صعيد الشعر العربي قد ظهر في الفترة المذكورة ، إلّا أنه لم يجد صدىً في مدرسة النجف ، بل كان التجديد منحصراً في صياغة القصيدة العمودية دون غيرها . . . بالرغم من أنّ البستاني والهجري وفضل الله قد كتبوا في الشعر الحرّ ودلّلوا على أمكانيتهم في صياغة النصّ الشعري الحديث.

وهو في الوقت الحاضر، لا يتجاوب مع كل من يحاول ان يذكره به) ـ ان عدداً كبيراً من النقاد خلعوا عليه ألقاباً، تمثل موضعاً هاماً من العناية، لمن يحاول دراسة الحركة الشعرية الحديثة في العراق.

فلقد نُعت : بـ(الشاعر الرمزي، الشاعر السريالي، شاعر النجف المجدد ... الخ).

كما قد تناول أكثر من ناقد نتاجاته الشعرية بالدراسة والاشادة وإذ قد اتيح لنا ان نقف على بعض الحقائق المتعلقة بقضاياه الشعرية، حينئذٍ نعود للحديث عن التجديد في شعره.

وبكلمة مختصرة : ان ملامح التجديد في شعره، تتمثل عبر توفره بما يمكن تسميته بـ(اللغة الحديثة) ذات الخصائص العالية في مقررات الفنّ الحديث وطرائق الاستجابة السريعة لجماليات الكلمة والاسلوب : « فهو ممن سلك المنهج الحديث في شعره، فاللفظ العذب، والكلمة الموسيقيّة والاطار الخارجي، كل اولئك مما يستهويه في تصميم القصيدة »[١].

ان خصوصية لغته الشعرية، تتسم، بتوليد العنصر الصوري وتكثيفه بشكل يمثل ظاهرة مدهشة لنتاجاته.

خذ على سبيل المثال هذه النصوص :

ثم مجدُ. واستفيق على الاصداء، ..كالحرف هادراً في اللهات
كاختلاج النهار،... يمشى على ترتيلة الصحو،.. وانجلاء السبات
كانبهار الرمال، باغتها اللّيلُ، ومسراهُ،.. بانطلاق الحداة

. . . . .

الصدى الراعشُ الكبير.. فثم التأريخ، يزجيه، ثم مجدُ الاباة
.. ثم مجدُ (الحسين). في ملعب الاجيال، تياهة رؤاه اللواتي[٢]

---

(١) فلسطين في الشعر النجفي المعاصر الدكتور محمد حسين الصغير، ص١٩١.
(٢) الاضواء (مجلة) ص٥١، العدد ٢، ١٩٦٠م.

فالنصوص المتقدمة تكشف عن تدفق الصورة الفنية بشكل واضح (فاستفاقة الشاعر على وقع الاصداء ، وهدير الحرف ، واختلاج النهار ، وانجلاء السبات ، انبهار الرمال ، مباغتة الليل ، انطلاق الحداة . . . الخ) .

أقـول: ان ذلك كله ، يحكي عن ولادات خاطفة في مجال [استيلاد] الصورة التي تنشيع في ذائقة المتلقي نكهة هادئة من حيث الالفة والطراوة والجمال . . .

ومثـل :

أأسكت تطوافي . . واذبح ريشتي؟!
وقد ، غمست ، بالمعطيات ، يدايا
وهاانا ، احيا . . نكهة الأرض ، والسما
اضاجع شطآناً . . واهتف . . يا . . يا
واشرب انساماً . . وألهث خضرة . .
وأغزل امواجاً . . تدر عطايا . .
اروح اظلالاً . . أعلّ جداولاً . .
اراشق اطياراً . . يعين صدايا
ومذ لم يعد . إلّا خيال مجنح
وإلّا . . أغان ، ومضها . . شفتايا
لممتُ . . خيوط العطر ، أصحبها معي
ومن روعة الذكرىٰ . . تركت . . بقايا (١).

هكذا تحتشد الصور في نصوصه بحيث يأتي البيت الشعري وهو محمّل بأكثر من صورة تتوهج بالطرافة والايحاء .

كما يحتل (الرمز) ـ وهو أبرز اشكال الصورة الحديثة ـ مساحةً كبرى في قصائده

---

(١) النجف (مجلة) تصدر عن كليّة الفقه بالنجف الأشرف ، ص٤٣ ، ع (١) ١٩٦٣م .

عادية ، يقول في احدىٰ قصائده الخالدة :

في غدير الحياة عبر حكايا المجد	**لي وقــــفة وأشــياء تــروىٰ**
أتــملى وفــي حــدائـق أعـصابي	**عــصافير تــملأ الدرب شـدْوا**

❊ ❊ ❊

يا (غديرَ) الحياةِ!! زنبقةُ الذكرىٰ . . . لايحاءةِ الملايين مهوىٰ

انا (طفلُ الاخرى) فهلّا ، تدلي باكفي من (الشفاعةِ) حلوىٰ؟!(١)

ان مفردة (الغدير) ـ المتكررة في القصيدة بأكثر من مرة ـ تكتنز في بواطنها دلالات متعدّدة يخبرها قطاع واسع من الجمهور المسلم . . . أنها تأخذ بمشاعرنا نحو أعظم حدث تأريخي ، في ذاكرة العقيدة والولاء . . . الى (منصّة) التتويج الالهي . . . الى الحلقة الثانية في مسلسل سفارة السماء على الأرض .

كما ان مفردته في (طفل الاخرى) المتزاوجة مع مفردة (الشفاعة) في اطار تدلي الأكف بـ (الحلوىٰ) هي الاخرىٰ صور رمزية حيّة في ايحاءاتها وتجلياتها الضخمة .

وثمة ما يميّز قصيدته بشكل واضح ايضاً ، ما كان يضعه في بعض قصائد ، من نص قرآني أو نص لأحد المعصومين ثم يجعل البناء العام حائماً حول مدلول ذلك النص الموضوع في أعلى القصيدة ومن المعروف ان الشعر المعاصر يعتمد أمثلة هذا الاستثمار للوثائق ومن المعروف ان الشعر المعاصر يعتمد أمثلة هذا الاستثمار أو الشخصيات أو النصوص ، إلّا أن البستاني بدلاً من الاعتماد على النص الوثائقي أو الاسطوري ، قد اعتمد النص الشرعي في هذا الحقل. وقد تنبه الى هذه الزاوية بعض

---

(١) الاخاء (مجلة) العدد ، ٢٨ ، السنة الثانية ، ١/ ٧/ ١٩٦٢م .

النقاد ، حيث ذكرّني باب (قرأت العدد الماضي من مجلّة الآداب البيروتية) على قصيدة له بعنوان (انتصار شاعر) :

[وأما « انتصار شاعر ») ففيها نغم حاوٍ ، وانسيابية عذبة . . . الخ . وفي القصيدة ايحاء بثقافة مباركة واطلاع للشاعر واسع وعليها الى جانب ذلك ، مسحة من اسلوب نواسي ثائر على التقليد داع الى الابتكار والخلق وعمران القصيدة بالحياة وانها بعد ذلك فكر وفكرة في لحن . . . الخ][1] .

❊ ❊ ❊

من المناسب بعد ذلك ان نعرض لما أورده أحد الكتاب (صلاح الدين جواد) في دراسته الموسومة (الذكريات عند الشاعر الرومانسي) حيث تناول في دراسته ابرز شعراء العراق المحدثين أمثال : أكرم الوتري ، عبدالوهاب البياتي ، نازك الملائكة ، محمود البستاني ، لما تمتاز به تلك الدراسة من عمق وكشف وجدة في رصد الدلالات وتحليلها وفق أدوات النقد النفسي .

يقول : (لكن هذا لا يعزلنا عن نسائم اخرىٰ بعبير الكفاح والصمود في لهيب النضال والمعركة عند الشاعر (محمود البستاني) وهو يجسد لنا بهذا الموقف ، التفاعل الخلّاق بين الادراك والظواهر الخارجية المحفزة المثيرة ـ إذ أنه يبعث بذكرياته ـ على لسان (ثائر جزائري) بعثاً خلاقاً ، وهو في رحلة من رحلات التأمل والحضور الداخلي ، أثناء المعركة وعندما تُعرِّش أمام اصغائه أفاويق الخطرات ، وهي حالة ميتافيزيقية غير واعية ، يخلع عليها الشاعر حركاته وانفعالاته الوجدانية دون وعي فكري فلسفي خالص) .

جناحان من خطوات الصباح

يطيفان بي كل حقل وساح

---

(١) الآداب البيروتية (مجلّة) ، العدد الثالث ، آذار ـ مارس السنة (١١) ، ١٩٦٣م .

ولنبدأ بتفسير وتحليل التجربة فقط!

خيطان من خطوات (الأعماق) يهومان بالمكان الذي يحدد وجود الشاعر الى أبعد الحدود كحالة لا واعية مولدة ، هذان الخيطان تسدهما أرضية الوعي الفردي بمراكز التوليد في العالم الخارج و (الغيب) ، ولذا يبرز المثال ، وهو يتملّى الأمل الحالم فيعين عن (الجناح) عندما يفتض (كبريات الرؤىٰ) .

يلوِّحُ لي... والشذىٰ حاشدُ

تلاوينه في خيوط الصباح

كما لوّحت كبريات الرؤىٰ

بأروعَ ما نسجت من طماح

فإذا ما أردنا أن نفاتح الاعماق بدفقات التحسّس العنيفة عند الشاعر فاننا لا نبارح طبيعة الذكريات الحمراء . . .

من وهج الكفاح وهي تتضمخ بعبير المطلق ، في خلوة من الزمان والمكان آنذاك ، ومن هنا وعند وقفة المباح المطل تندفع وشوشات علوية ومن شرفات النجوم .

كما لوّحت شرفات النجوم

بما خبّأت من رؤاها الصباح

هذه الوشوشات كرمز الى الأفكار والآمال المتزاحمة في دنيا النضال من أجل الحرية . تلوّح بان تهم في اقتحام الجدار .

يلوّح لي ان خلف الجدار

أفاويق من صبوة وانشراح

وما ان افتضت ستائر (الاحتباس) كمرحلة نضالية لابدّ من تنفيذها ، انفلتت تجليات الحاضر الجائع ولا شيء؟ الى خبز (الأمن) و(الاستقلال) .

أفــاويق مـــا أفـتضهنّ التـمليّ

تُــمليكَ الا غـــفـىٰ واسـتراح

وبعد نضوج هذه الرحلة الذاتية المتعبة في وحدة (المضمون) والتي اكتشف شاعرنا بواسطتها مجاهل الرؤىٰ والذكريات كعالم يلتذ في مناخه ، بعد هذا نستطيع ان نتوصل الى مهمة التجربة (ككل) ومعرفة وظيفة الذات الشعرية وهي تسترسل في املاء المعاناة الداخلية حيث يتم (الركون) على الجناح ـ كأرض للتحليق فـي المطلق وفي معبد التلاوين ، وحيث تُعرِّش لفتات الرفيق والوميض على أنها بوارق النصر ـ هذه النظرة الحدسيّة في فض الاشـياء ـ كـعالم قـابلة للـخلق مـن جـديد ، وممكنة الحركة ، فلم تحدث بفعل الاستغراق فقط ، وانما الكشف عن طبيعة الرموز والظواهر الخفية ، للقضايا الايـدلوجية كـيما يـحدث التـمازج الخـفي بـين العـالم الخارجي بمواده القابلة للتفاعل ، وبين الحدوس الداخـلية ـ كـفعاليات وجـدانـية خاطفة ـ داخل عملية التأسيس للتجربة الشـعريّة ، لذا يـبقى (الثـائر الجـزائـري) مواصلاً رحلة الحضور الداخلي [١] .

فمن سـدرة المـنتهىٰ رفـرفت	ومن ومـضات الخـلود انـفتاح
يُـلوِّح لي شـقّ هـذا الجـدار	وفكُّ مـــــغاليقه بـــالكفاح
ومن ثـمَّ فـي نشـوة الحـاملين	أطـلَّ عـلى حـقله المسـتباح

❊ ❊ ❊

الاسهامات الإصلاحيّة :

يحتفظ الحقل الصحفي برصيد ضخم من اسهامات البستاني في صعيد الشـعر

---

(١) العدل الاسلامي (مجلة).

(المؤدلج) الهادف الى الاصلاح الاجتماعي بحيث يترآىٰ لنا ـ ونحن نـرفع غـبار أربعين عاماً من القرن الحالي عن الحقل المذكور ـ اننا أزاء شخصية سياسية مجنحة ، تعيش الوعي السياسي بحظور فعّال .

فمع بدأ ما يطلق عليه بالوعي السياسي الاسلامي أو معركة الذات والدفاع عن الهويّة الذاتية ، تتحدد بوجه الدقة بداياته الشعرية التي أطلّ بـها عـلى الوسـط الاعلامي والثقافي معاً ـ وان كان هناك بعض الجوانب التـي بـرزته لدى المـثقفين كشخصية لها دورها المتميز .

غير ان المجال الشعري يظلّ أوسع نافذة عرف من خلالها البسـتاني هـذا مـن جانب ومن جانب آخر فانه يضل أيضاً القناة التي مارس عن طريقها (بثّ) الوعي الاسلامي ، فلقد انصبّ خطابه الشعريّ على التضامن الحيّ مع البلدان الاسلامية كما دعا الى التحرر والاستقلال من هيمنة ونفوذ القوى الاستعمارية التـي تـربعت وقتئذ على قلب العالم الاسلامي .

ومن نماذجه التي يتصاعد بها روحياً مع معطيات الاسلام :

مـا أحبَ (الاسلام) ينتظمُ الكونَ ..بـــحياتِ عـــقدهِ المشـــتهاةِ

تــترآى الحـياةُ فـي ظـلهِ الأمـثلِ .. دنـــياً .. مــخضلّة النســماتِ

تـــلفحُ الانـــفس الظـــماء .. بألوان شـذاهـا ، قـدسيةُ النـفحاتِ

عـــندها تُـــهرعُ النــفوس .. وتــهتزُّ طـموحاً الى ذرى الانـفلاتِ

نحو ماذا؟!! نحو الحفاظ على الكنز المـفدىٰ .. نـحو الطـموح المـؤآتي

ويطوف الشاعر بعدها على مثل هذا النسق المرفّل بتداعيات الوعي الاسلامي ليصل الى المقطع الأخير من قصيدته حيث يفصح عـن مـقابلة الذات مـع المـثل المقدّس متجسدةً في ذلك مشاعره المختزلة على لوحـة مـن الانسكـاب الغـنائي العميق .

يقول :

أيُّها الثائر الكبير!! ويشجيني	**قصيدٌ مدمدمٌ،،،، بالشكاةِ**
ألفُ ايحاءةٍ.، تطوفُ،، ولن	**أرضىٰ بمحضِ الايحاء والذكرياتِ**

كنت تدعو :

(الدين إن لم يقم إلّا	**بقتلي فيا صوارمُ هات)**
أي جدوىٰ؟!! ألا نسير على هدي	**نجواك،، في صراعِ الحياةِ**
أترانا،، نشذ عن دربك الواعي،،	**ونحتث،، عن خطى منكراتِ؟!**
أن ديناً،، ترشه شفة الله،،	**لدين.. يسمو، على اللهوات**
روعةُ الجدِّ، تستريح بجنبيه،	**فهلا نعيه؟! بعد افتئات**
لستُ أرضىٰ، إلّا باشراقة(القرآن)	**تجلو، آفاقنا الداجيات**
كل إشعاعة أنامل خير	**تزع الضوء، في شتيتِ الجهات**
هاهنا، معبرٌ يسيلُ به العدل،	**فلا الحيف باحثٌ عن قناةِ**
وهنا موكبُ (المساواة)لم	**يزحف على دربه انحياز السراة**
و(الأخاء) العظيم، مزرعة	**تنبتُ لو شئت أخلد الحسنياتِ**
لست أرضىٰ إلّا بافيائها الغن	**ونعمىٰ أظلالها الوارفات**
والذي يستريح في خيمة الظل	**أيخشىٰ لفح الهجير العاتي؟!(١)**

ولنستمع الى زمجراته وهي تخاطب الرسول الأعظم في ذكرىٰ مولده المبارك :

يانبي الهدىٰ!! معاذُ الهدىٰ، أن	**نتخلىٰ،،، عن (دينك) المرموقِ**
غير أنا ـ وعربدات الخطايا	**تتبارىٰ وهدهدات المروقِ**
نتغذىٰ على أناملك السمحاء	**،.. لم تنكمش على التضييقِ**
وسنبقىٰ، نعلّ طهر التعاليم..	**لرفع التقىٰ، ووأدِ الفروقِ**
لنشق الحياة، جسراً، الى الأخرىٰ	**.. وكيلا، نتيه، شأن الغريقِ(٢)**

---

(١) الأضواء (مجلة) ص٥٢، ع ١٩٦٠.

(٢) الأضواء (مجلة) ص١٩٥، ع ١٩٦٠.

ولنا أن نتملىٰ موقفه الصريح مع الكافر المستعمر وتضامنه العميق مع الشعوب المسلمة..

يـا ـ فـرنسا ـ امـعِني فـي الغـيّ … فـي الفَـتْكِ فـي البطشِ. بـربّاتِ الخـدورِ
بـالقرىٰ آمـنةٍ، نـامَ عـلى … صـدرِها ألفُ صـغير وصـغيرِ
حـالمٍ بـاللّهوِ تـنسابُ عـلى … جـفنِه. اشـراقـةُ الحُـلمِ النـضيرِ
ولتكـن ـ مـجزرة ـ هـائلة … عـتّقي مـن دمـها. أشـهى الخـمورِ
وليـبِتْ يـقتاتُ مـن اشـلائِها … مـن بـلاد ـ السينْ ـ مـن أرضِ الفـجورِ

. . .

. . . .

مـعقِلَ الثُـوّارِ!! يـاركب الضُـحىٰ … يـاصراخـاً. يـتعالى للـنُسورِ
مـالنا نـحنُ. سـوىٰ أن نـنحني … لكَ اجـلالاً لصـرعاك البـدور
واحـتجاجٌ صـارخٌ نـقذفهُ … صـمماً مـلتهباً.. عـبرَ الأثـيرِ
هـذه أكـبادُنا... نـحملُها … لضـحايا العـزِّ... والمـجدِ الخـطيرِ
ألفُ مـرحـى للـدّما زاكـيةٍ … تـحملُ العبءَ عـلى مـتنِ العـصورِ
والى فـجر الخـلاص المـرتجىٰ … تـنقُلُ الخـطوَ وتـمحو كـلَ نـيرِ[1]

والواقع، ان خطابه الشعري المذكور، يقع ضمن تيار عام. كان يقف بوجه المواجهة المصيريّة مع المعسكر الالحادي الذي زحف على المنطقة عسكريّاً وثقافيّاً.

وكان من جملة عناصر التيار المجاهد ـ عن طريق الكلمة والقلم ـ مدرسة النجف الأدبية ذات الأصالة والصدارة. وصاحبة المواقف الخالدة في تاريخ الجهاد المعاصر.

ويمثّل هذه المدرسة الواسعة شخصيات اسلامية ضخمة، أمثال: الفرطوسي،

---

(١) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي عثمان سعيد، ص٣٦٣.

اليعقوبي ، الهاشمي ، جمال الدين ، الوائلي ، وغيرهم . حيث كـانت لمشـاركاتهم أصداء عميقة في ضمير الشعوب الثائرة وقتئذ .

والحق : ان هذه المشاركات مع أهميتها البالغة ، كان يعوزها الاطار الذي تنتظم داخله ، لتعبّر عن استقلالية الموقف وتميّز الدور ذلك لكونها قد صدرت عن رموز تنتسب الى أعرق حاضرة اسلاميّة .

فللأسف الشديد ، أن كثيراً من النتاجات التي تتبعنا تأريخها ـ لهولاء الأقطاب ـ قد أخذت طريقها في النشر من خلال قنوات لا تتقيد بالالتزام الاسلامي الكامل ، مما أوقع الكثير في الالتباس والتساؤل!! حيث أنّ هذه الفترة ـ بالذات ـ غائمة بعموميّاتها المكثّفة وفي تصوّري أنّ أحداً من الباحثين لم يقترب من دائرتها لحدّ الآن ، بالرغم ممّا تحمله من خطورة تاريخية ، ظهرت بها مدارس وتيّارات فكرية مختلفة ، كانت قد ساقت بالأحداث السياسية ـ في العراق ـ إلى منعطفاتٍ من أبرز معالمها ، الوضع المعاصر في العراق ، بل وضع المنطقة الجغرافية عامّة . لذا أنّ مـفاهيماً عـديدة ، كانت متداخلة فيما بينها ولم تتبلور بشكل واضح وصريح إلّا بعد برهة من الزمن . فتجد على سبيل المثال : أنّ كثيراً من جوهريات المفهوم الإسـلامي كـانت تـصاغ ضمن سياقات الخطاب القومي العربي والعكس كذلك ، ومن الجانب الآخـر كـان الخطاب الاشتراكي في بعض الأحيان يعتمد جزئيات المفهوم الإسـلامي نـفسه ، وهكذا استمرّ التشابك الخطابي مدّة ثلاثة عقود من الزمن من الثلاثينيّات وحـتّى أواخر الخمسينيّات ، ممّا أدى إلى تحويل الشارع العراقي إلى حالة مـن التـذبذب الأيديولوجي الخطرة.

من هنا فإن بروز [جماعة العلماء] على السطح الثقافي بمجلته المباركة [الأضواء] يشكل حدثاً هاماً في تاريخ الصحوة الاسلامية في العراق ، حيث وحدّت جميع من ينتمي للاسلام فكراً وعقيدةً ونظاماً . ومعلنةً عن الرؤىٰ الاسلامية الخالصة في زحمة التيارات الوافدة بآلياتها المنحرفة ، ومـنذ ذلك الحـين بـدأت مشـاركات البسـتاني

ـ بالخصوص ـ تتدفق عبر الاصدار المشار اليه ، متلاحمةً مع عمالقة الفكر الاسلامي المعاصر ، أمثال : الصدر ، زين الدين ، فضل الله ، محمد جواد مغنية ، شمس الدين ، الحلفي ، القرشي ، الآصفي ، آل ياسين ، والصدر أيضاً [١] .

عوداً على بدء :

فيما سبق ، حاولنا أن نلمح الى أهم العوامل التي صعدّت من ذيوع شهرته الشعرية .

بيد أنّ ثمة انتقالة مفاجئة ، حدثت لمساره الشعري ، أدت الى عزلته التامة ، وجعلته يقف إزاء الشعر موقفاً سلبياً .

وتحوله المذكور ، يشكّل منعطفاً كبيراً ، ترك انعكاساته على مجمل حياته الثقافية والرؤيوية عامة ، كما يشكّل أيضاً مصدراً من مصادر الجدل النقدي الذي حرك مفاعيله عددٌ ليس بالقليل من المعنيّن بقضايا الشعر والنقد . . .

والواقع ان الشرخ الذي أحدثه البستاني ـ جراء عملية نقده المستمر ـ يعدّ صدمة حادة في كيان الشعر وفاعليته التي احتفظ بها طوال وجوده على سطح الخارطة العربية .

وان كان هناك من سبق البستاني في عمليّة نقده للشعر أخص بالذكر منهم الباحث الاجتماعي الشهير (الدكتور علي الوردي) حيث حمل على الشعر حملات عنيفة . نقتطف ـ بهذا الصدد ـ بعضاً منها :

(الواقع أننا من أكثر الأمم ولعاً بالشعر وأنهماكاً فيه ـ ان لم نكن أكثرهم على الاطلاق ـ وهذا في رأيي من عيوبنا الاجتماعية أو هو بالأحرىٰ من مظاهر التناشز الاجتماعي فينا . فنحن نريد ان نسير في مضمار الحضارة الحديثة ولكننا في الوقت

---

(١) اشارة الى السيد محمد الصدر صاحب موسوعة (الامام المهدي) . وان كانت هناك مشاركة واسعة للسيد موسى الصدر في المجلة ذاتها .

نفسه نصر على المحافظة على تراثنا الشعري الذي هو على طرفي نقيض مع نظم الحضارة ومقتضياتها . ان ولعنا المفرط بالشعر تراث بدوي نشأ فينا منذ أيام الجاهلية حين كانت القبيلة تحتفل بنبوغ الشاعر مثلما تحتفل بنبوغ الفارس الشجاع . فالشاعر يقاتل عن القبيلة بلسانه كما يقاتل الفارس بسيفه . . .)[١] .

ويستمر الوردي في بحثه المفصّل ، لينتهي ان الشعر حالةٌ غير حضارية ، لكن ذلك . يظلّ ـ في تصوري ـ أخف شدةً من موقف البستاني المضادّ ، اذ قد توسع الآخر في طرح ملاحظاته عليه ، ومن زوايا متعددة أبرزها : النفسيّة ، والشرعيّة وان كانت الأخيرة ـ الشرعيّة ـ أكثر تناولاً من غيرها لكونها مفصلاً هاماً في تحديد الظواهر واضفاء المشروعية عليها ، يقول البستاني في حديث طويل :

(وجاء الاسلام ، فأقرّ هذا الشكل الفنيّ . . . بيد أن الملاحظ ان الاسلام ـ في الآن ذاته ـ وقف (متحفظاً) حيال الشعر ، وهذا أمر يستوقف الباحث حقاً . . . من الممكن أن يجيب البعض بسهولة بان الطائفة المانعة عنه ناظرة الى الشعر المنحرف مثلاً . . . بيد أنه يمكن القول بأنّ قضيتي الالتزام أو الانحراف لا تنحصران في فنّ الشعر فحسب بل تنسحبان على مطلق الفنون (الخطبة ، الخاطرة ، المقالة . . . الخ) فلماذا يتجه المنع الى الشعر فحسب ؟

يضاف الى ذلك ، ان هناك طائفة ثالثة من النصوص (تتحفظ) حتى حيال الشعر الملتزم اسلامياً حيث تمنع من انشاده في أزمنة وأمكنة خاصة . كما ان تنزّه (النبي ﷺ) عن ذلك (من خلال الآية الكريمة التي تقرر بانه (لا ينبغي له)[٢] ، يعزز (التحفظ المذكور مما يعني أن هناك (سراً) وراء ممارسة الشعر مقترناً بما هو

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الدكتور علي الوردي ، ج١ ، ص٢٠٧ ـ بحث بعنوان الشعر والحضارة ـ ، ويراجع أيضاً كتابه الموسوم (اسطورة الأدب الرفيع) حيث يلقي بالانارة ـ عبر الحوار الذي أجراه مع الدكتور عبدالرزاق محيي الدين ـ على جوانب متعددة من قضايا الشعر .

(٢) اشارة الى قوله تعالى : (وما علّمناهُ الشعر وما ينبغي لَهُ إن هو إلّا ذكرٌ وقرآنٌ مبين) سورة يس ، الآية ٦٩ .

سلبي من السلوك (المصاحب للمارسة المذكورة . . .) .

ان المعنين بشؤون الفن والتفسير والفقه ، يحاولون تقديم أكثر من وجهة نظر في هذا الصدد . . .

وفي تصورنا ان هذه الأسباب مجتمعة ساهمت في ظاهرة (التحفظ) الاسلامي حيال الشعر . . . بيد أن الأهم من ذلك هو ان ارتكانِ الشعر أساساً الى كونه استجابة (انفعالية) خارجة عن حدّ الاعتدال هو الأمر الذي يمكن ان نلتمسه تفسيراً للموقف الاسلامي (المتحفظ) حيال الشعر . . .)[١] .

التأسيس في عملية التجربة الشعرية : (انطلاقاً من المقولة الذاهبة الى ان الانسان ، ينبغي عليه ان يمارس دوره العبادي في الحياة .

حينئذٍ ، ان أي نشاط يصدر منه يتعين عليه ان يكون هادفاً ، وعندما كتبتُ الشعر . . . توصلت الى ان الشعر لا ينطوي على فائدة ضخمة بقدر ما تتحقق فائدته في نطاق ضيق جداً .

كما لا يستطيع ان يحقق الهدف الذي يسعى الانسان اليه عبادياً . مضافاً الى ذلك ان الشعر يعدّ تعبيراً عاطفياً عن الحقائق ، والاسلام في الواقع ، يطالبنا بان نتعامل عقلياً مع الحقائق وليس عاطفياً .

صحيح ان العاطفة ضرورة لا مناص منها ، إلّا أن منها ينبغي أن تستخدم في نطاق محدود بحيث لا تطغي على العقل) .

ولهذه الأسباب وغيرها ، وجدت أن هناك نشاطاً آخراً ، يمكن أن يوظفه الانسان لتحقيق المهمة العبادية في الحياة ألا وهو عملية النقد الأدبي[٢] .

---

(١) الاسلام والفنّ ، الدكتور محمود البستاني ، ص٣٣ .

(٢) حوار خاص اجريناه مع الدكتور .

في نهاية حديثنا عن الشعر وموقفهُ منه نذكر بعض الأبيات من آخر قصيدة كان البستاني قد ختم حياته الشعرية فيها. ويلاحظ أن القصيدة المذكورة ينتظمها طابع جديد يختلف عما هو معروف عنه من حيث الغموض والضبابية، حيث جعلها خطابية لا تعبّر عن اسلوبه الفني، بل جعلها بصورة ساخرة على هذا النحو:

عشرونَ عاماً ان نجعْ ننهدْ إلى	**كلماتِنا: كلماتِنا الجوفاءِ**
نصفعْ بها وجهَ الأثير فينثني	**شدقُ الأثيرِ بضحكةِ استهزاءِ**
حتىٰ إذا التحمتْ معاركُ أمسِنا	**وتلفعتْ بالرايةِ السوداءِ**
عُدنا بنفسِ قصيدةٍ عصماءِ	**وبنفسِ قافيةٍ ونفس خواءِ**
وكأن أوتارَ القصيدِ تألّهت	**عجلاً نقدسه بكل غباءِ**
عجلاً لهُ جسدُ جميلٌ رائعُ	**وله خوارُ السادةِ الشعراءِ**

وبما أن القصيدة قد ألقيت بمحفل الرابطة الأدبية بالنجف الأشرف وكان يضمُّ الحفل جمعاً من الشعراء، قدموا الى النجف من كافة أنحاء العراق. حينئذ أرتجل الشاعر النجفي المعروف الدكتور محمد حسين الصغير، قصيدةً يردّ بها شيئاً من الأعتبار بالنسبة للشعراء...

كان مطلع قصيدته التي يلاحظ فيها أنها نفس قصيدة البستاني من حيث الوزن والقافية:

محمودَ يا وجه السنا الوضاءِ	**ياكوكب الشعراءِ والأدباءِ**

وبعد أن يمضي على نسق هذه الأبيات... يحاول أن يدفع المسؤولية عن عاتق الشعراء ليخلعها على السياسيين والعسكريين، حيث جاء منها هذا البيت:

الأمرُ ليس بكفنا يا سيدي	**الأمرُ للزعماءِ والعقداءِ**



الفَصۡلُ ٱلثَّالِثُ

الحقل التفسيري
والنشاطات القرآنية

الحقل التفسيري والنشاطات القرآنية

يشغل الحقل التفسيري حيزاً واسعاً من اهتمامات المؤسسة الاسلامية قاطبة ، فان نظرة سريعة الى ناحية (الموروث) الفكري ، تكفي باعطاء تصورٍ عام يتكفل بتوضيح نوعية الدور والفاعلية التي يتمتع بها ، كما ان أبسط عملية (رصد) للنتاجات المعاصرة تنتهي بنا الى ان الحقل المذكور لا يزال يحتفظ بحيوية فائقة بحيث تجعل من المعني بقضايا الفكر الاسلامي متحمساً ومتحركاً نحو اسهامات مضافة ، حتى أصبحت الممارسة التفسيرية هدفاً يخطط له كل من يبغي ان يضع أسمه في مصاف الخالدين اسلامياً .

بيد أنّ الجانب المهم أو ما يعنينا من الموضوع ذاته ، ان نتعرف على الأعمال الجادة ـ مادام الحقل المشار اليه يزدحم بالمشاركات المتعددة ـ وبكلمة أكثر تركيزاً الوقوف على الأعمال التي أضافت حقاً للحقل التفسيري أبعاداً وعناصر تمّ اكتشافها من خلال التجربة المستقلة ، فان المتتبع لمناهج الحقل المذكور يلاحظ ان خطاً متوازياً يمتدّ منذ الانطلاقة الأولىٰ لعملية التفسير وحتى العقود المتأخرة باختلافات يسيرة من حيث النهج العام ، مما جعل الأعمال التفسيرية متّسمةً بنمطية واضحة يتوكأ فيها المتأخر على المتقدم بحيث يصعب في بعض الأعمال ان نقف على الفوارق التي تميزها عن نظائرها لشدّة التطابق والتشابه فيما بينها .

طبيعيّاً : أننا لا نقصد في حديثنا هذا العموميّة المطلقة ، فثمة أعمال برزت من خلالها القدرات العالية في تطعيم الحقل التفسيري بادوات ثقافية متنوعة بحيث

اتّسمت بالجدة والتنوع مما جعلتها تسهم باضاءة النص القرآني وابرازكنوزه المعرفية والجمالية .

ولا تغفل أنّ نهاية النصف الأوّل من القرن المنصرم وبداية نصفه الثاني قد شهدت ولادات أصيلة تمكّنت من طرق أبواب النصّ القرآني بأدوات ومفهومات مبتكرة من خلال توفّر أصحابها على ثقافات متنوّعة جعلتها قادرة على إنارة مسالك جديدة في عالم الدراسات القرآنية ممّا ساعد المتأخرين عليهم أن يساهموا في تطوير مشاريعهم التي عبّروا عنها عبر إشارات خاطفة وردت في دراساتهم للقرآن الكريم ، تلمح بمؤشّرات تأسيسية في الدرس القرآني الحديث بخاصة أعمال الشيخ عبد دراز والسيّد قطب والشيخ شلتوت ومحمّد الغزالي ومحمّد مبارك(١).

❊ ❊ ❊

ان طرائق مفسري النصوص القرآنية الكريمة ، يغلب عليها عامة المنهج (التقطيعي) أو ما يصطلح عليه بـ (التفسير التجزيئي) .

غير ان في العقود المتأخرة من القرن الحالي ، شهدت الساحة التفسيرية محاولة جديدة لتشيد اتجاه جديد يُدعى بـ [التفسير الموضوعي] قام بها المفكر العظيم السيد محمد باقر الصدر وفيها حاول دراسة الموضوعات والظواهر المتعلقة بالكون والانسان والحياة منطلقاً من ذات الحدث أو الموضوع الى أعماق النصوص التي تحمل اشارات ودلالات تتصل بتنوير الفكرة المطروحة . يُلاحظ ان الصدر حيث قدّم نموذجاً لهذا التفسير ، يتمثل في ظاهرة (السنن التاريخية) في القرآن الكريم ، مفسّراً من خلالها (ظاهرة الدين) حيث اعتبرها سنة تاريخية في هذا الميدان .

---

(١) للاستزادة في معرفة تلك النتاجات ، يمكن الرجوع للدراسة التي أعدّتها مجلّة قضايا معاصرة في الملف الخاصّ عن مناهج المفسّرين ، فقد قدّم الباحث (الذي أعدّ الدراسة) مسحاً شاملاً رصد فيه أبرز الأعمال في هذا الميدان. العدد الرابع ، سنة ١٩٩٨.

لم ينجز على الصعيد المذكور سوىٰ [محاضرات] توضيحيّة لبداية مشروعه أي مدخلاً للتفسير والحق ان التفسير الموضوعي وجد انصاراً ومؤيدين بحيث ظهرت الكثير من الأعمال التي تحاول ان تسلك الخطوات التي قدمها [الصدر] في منهجه المتقدم .

اعقب الاتجاه الموضوعي اتجاه مبتكر أحدث انعطافةً كبيرة في مسار الحقل التفسيري حيث أخذ بالتفسير القرآني الى آفاق لا عهد لها بها مستخدماً بذلك أنماطاً حديثة تمتاز بأكثر من معطى معرفي .

الاتجاه الجديد يُدعىٰ بـ(المنهج البنائي أو العضوي) وهنا تجدر الاشارة الى ما جاء في مجلة (قضايا اسلامية) في عددها الخاص بمناهج المفسرين حيث عهدت إلى صاحب المنهج المذكور، أن يحدّثها عن المنهج ، ومهّدت لذلك بالقول : « المنهج البنائي في التفسير منهج حديث قائم على دراسة السورة القرآنية من خلال الهيكل الهندسي العام لها ، حيث يتناول السورة في ضوء ترابط آياتها ، واتساق موضوعاتها وعناصرها الفنية بعضها مع الآخر وهذا المنهج اضطلع به الدكتور محمود البستاني في دراساته القرآنية المنشورة ، وطبقه على تمام النص القرآني في تفسيره « عمارة السورة القرآنية »[(١)] . كما تجدر الاشارة أيضاً لما جاء في تعريف أحد الادباء المعروفين) للدراسة التي قدمها الباحث كنموذج لمشروعه الكبير : « بعد جهود طويلة في ميدان البحث والدراسات الأدبية يظهر الى المكتبة العربية هذا البحث الأدبي الرفيع الذي يتناول بالدراسة والتحليل الناحية الفنية في النص القرآني ـ التركيب الفني وبناء الصورة ـ حيث يستلهم المؤلف تجربته الأدبية كشاعر وناقد من طراز رفيع كان له موقع من مواقع الريادة في مجال التجديد الأدبي بحثاً وابداعاً .

---

(١) قضايا اسلامية (مجلة) ، ص١٤ ، العدد الثاني ، سنة ١٩٩٥م ـ ١٤١٦هـ .

من هنا كانت دراسته (دراسات فنية في التعبير القرآني) حدثاً أدبياً هاماً ومعاناة قرآنية فذة تعلن فرادتها واصالتها رغم كثرة الدراسات التي تناولت القرآن الكريم من هذا الجانب .

وتتجلىٰ ـ أكثر ـ ما تتجلىٰ عناصر الابداع لدى الكاتب عندما يقدم لنا السورة القرآنية كبناء متكامل تتدفق من خلال آياتها شفافية البث القرآني وتكامل الحدث في حركته عبر السورة والآية والامكانات الهائلة التي يزخر فيها التعبير شاقاً بذلك ـ آفاقاً حيّة وجديدة لكل من يريد ارتياد هذه المعاناة الكبيرة .

في ظل هذه الدراسة يتاح للمثقف المسلم ان يضع يده على كنوز جديدة في قرآنه الخالد .

وأخيراً فان هذه الدراسة تقدم لنا القرآن . . . الفن . . . القرآن . . . التفرد . . . القرآن . . . المعجزة . . .[١] .

قبل ان نبدأ بتعريف المنهج وتوضيح مفاصله الاساسية ، ينبغي ان نتطرق الى اتجاه نقدي عام يُعرف بـ(البنيويّة) حيث يُلاحظ ان (التفسير البنائي أو العضوي) يتفق مع (البنيويّة) من زاوية المصطلح وبعض الجزئيات المتمثلة بالعناصر والأدوات وان كان الاتفاق المشار اليه لا يشكل انطباقاً شاملاً .

والبنيويّة ـ كما هو معلوم ـ مدخل من مداخل النقد الأدبي الحديث [ولم يكن الأدب في البداية يقع ضمن اهتمامات (البنيويّة) أي أنها في الأساس ليست منهجاً نقدياً ولكن النقاد الأمريكيين جعلوا منها ـ منذ أواسط السبعينات ـ منهجاً نقدياً يحمل طابعاً علمياً وعلى ذلك أصبحت أسماء : سوسير ، وستراوس ، وبارت ، وجاكسون ، وجولدمان . . . هي الأسماء الأكثر تردداً في مناقشات النقاد ، بل وفي

---

(١) دراسات فنية في التعبير القرآني للدكتور محمود البستاني (يلاحظ التعريف الذي أورده صاحب الدار ـ اي الأديب المذكور) دار الهادي ، بيروت ، ١٩٨٠ .

مناقشات كل المشتغلين بالدراسات الانسانية في كل من اوروبا وأمريكا ثم توالت أجيال النقاد البـنيويين ومـنهم . . . فشـرحـوا مـبادئها وطـوروها وذلك عـن طـريق تطعيمها بفروع نامية اخرىٰ][1] .

وأما من حيث الجوهر الأساس فيمكننا ان نحددها بما يلي (البنية هي : النسيج الجمالي الذي تنتظم فيه مفاصل النص في مستوياتها السردية والذهنية ، بعلاقات تشكابكية ومنسجمة ومؤولة ، تركيبيا ودلالياً وتداولياً)[2] .

ومزيداً من التوضيح نذكر النص الآتي : ـ(ولا نمانع من أن نأتي بمثال من خارج اللغة ثم نأتي بمثال موازٍ له من اللغة ولنص مفترض . . . وليكن مثالنا المأخوذ مـن خارج اللغة ثوباً!! فالمعروف ان المواد التي تدخل في نسيج الثوب هي الاقطان ، والأصواف . . . الخ وهي المواد الخام ، اما المواد التـي تشكـل بـنية الثـوب فـهي الخيوط المنسوجة من الاقطان أو الأصـواف أو غـيرها . . . فـالمواد الخـام تـوازي (اللغة) عند (سويسر) والمواد التي تشكل بنية الثوب توازي الكلام وعمل النساج يوازي الابداع في الكلام)[3] .

فالمُلاحظ ان أي خللٍ أو محاولة غير مدروسة سوف تؤدي الى فشل التـجربة وزعزعة أهدافها المرسومة . (إذا لم تكن البنية منتظمة فـقد لا تشكـل بـنية وفـي أحسن الأحوال تشكل بنية منهارة ، فلو ركّب النساج مواده بشكل غير منظم كأن يجمع الأزرار في كلها في اسفل الثوب والأكمام مكان الرقبة . . الخ عـلى الأرجـح ستكون بنية الثوب مضحكة كذلك لو طرح المبدع شخصيات النص وازمانه وامكنته وحكايته طرحاً اعتباطياً ستكون بنية النص مخلخلة وغير مقبولة)[4] .

---

(١) عالم الفكر (مجلة) العدد الثالث والعشرين العدد الأول والثاني ، ص٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص٣٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص٤٣٢ ، بحث بعنوان (بنية النص الكبرىٰ) د . صبحي الطعان .

(٤) المصدر السابق ، ص٤٣٤ ، بحث بعنوان (بنية النص الكبرى) د . صبحي الطعان .

والملاحظة الجديرة بالذكر : أنّ البستاني لم يقتصر بدراساته القرآنية على الاتّجاه المذكور فحسب ، بل يلاحظ أنّ ممارسة كشوفات بينصيّة النصّ في أعماله القرآنية تنفتح في بعض السياقات على نمط نقد آخر يُدعى بـ (اتّجاه ما بعد البنيوية) أو ما يصطلح عليه أيضاً بـ (التفكيكية) وآلية الاتّجاه الاتّجاه (التفكيكي) ، تتمثّل بتفكيك عناصر (النصّ) وإضاءة دلالاته ورموزه من خلال إدخال المتلقّي كعنصر فاعل في العمل الابداعي ، من دون إغلاق النصّ بدلالات يحدّدها المبدع الأصلي أو يحدّدها النقّاد من أجل محاولة إثراء النصّ بأكبر قدر من الإبداع الذي تفرزه نقدية المتلقي الخاصّة. لكن الباحث يفترق عن أصحاب هذا الاتّجاه عندما يؤكّد منظّروه على مسألة (ألّلا نهائية) المفضية بطبيعة الحالة إلى النتيجة العبثية المشهورة بـ « اللّا يقينيّة » المعرفة حيث تجرّد العملية الإبداعية من كلّ معنى هدفي وهذا ما لا يتوافق مع التوجه الإسلامي أبداً. لذلك تبقى إفادته من معطيات المدرسة المذكورة في حدود تعدّدية الدلالة التي يكتنزها النصّ ، ولا شكّ أنّ في مثل هذا النوع من الإفادة ما لا يمكن أن تطوله الملاحظة السلبية بل على العكس تماماً يمكن أن يدعم بعدّة نصوص شرعية كما في تفسير (الظلمات والنور) أو (الخير والشرّ) وغير ذلك من النصوص ، حيث يستطيع المتلقّي أن يتوفّر على أنواع متعدّدة من مصاديق كلّ من الخير والشرّ أو الظلمات والنور. مع التأكيد على أنّ هذه العملية النقدية أو الكشفية تتناول من النصوص القرآنية ما هو قابل لهذا النوع من العمل أو من النصوص التي لم تحدّد دلالاتها بشكل ثابت وقطعي من قادة التشريع الإسلامي [١].

منهجه في التفسير :

نعود الى دائرة الموضوع حيث التفسير وادواته وطرائق موضوعاته التي يتألف منها منهجه بشكله المتكامل .

---

(١) الاسلام والفن ، ص٦١ ، الدكتور محمود البستاني .

والملاحظ ان (التفسير البنائي أو العضوي) يقع ضمن شبكة واسعة من الآليات المخطط اليها سلفاً بحيث تزدحم الظاهرة (البنائية) بعناصر وادوات مدهشة في جوانب التناغم والاتساق والانتظام الحاصل فيما بينها من تداخل الموضوعات وتواصلها وقابلية نموّها المشابه لنموّ الكائن الحيّ الى غير ذلك من الفاعليات الدالة على جاذبية المنهج المطروح وضخامة نوعيته التي سنتوصل اليها في تضاعيف دراستنا للمنهج نفسه .

يشير الباحث الى الدافع أو المحرك الذي يدعو المفسر من التناول البنائي للسورة القرآنية الكريمة بقوله : (فان الحافز الذي يدفع الدارس الى تناول النص القرآني الكريم في ضوء بنائه الهندسي أو العماري أو البنائي هو : ملاحظته بان القرآن الكريم مادام قد (انتظم) في (سور) فيما بلغ عددها (١١٤) حينئذٍ فلابدّ من (اسرار) خاصة تكمن وراء ذلك ، وإلّا كان من الممكن ان (ينتثر) آياتٍ وليس سوراً ، مما يعني أيضاً ان السّر لا ينحصر مثلاً في مجرد تيسير عملية القراءة بقدر ما يتجاوزها الى اسرار اخرى يكتشفها المتلقي حينما يتاح له ان يدقق النظر في ذلك . . ولا أدلّ على هذه الحقيقة من ان النبي ﷺ ـ كما تذكر كتب السيرة ـ كان يأمر كتّاب الوحيّ بان يضعوا هذه الآية أو تلك في الموقع الفلاني من السورة مما نكتشف من خلاله ان ثمة (اسراراً) وراء ذلك . . . وهذا وحده كافٍ بان يدفع الباحث الى دراسة الجانب المشار اليه)[١] .

ان المؤلف عبر اهتماماته بالمنهج العماري لم يقف عن حدود الجمال الفني بل وظّف الاتجاه المشار اليه من أجل الكشف عن القيم والمبادئ العظيمة التي ينطوي عليها القرآن .

وكذلك يقول : (فهناك مسوغات فنية واخرىٰ نفسية تفرض فاعليتها من خلال

---

(١) قضايا اسلامية (مجلة) ص١٧ ، العدد الثاني .

تناول النص القرآني عبر وحدويّة نصه. إذ ان النص القرآني يتضمن موضوعاً أو موضوعات متعددة تستبطن هدفاً أو (أهدافاً) وهذه الموضوعات أو الاهداف تشتمل على فروع أو أقسام أو أجزاء تنتظم ضمن مساحة النص) .

هذه الأقسام أو الأجزاء التي تنتظم النص مرتبة وفق تخطيط هندسي بحيث إذا غيرنا مكان واحد منها ووضعناه مكان الآخر، أو حذفناه أو قدّمنا أو أخرنا بعضاً منها عن الآخر، يحدث (خلل) في موضوع (الحادثة) و(فكرتها)[١] .

إذن : فالمسألة تعني ان ثمة (وحدة) فكرية ينطوي عليها النص القرآني، تجتمع من خلالها الأجزاء بشكل متناسق لتصبّ في نهاية المطاف بالحدث الأساس .

كما يعني أيضاً ان ندقق النظر في تلاحم الموضوعات وترابط خيوطها ونزيد من عملية (الكشف) لنلاحظ مدىٰ توفر النص القرآني على عناصر الابداع التي تعمل في تقنيات مذهلة بغية اثراء التجربة الجمالية وتحقيق الاستجابة من خلال الآليات المنفردة .

ويتابع البستاني مسارات منهجه البنائي بقوله : (ان الوحدة المذكورة لا تنحصر في تلاحم موضوعاتها وأجزائها، بل تتجاوزه الى سائر أدوات النصّ فالنصّ يتضمن (أدوات) يتشكل منها مثل : الايقاع، كالتجنيس، والتوازن . . .و) ومثل الصورة (كالتشبيه، والاستعارة والرمز) . . . الخ، كما يتضمن عناصر اخرىٰ كالعنصر القصصي مثلاً . . . .

والمهم هو : ان هذه العناصر والأدوات تُصاغ بنحو يتناسب كل منهما مع طبيعة الموضوع أو الفكرة، أي يتساوق الايقاع مثلاً مع فكرة النص وتوظف الصورة من أجل انارةالموضوع، وتسرد القصة لتلقي ظلاً على الموضوع وفكرته وهكذا . . .[٢] .

وامّا المسوغ النفسي من وراء البناء الهندسي أو العماري للنص . فيأخذ بدوره

---

(١) و (٢) مجلّة قضايا معاصرة، ص١٨ .

مساحة واسعة من الفاعلية والأهتمام عند البستاني : (سرُّ ذلك : ان الغرض الذي تستهدفه النص لن يتحقق بنحوه المطلوب ، طالما نعرف بان أدراكنا للأشياء يعتمد على (النظرة الكليّة) لها ، فالكون نفسه خاضع لنظام خاص يـتألف مـن جـزئيات يتناغم بعضها مع الآخر ضمن (الكل) أو (الوحدة) التي تـنتظم هـذه الجـزئيات وعملية ادراكنا للأشياء تتم وفق الآليّة المذكورة نفسها)[١].

وليست المسألة بهذه البساطة فحسب لنصرح بقناعتنا حيال الباحث فيما وصل اليه حيث يغوص في أعماق المسوغ المذكور ـ المسوغ النفسي ـ وعبر رحلة شاقة من البحث والتنقيب ليصل الى فرز دلالته وأبعاده التي لا أحسبها بهذه الدرجة من الأصابة والتوفيق ، إذ الأدلة التي يقدمها الباحث لدعم رؤيته تنطلق من زاوية نفسية بحتة وبالخصوص مسألة (اللاوعي) التي يستدل بـها . . . أقـول : ان ذلك جـميعاً يشكل احدى الفرضيات التي يكثر حولها النقاش والرفض .

الى جانب ضمور الخيوط الحسيّة في واقعيتها . يقول :

(بل ان القراءة ذاتها تترك أثرها اللآواعي عليه ، وهذا ما يمكن رصـده عـندما نلحظ ان القارئ ما إن ينتهي من التلاوة أو الاستماع لسورة كاملة يحسّ بان السورة تركت فيه تأثيراً خاصاً بحيث يمكنه ان يتلمس بان شيئاً ، قد سيطر عليه دون ان يعي أسرار ذلك ، وهذا الشيء الغامض المسيطر عليه نـاتج مـن طـبيعة البـناء الفكـري والفني للسورة من حيث بداياتها ونهاياتها ، وما تخللهما من تفريع للموضوعات أو تنويع لها وما فيها من توازن وتقابل وتجاور وتداع بين الأجزاء التي يرتبط كلٌّ منها بسببية تحكمه[٢].

وتوضيح ذلك ـ حسب رأي الباحث ـ أننا لو قرأنا عـلى سـبيل المـثال (سـورة

---

(١) المصدر السابق ، ص١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص٢٠٠ .

الكهف) سنجد ان الوحدة العامة للسورة تدعو الى (نبذ زينة الحياة الدنيا) حيث توزعت هذه الفكرة على مساحة السورة بشكل مدروس ومن خلال توظيف العنصر القصصي المساهم باضاءة وتجسيد المفهوم ذاته حيث (قدمت قصة أهل الكهف لتنقل القارئ بنحوٍ لا واع الى تجربة (نبذ زينة الحياة الدنيا) في أشد نماذجها وضوحاً : حيث كان ابطال القصة من ابرز موظفي المؤسسة الحكومية آنئذ ، ومع ذلك تركوا مواقعهم السياسية الضخمة واتجهو الى أقصىٰ مستويات النبذ لزينة الحياة وهو (الكهف) . . .) .

ثم أردفتها بقصة جديدة هي قصة (صاحب الجنتين) الذي بهرته ـ على عكس أصحاب الكهف تماماً ـ زينة الحياة الدنيا من خلال تملكه لمزرعتين فيما أفضىٰ ذلك به الى ان يشكك بقيام الساعة . . .

ثم طرحت السورة مفهوم (نبذ زينة الحياة الدنيا) للمرة الثالثة عندما عقبّت قائلة : **﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾** وتقدمت بعد ذلك بقصتين : احداهما عن شخصية موسىٰ والعالم والاخرىٰ عن شخصية (ذي القرنين) جسدت أحداهما شخصاً مبهماً ـ بالنسبة إلى موسى عليه السلام ـ منعزلاً عن الحياة تماماً والاخرى جسدت شخصاً بلغ من الشهرة ـ على عكس صاحبه ـ موقعاً بحيث ملك شرق الأرض وغربها إلّا أنه على العكس من صاحب المزرعتين المتحاذيتين لم تبهره زينة الحياة الدنيا . . .[1] .

والمهم ان نعرض لخطوط المنهج الاخرى فهناك أدوات أخرىٰ يركز عليها المنهج المشار اليه كما توجد عدة مستويات توافر عليها وعرض لنماذجها . بالامكان ان نلخصها بما يلي :

١ ـ من حيث الموضوعات مثل : السور المتسمة (بوحدة الموضوع ووحدة

---

(١) المصدر السابق ، ص٢١ .

الفكرة أو الهدف نحو (سورة الكافرين). وكوحدة الموضوع وتعدد الهدف (أي ان السورة تتضمن موضوعاً واحداً إلّا أنها ذات أهـداف مـتنوعة ، وهـذا مـثل سـورة يوسف حيث ان موضوعها هو (حياة يوسفعليه السلام) إلّا ان اهدافها متنوعة مثل : فكرة الصبر ، العفة ، الحسد ، الغيرة . . . الخ . وكتعدد المـوضوع ووحـدة الهـدف مـثل : سورة الكهف المتقدم ذكرها) .

٢ ـ من حيث العرض مثل : التجانس : وهو بناء السورة على تجانس موضوعها .

ـ والتداعي : وهو بناء السورة على ما يفرضه الموضوع من تداعيات ذهنية .

ـ الاجمال والتفصيل : وهو ان يقوم بناء السورة على طرح الموضوعات بـنحو الاجمال ثم تفصيله لاحقاً مثل : سورة (نوحعليه السلام) التي (أجملت) الانذار في بدايتها **﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾** ثم (فصلت) مستوياته **﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾** ، **﴿إِنِّـي دَعَـوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾** ، **﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا...﴾** ، **﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ...﴾** . . . الخ .

ـ النمو : (وهذا النمط من البناء يضلّ أشدّ المستويات بروزاً في هندسة السورة الكريمة ، ويقصد به : ان الموضوعات المطروحة فـي السـورة تـبدأ بـنحو تـتنامى أجزاؤها من خلال الرحلة التي يقطعها النص)[١] .

٣ ـ من حيث الاشكال وذلك من خلال التركيز على الهيكل الخارجي لها فان ما تقدم يتناول السورة المباركة من حيث بطانتها الداخلية ، وأساسيات هذا الجـانب يتضمّن الأشكالات الآتية :

ـ البناء الأُفقي : (وهو ان تبدأ السورة بطرح ظاهرة خاصة ، وتختم ذلك بالظاهرة ذاتها ، ومثاله سورة (المزمل التي استهلت الحديث عـن قـيام اللـيل . . . وانـتهت بالحديث عن القيام نفسه . . .) .

---

(١) المصدر السابق ، ص١٥ .

ـ البناء المقطعي : وهو ان تبدأ السورة بطرح جملة من الموضوعات إلّا أنها تستهل أو تختم كل موضوع بفقرة أو فقرات متماثلة تشكل (وحدة) الهيكل للسورة أو تكون بمثابة محطة تتكرر الرحلات من خلالها ، لتحط بين حين وآخر في الموقف نفسه وهذا مثل سورة (المرسلات) حيث ينتهي كل موضوع منها بفقرة ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾[١].

❊ ❊ ❊

بهذا العرض الموجز تمّ لنا أن نعطي تصوراً عاماً عن منهجه التفسيري .

نتقدم الآن للحديث عن نشاطاته القرآنية الاخرىٰ ونبدأبـ : ـ

دراسات فنية في قصص القرآن :

يرصد البستاني في كتابه الموسوم : (دراسات فنية في قصص القرآن) كل ما تضمّنه الكتاب العزيز من سرديات فنّية وبمختلف أنماطها المألوفة في حقل الدراسات الأدبية المعاصرة ـ حيث كشف من خلال عملية المقارنة بين (القصّ) القرآني و(القصّ) الذي تمخضت عنه التجربة الانسانية الحديثة ـ عن العلائق الفنية من جهة وعن التفوّق القرآني من جهة اخرىٰ بخاصة في ما يتعلق بعنصر المحاكمة وافراز المواقف الايجابية والاشارات التي تحدّد سلبيات (الشخوص) والأحداث ذات الجانب السلبي . وهذا مالم يخبره الحقل القصصي بعد .

والظاهرة التي تشكل سمة الامتياز في المحاولة المتحدث عنها : ان الباحث قد أودع في كتابه أعلاه تجربته الطويلة كناقد أدبي له مكانته البارزة في مجال البحث والتنظير والدرس النقدي بخاصة توفره الملحوظ بما أفرزته النتاجات المعاصرة على الصعيدين النقدي والأدبي . وسوف نتطرق لذلك تحت عنوان لاحق من هذه الدراسة .

---

(١) المصدر السابق ، ص٢٦ .

ومما يجدر التأكيد عليه أيضاً ان كتاب (دراسات فنية . . .) هو بالواقع خلاصة متابعات ثقافية واسعة بل حصيلة كتابات متعددة قدمها الباحث في حقول المعرفة الانسانية بحيث ينفذ بالقارئ عبر تحليله النقدي وعملية كشفه للنصوص التي تحتشد في داخلها بعناصر الابداع الفني والجمالي . . . الى محطات نفسية واخرى اجتماعية وثالثة روحيّة وبشكل قد نثرت به على مساحة واسعة من النصّ القصصي بغية التوفر على أضاءة مكتنزاته الابداعية في تعميق القيم والمبادئ الاخلاقية و . . .الخ ، وبالنحو الذي يلاحظ فيه آليات التآزر بين العناصر كافة لتتمخض عن كل ما يخبرهُ الحسّ من جمال وابداع ومعرفة . . .

ومن ذلك ـ علىٰ سبيل المثال ـ ما أورده في تناوله لقصّة نوح عليه السلام ففي صدد تحليله لظاهرة عدم تقبل الرسالة بالنسبة لقومه وعنادهم العنيف يقول : (لقد بلغ بهم المرض الى الدرجة التي كشفت عن أنهم يحملون في أعماقهم ،كراهية شديدة للأصوات الخيرة .

ان المرضىٰ ، أو العصابيّين ، أو المنحرفين يتفاوتون في درجة المرض الذي يعانون منه : فقد يكون المريض كارهاً لِذاتِه ، وللآخرين ، وللقيم الخيرة . . . لكنه يختزن هذه الكراهية دون ان يترجمها الى سلوك خارجي لفظي مثلاً أو حركي ، بل يحتفظ بها في أعماقه مكتوياً بلهيبها) .

لكنه حين يترجمها الى سلوك خارجي ، فان هذا يظل (مؤشراً) الى بلوغ المريض درجة خطيرة من المرض . فاذا ترجم كراهية أعماقه الى سلوك لفظي مثلاً كان مؤشراً الى درجة معينة من حجم المرض الذي يعاني منه ، اما اذا ترجم أعماقه المريضة الى سلوك (حركي) مثلاً: وضع الاصابع في الآذان ، . . فان المرض يبلغ قمته التي تستدر الاشفاق .

لقد كشف المستكبرون من قوم نوح عليه السلام ، عن ذروة المرض الداخلي الذي يعانون منه ، حينما ترجموا أعماقهم الكريهة الى سلوك حركي هو [وضع الأصابع في

آذانهم] تعبيراً عن رفضهم الطفولي للرسالة الخيرة التي دعاهم نوحٌ اليها .

ومن الحقائق الثابتة في لغة علم النفس المرضي ، أن (النكوص) الى أساليب الطفولة : يُعد تعبيراً واضحاً عن درجة المرض الذي يطبع صاحب الحالة . فهو بعجزه عن التكيّف ، وحدّة التأزم الداخلي لديه ، وفقدانه لأية وسيلة يُخففُ بها توتراته ، نجده يلتجئ الى أساليب من السلوك تعوّد عليها في الطفولة حينما كان يحتج على عدم أشباع حاجاته بانماط شتى من السلوك : يستدر بها عطف الكبار وكل ذلك بسبب من عدم نضجه .

ويبدو ان المستكبرين الذين وضعوا أصابعهم في آذانهم حينما دعاهم نوح الى رسالة السماء وطلب المغفرة . . . يبدو أنهم قد ارتدّوا ونكصوا الى أساليب الطفولة ، يخففون بها حدة توتراتهم وتمزقاتهم الداخلية التي يُعانون منها ، معبرين بذلك عن عجزهم التام عن التكيف مع الموقف ومعالجته بالنحو السليم(١) .

عرضنا لهذا النص الطويل من أجل توضيح استخداماته للغة النفسية . وهكذا هي القصص التي يتناولها فنادراً ما تخلو من الالماحات النفسية والاجتماعية التي سوف نعرض لنماذج منها فيما بعد .

* * *

وهنا لابدّ من تسجيل بعض الحقائق المتعلقة بالكتاب نفسه حيث حاز على جائزة الدولة الاسلامية الايرانية . كما قدم سماحة قائد الثورة الايرانية السيد علي الخامنئي شهادة شكر وتقدير للباحث نذكر منها :

وكذلك ايضاً فقد تقدم وزير الثقافة والارشاد ببطاقة شكر جاء فيها :

يُضاف الى ذلك : فلقد أذيع الكتاب عبر البث الاذاعي وبشكل منظم كما أعيدت طبعاته مضافاً الى ترجمته .

---

(١) دراسات فنية في قصص القرآن للدكتور محمود البستاني ، ص٦٩١ .

دراسات فنية في التعبير القرآني :

من النشاطات التي قدمها الباحث في الحقل القرآني دراسة معمقة تحت العنوان اعلاه (دراسات فنية في التعبير القرآني) وفيها يحاول عرض خيوطه المنهجية ـ من حيث التطبيق لتناول النص القرآني : (بعد جهود طويلة في ميدان البحث والدراسات الأدبية يظهر الى المكتبة العربية هذا البحث الأدبي الرفيع الذي يتناول بالدراسة والتحليل الناحية الفنية في النص القرآني ـ التركيب الفني وبناء الصورة ـ حيث يستلهم المؤلف تجربته الأدبية الفذّة كشاعر وناقد من طراز رفيع كان له موقع الريادة في مجال التجديد الأدبي بحثاً وابداعاً .

من هنا كانت دراسته (دراسات فنية في التعبير القرآني) حدثاً أدبياً هاماً ومعاناة قرآنية فذّة تعلن فرادتها واصالتها رغم كثرة الدراسات التي تناولت القرآن الكريم من هذا الجانب)[١] .

يُلاحظ ان الدراسة أو المحاولة ذاتها يلفّها الطابع الاختزالي أو المضبب في أغلب منحنياتها حيث جاءت بـ (خطاب) نخبويّ صرف في طرحها للموضوعات وغير ذلك من الجوانب التحليلية والفنية . . . بنحو تتكثف أمام القارئ عناصر وأدوات يتوفر عليها الباحث بنحو لا يعطي به فرصة للقارئ المتوسط من عمليات التفاعل والامتاع والواقع ان الباحث تنبه للاشكالية التي جوبه بانعكاساتها الحادّة مما جعلت منه يتبنىٰ (خطاباً) آخراً له اسلوبه وخصوصيته المتميزة من خلال النتاجات المتعددة التي أعقبت الكتاب المذكور.

---

(١) دراسات فنية في التعبير القرآني ، كلمة الناشر . . .

الفصل الرابع

الحقل الفقهي

الحقل الفقهي

يأتي الحديث عن الجانب الفقهي ـ لدى البستاني ـ في سياق الانتهاء أو الوصول الى آخر محطة مهمة في رحلته الطويلة بعالم الفكر والمعرفة. حيث يتمّ في الحديث عن الجانب المذكور، رسم أحدى الخصوصيات الدقيقة في صورته الفكرية التي نلحظها بالوقت الحاضر، بل نأتي على تحديد (المفصل) الفعّال في بلورة شخصيته واكسابها طابع التأصيل الفكري العامل على حصانة الرؤية وتطويقها بسياجات تقف حاجزاً بوجه الانزلاق مع افرازات الطرف الآخر، لتؤكد بذلك على استقلالية الهوية وفاعلية الذات.

لا يخفىٰ، ان في الحديث عن الجانب المشار اليه، نوعاً من الخطورة التي تفرضها طبيعة (المؤسّسة الحوزوية) بما في ذلك، تشكيلة وسطها ذات الخصوصيّة المعروفة بنوعية نمطها مزاجياً وتركيبياً.

حيث يشكّل التفقه أو الاجتهاد، حسب المصطلح الحوزوي أعلى مستويات (الهرم) الدرسي أو البحثي الذي تتمخض كنتيجة طبيعية، لهُ: الشخصيات القادرة على استنباط الأحكام الفقهيّة من خلال تجربتها العملية وادواتها الخاصة، في مجالات النشاط الاستدلالي. لذا نجد ان المصطلح ـ المتحدث عنه ـ محاط بهالة واسعة من التقديس المبالغ فيه أحياناً، مما يعني الوقوف بالجدل أو الاستغراب حيال كل من ينعت بلقب (الفقيه) أو (المجتهد) خصوصاً فيمن أكمل مراحل التفقه بمعزل شبه تام عن الانماط المألوفة لدىٰ مناهج المؤسسة الحوزويّة، وبمدة

زمنية قصيرة قياساً مع ما يستغرقهُ الفقهاء الآخرون . . .

كيف ما يكون : مادمنا نحتفظ بوثائق ومؤشرات تدعم ما نذهب اليه ، فحينئذ لا داعي البتّة من التوجس أو الشعور بالخطر .

ويجدر بنا قبل ان ندخل أبواب نشاطاته الفقهية كشفاً وتحليلاً ، ان نعرض لأسباب توجهه نحو هذه الزاوية بالذات .

والذي يبدو ان الانطلاقة الفقهية ، قد حدثت إثر موقف وضع أمامه أكثر من علامة استفهام .

يقول : البستاني جواباً على سؤال طُرح عليه :

(الواقع ان الفقه أيضاً له سببٌ دفعني اليه . أتذكر ان الاستاذ المشرف سألني عن مسألة فقهية ـ عند ما كنت في القاهرة ـ ولكنني لم استطع أن أجيبه عليها ، وحينئذ شعرت بخجل شديد ، وقلت في نفسي أنني أعرف الآن النظريات الغربية في مجال النقد الأدبي ، ولكنني لا أعرف شيئاً عن أحكام الشريعة أليس هذا عيباً كبيراً لذلك في غمرة هذه الملابسات قلتُ من جملة ما قررته في ذلك الوقت أنني سأتفقه أيضاً حتىٰ تكون الكتابات التي أكتبها مرتكنة الى أساس سليم من الناحية الشرعيّة ، وبالفعل عندما رجعت وجدتُ نفسي راغباً كل الرغبة في أن أتفقه وبالفعل بدأت أتفقه وكنت أصرف احياناً في اليوم تقريباً خمسة عشر أو ثمانية عشر ساعة بدراسة الفقه واصوله وما يتعلق به وبالفعل بدأت أقرأ وأسأل واتصل بالفقهاء ، لأنني وجدت أنني لو انخرطت بالسلك الحوزوي بالشكل التدريجي لاستغرق ذلك وقتاً طويلاً ، لذلك قررت أن أقرأ بنفسي هذه الكتب المعروفة بالحوزة وان أسأل فيها المختصين عن كل نقطة غامضة واستطعت ـ ولله الحمد ـ خلال سنة ونصف ان اتوفر على دراسة هذه النصوص وان أكتب دورة فقهية كاملة ليّ بشكل خاص كتبتها واحتفظت بها خلال المدّة المذكورة)[1] .

---

(١) حديث خاص أجريناه مع الدكتور البستاني ، بتاريخ ١٤١٦هـ ، شعبان المبارك .

وبالفعل فان هناك من يؤكد هذه الحقائق ، حيث وجدتُ أحد أبرز الكتاب الأخلاقيين بالوقت المعاصر يصرح بكل ما تقدم : (قال لي : رأيتُ عند الاستاذ العلامة الشيخ محمد تقي الايرواني جزءاً من كتاب الحدائق الناظرة فاستعرته وقرأته وهكذا حتى قرأت المجموعة كلها ثم أخذت أقرأ كتب الحديث والفقه مثل : جواهر الكلام وبقية كتب الفقه ولمدة سنة ونص . . . الخ ، حتى قالي : بعض الاعلام ، أنت مجتهد ولا يجوز ذلك ان تقلّد .

سافرت معه الى الحج سنة ١٣٩٨هـ ومعه بعض كتبه في الفقه الاستدلالي وسألته : هل استغلقت عليك عبارة أو أشكل عليك مطلب في وقت التحصيل؟

فقال : نعم وكُنت أرجع بالسؤال والايضاح من بعض الاعلام .

وأعظم من هذا عندي هو تقوى الدكتور وانصرافه عن الدنيا وما يحمله من ولاء لأهل البيت عليهم السلام)[1] .

ولا نذهب ـ بالقارئ ـ بعيداً ، فان في بحوثه الفقهيّة ـ التي سوف نعرض لها ـ ما يكفي للتدليل على رسوخ قدمه في دائرة المعرفة المذكورة .

ان نشاطاته الفقهية ، تتمثل في عدة [أوراق] قدمها الباحث ، كدراسات لجملة من الكتب والشخصيات الفقهائية المعروفة بضخامة مستوياتها من أمثال : سلّار ، العلّامة ، الشهيد ، الأردبيلي ، الكركي... الخ .

والأوراق المذكورة تكشف بوضوح عن عمق ممارسته الاستدلالية من جانب وعن جدّة ملاحظاته النقدية في متابعة أعمال الفقهاء من جانب آخر . حيث يغوص الباحث في أدوات الممارسة الفقهيّة مسجلاً ومبرزاً لعناصر في غاية الدقة وبخاصة عمليات تقويمهُ التي ألمحَ من خلالها على مستويات الفقهاء وجوانب العمق والريادة عندهم .

---

(١) النجفيات للاستاذ الفاضل علي محمد علي دخيّل ، ص١٣٥ ، بيروت دار المرتضىٰ .

وبكلمة جديدة : ان الأوراق المذكورة وثائق تنطوي على قيمٍ ملحوظة ، ويمكننا معرفة أهميتها من خلال نقاط متعددة . منها اهتمامات النّقاد ببعضها ، حيث أشار أحدهم بان الكتاب الحائز على جائزة الدولة الأيرانية (كتاب السنة) قد نال نجاحه بسبب المقدمة ـ الدراسة ـ التي صُدّر بها .

والجدير بالتنبيه ان الكتاب ذاته قد علق على الدراسة التي صُدّر بها أحد أساتذة المؤسسة الحوزوية المعروفين حيث جاء في أحدىٰ صفحات الكتاب : [هذه الملاحظة وما يتبعها من الهوامش ، مما تفضل به سماحة آية الله مؤمن حفظه الله على هذه المقدمة لمزيد الفائدة](١) .

وهذا ما يلقي بالانارة العالية على جدّة بحوثه ، بحيث تتفرغ الشخصية المشار اليها للتعليق والاستطراد على ما أورده الباحث في [ورقته] المتقدمة وهو رقم له دلالته الخاصة في العرف الحوزوي ، كما ان الورقة نفسها قد تضمنت نقداً لبعض مباني صاحب الكتاب الذي يعدّ من أكابر الشخصيات الموروثة ذلك من قبيل ، ما احتج به العلامة الحلي ـ صاحب الكتاب ـ باحدى الروايات الضعيفة على اثبات مسألة شرعية من باب الزام المخالفين بما هو معتبر عندهم ، والنصّ الذي نحاول أن نستشهد به قد يطول ، لكن : لا حيلة لنا إلّا بايراده كاملاً .

يقول الباحث : في معرض ردّه على العلامة الحلّي : [بيد أننا لا نوافق المؤلف على احتجاجه بالرواية الضعيفة في حالة تضمنها ما هو مضادّ لمبادئ الشرع من جانب ، وما هو متناقض في الاستدلال بها من جانب آخر . . . وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح في ممارستين للمؤلّف ، تحدث في أُولاهما عن الكلام متعمداً في الصلاة وتحدّث في أُخراهما عن الكلام ممّن ظنّ إتمامها ، حيث رفض في (المسألة الأولىٰ) رواية للجمهور تزعم . . . بان النبي ﷺ سلّم في ركعتيّ الرباعيّة

---

(١) منتهى المطلب ، ج١ ، ص٤٤ ، طبعة مشهد المقدس ايران .

نسياناً ، فيما لفت « ذو اليدين » نظر النبيّ ﷺ الىٰ ذلك ، وأنه ﷺ قد استفسر عن صحة ما زعمه الشخص المذكور . . . المؤلف ردّ هذه الرواية بجملة وجوه :

منهـا : ان الراوي أباهريرة أسلم بعد وفاة الشخص المشار اليه بسنتين .

ومنها : وهذا ما نعتزم التأكيد عليه : ان الرواية تتضمن ما يتنافىٰ مع عصمة النبيّ ﷺ وهو النسيان . . .

أما في (المسألة الثانية) فان المؤلّف يقدم الرواية ذاتها للتدليل على جواز التكلّم بالنسبة لمن ظنّ الاتمام . . . فبالرغم من أنه لم يعتد بهذه الرواية ، حيث علّق قائلاً : (ورواية ذي اليدين ـ وان لم تكن لنا حجة ـ فهي في معرض الالزام) إلّا أن سوقها هنا للتدليل علىٰ جواز التكلّم بالنسبة لمن ظن الاتمام ينطوي على جملة من الملاحظات ، منها استشهاده بها في حكمين مختلفين هما : النسيان والظن مع أنها لا تتضمن إلّا حكماً واحداً . . . وحتى مع صحة الفرضيّة الأولىٰ لا يمكننا أن نعتمدها مادام المؤلف نفسه قد رفضها بالنسبة للنسيان فيما ينبغي أن يرفضها بالنسبة الى الظن أيضاً ، مادامت متعلقة بفعل واحد .

مضافاً لما تقدم ، فان الرواية المذكورة مادامت تتضمن ما هو يتنافىٰ مع عصمة النبي ﷺ حينئذٍ لم يكن هناك أي مسوغ للاستدلال بها][1] .

وكذلك ما جاء في مؤاخذته على المؤلف بالتفاتة ذكية : (هنا يتعين علينا أن نشير الى ان المؤلف ـ في بعض ممارساته ـ يحمّل النصّ تفسيراً يصعب التسليم به . . . وهذا من نحو تأويله مثلاً ـ في صعيد اللغة العرفية ـ لرواية تحدد الحيض بثمانية أيام « من طرف كثرته » ، حيث علق عليها قائلاً : (الغالب وقوع المتوسط وهو ثمانية أيام أو سبعة أو ستة ، فيكون ذلك اشارة الى بيان أكثر أيامه لا مطلقاً . . .) ان هذا التأويل لا يمكن التسليم به لبداهة ان الوسط لا يتحدّد في الرقم المذكور

(١) منتهى المطلب ، ج١ ، ص١٩ .

بدليل ان المؤلف نفسه قد ذكر الستة والسبعة أيام أيضاً كما ان « الغالب » لم يتحدد ـ عرفاً ـ في الرقم المذكور نظراً لعدم امكان « الاستقراء » في ذلك . . . ولو ان المؤلف طرح هذا الخبر لشذوذه مقابل الشهرة الروائية لرقم « العشرة أيام » لكان أجدر . . . والمؤلف أقر ـ في الواقع ـ بشذوذ الرواية عندما قال في البدء : هذا الخبر لم يذهب اليه أحد من المسلمين)[١].

ولنا أن نستشهد بنموذج آخر ، مؤكدين عمق الاداة التي توفر عليها الباحث في ميدان النقد الفقهي ، لكي نتبين مدىٰ نظراته النقدية التي تتوكأ علىٰ ثقافة فقهية واسعة ، مع ملاحظة ان النص المستشهد به سوف يضطرنا الى الاطالة أيضاً ، يقول الباحث : ـ في سياق دراسة فقهية تناول بها منهجية الشهيد الأول ـ .

ويبدو ـ كما سنلحظ ذلك لاحقاً ـ أن قناعة المؤلف بفتوى الأصحاب ، أو بالشهرة الفتوائية ـ عملية كانت أو مطلقة ـ نابعة من قناعته بان المقصود من مصطلح (الشهرة) في الأخبار العلاجية هي : الشهرة الروائية والفتوائية ، ولذلك رتّب أثراً عليهما في ممارساته مع تركيز شديد على الأخيرة منهما بل ترجيحها على الشهرة الروائية في حالة تعارضهما ، وهذا ما نلحظه في مقدمة كتابه الاستدلالي (ذكرى الشيعة) حيث يقول : « . . . ولقوة الظنّ في جانب الشهرة ، سواء كان اشتهاراً في الرواية بان يكثر تدوينها أو رووها بلفظ واحد أو ألفاظ متغايرة أو الفتوىٰ ، فلو تعارضا فالترجيح للفتوى إذا علم اطلاعهم على الرواية ، لأن عدو لهم عنها ليس إلّا لوجود أقوىٰ ، وكذا لو عارض الشهرة المستندة الى حديث ضعيف حديث حديث قوي ، فالظاهر ترجيح الشهرة ، لأن نسبة القول الى الامام قد تعلم وأن ضعف طريقه. . .)[٢].

فالملاحظ هنا هو قناعته بأن المقصود من الشهرة في الأخبار العلاجية ـ وإن لم

---

(١) المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٣ .

(٢) الذكـرىٰ ، ص٥ .

يشر اليها ـ هما الفتوائية والروائية مع ترجيحه للاولىٰ عند التعارض .

والسؤال هو : هل ان مصطلح (الشهرة) ـ حينما نضعه في السياق التاريخي أي زمن صدور الأخبار العلاجية ـ يحمل دلالة الشهرة الفتوائية بمعناها المستخدم لدى الفقهاء في عصرا الغيبة؟ ان الفتوى بمتن الرواية ـ كما هو واضح ـ تظل هي النشاط المحض الذي يصدر عنه الأصحاب عصرئذ ، فيما لا وجود للعمليات الاجتهادية إلّا في اشكالها البسيطة جداً . إن راوياً يسأل المعصوم عليه السلام (هذا أصل؟) فيقره عليه السلام بذلك ، أو أنه عليه السلام حينما يخاطب راوياً بان هذا وأمثاله يعرف من كتاب الله تعالى ، أو أنه عليه السلام حينما يسمح لراوٍ بان يفتي في المسجد مثلاً ، أو حينما يطلع عليه السلام على كتاب في (مباحث الألفاظ) فيقره ، الى آخره ، . . . أمثلة هذه الظواهر لا تكشف عن ان الرواة عصرئذٍ كانوا يمارسون العمليات الاستدلالية بنحوها المعروف ، يدلنا على ذلك عدم وجود مصنفات استدلالية ، وحتىٰ كتب الفهارس لم تشر الى ذلك ، بقدر ما تشير الى مصنفات حديثيّة فيما اصطلح عليه بالأصول ، ومنها ما وصل بأيدينا ممّا هو تدوين للحديث فحسب . . . ولعلّ ما في بعض الأخبار العلاجيّة المشيرة الى التوقف لحين مقابلة الامام عليه السلام ما يدلنا على ان الاصحاب عصرئذٍ يفتون بموجب ما يصل من المعصوم عليه السلام . . . بل إننا لنجد أن الأصحاب حتى بعد صدور الروايات العلاجية واشتهارها لدى الرواة لم يؤثر عنهم ممارسات استدلالية ، لعدم الحاجة اليها في زمن المعصومين ، وإنما بدأت الممارسات الاستدلالية في زمن الغيبة مع الفقيهين المصطلح عليهما بالقديمين (ابن أبي عقيل وابن الجنيد) كما هو واضح . . .

إذن : الأصحاب عصرئذٍ كانوا يفتون بمتن الرواية ومضمونها ، وحيناً يفتون بمسائل عابرة تتصل بقاعدة اليقين أو الحرج ونحوهما ، وفي هذا السياق قد يطرحون الرواية المشكوك بناقلها أو يتوقفون عن الافتاء أساساً . . . خارجاً عن ذلك ، لا وجودَ للفتاوى المرتكنة الى الاستدلال بمعناه المعروف حتى نحمل

قولهﷺ مثلاً في المقبولة : « وبترك الشاذ الذي ليس بمشهور عند أصحابك ، فإن المجمع عليه لا ريب فيه[١] أو قولهﷺ في المرفوعة : « خذ ما اشتهر بين أصحابك ودع الشاذّ النادر »[٢] على الشهرة الفتوائية؟ وحتىٰ مع هذه الفرضية ، فإن التوكؤ على الشهرة القديمة يعطّل عملية الاستدلال طيلة العصور ويحصر نشاط الفقهاء في مسائل محدودة أو مستحدثة ، وهو أمر لا يقرّ بمشروعيته الفقهاء كما هو واضح)[٣].

وقد يأخذنا الحديث بعيداً فيما لو أردنا أن نستشهد بجميع ممارساته الدراسية للحقل الفقهي الذي تكرّس جهوده فيه من خلال نقد مناهج الشخصيات الفقهية البارزة عند مدرسة أهل البيت عليهم السلام ..... النقد الذي يهدف إلى توضيح الفوارق المنهجية التي يعتمدها الفقهاء في حقل الممارسة الاستدلالية وإضاءة مواطن الجدّة والعمق والابتكار التي يتوفّر عليها كلُّ فقيه في تجربته الخاصّة ، ومن الممكن أن نتعرّف على هذا الجانب من نشاطاته التي تمثّل إشراقة جديدة في هذا الحقل بالذات من خلال دراسته التي قدّم بها مسحاً شاملاً لنشاط الدرس الفقهي في مؤسّسة النجف الدينية ، متناولاً بها رموز الدرس الفقهي مثل : الشيخ الطوسي والكركي والأردبيلي وبحر العلوم وكاشف الغطاء والجواهري والأنصاري واليزدي والحكيم والخوئي والصدر رحمهم الله.

فقد توهّج اسلوبه في مطاردة أعمال هؤلاء الفقهاء بنحوٍ مدهش من إمكانيات رصد كلّ ما يميّز تجربةٍ عن أُخرى ومدى تأثّر التجارب فيما بينها جميعاً ، من جانب الأدوات واللغة والمنهجية ومن جانب تأثّرها بالمناخ الاجتماعي العام. وبثقافات العلوم الأُخرى كالفلسفة والعرفان والعلوم الإنسانية الحديثة ، فبعد أن يبرز سمات منهج الشيخ الطوسي رحمه الله التي تشكّل علامات مستقلّة تحتفظ بها ممارساته الخاصّة

---

(١) الوسائل ١٨ ، ٧٥ الباب ٩ من أبواب صفات القاضي الحديث ١ .

(٢) عوالي اللئالي ٤ : ١٣٣ الحديث ٢٢٩ .

(٣) الدروس الشرعية في فقه الامامية ، ج١ ، ص٢٢ ، مقدمة الدكتور البستاني للكتاب .

كخطوطه المنهجية في تعامله مع الأحاديث الشريفة المتّسمة بالإجمال والتضارب الذي يسعى الشيخ الطوسي إلى رفع التباساته الظاهرية (من خلال الجمع العرفي والتبرّع... حيث ينطلق من مقولة خاصّة عُرف بها وهي مقولة : « الجمع أوْلى من الطرح »)[١] التي عقّب عليها الباحث بقوله :

« لذلك يتّجه إلى تأويلات ناجحة في استنطاقه للخبر ، وأحياناً يجنح إلى تأويلات لا يتحمّلها النصّ.. حرصاً منه على مقولته المشار إليها »[٢].

وبعد أن يبرز أيضاً ملامح تأثّر الشيخ الطوسي بالمتقدّمين عليه كالسيّد المرتضى والشيخ المفيد يتابع مناهج المجموعة المشار إليها سلفاً من حيث الالتقاء والافتراء أو التأثّر والاستقلال أو التقليد والإضافات ذلك من قبيل ملاحظاته على الشيخ الكركي من جهة تأثّره بشخصية الشيخ الطوسي كقوله : « وها هو الكركي وهو يكتب رسالته المعروفة بـ « قاطعة اللجاج » فيما يتحدّث خلالها عن الأرضين وما يتّصل منها من الخراج (خاصّة : الأرض المفتوحة) نجده أوّلاً يصدّر فتواه بالإشارة إلى وجهة نظر الطوسي حتى أنّه يكتفي حيناً بتقديم ما طرحه الطوسي من أدلّة دون أن يشفعها بأي دليل آخر ، ممّا يكشف عن مدى هيمنته عليه ، أو لنقل : تقديره لشخصية الطوسي... طبيعيّاً ، إنّ الاستشهاد بالعلّامة الحلّي (بصفته اسماً شامخاً كالطوسي) وكذلك الشهيد (بصفته أُستاذاً) ، يحتلّ مساحة كبيرة من بحثه إلّا أنّها لا تصل إلى المساحة التي يحتلّها الطوسي... بل إنّ هيمنته تنسحب على أدوات تعامله أيضاً ، ومنها : تعامله مع السند ، فهو في تعقيبه على خبر المرسل يقول : « وهذا الحديث وإن كان من المراسيل ، إلّا أنّ الأصحاب تلقّوه بالقبول ». وهي عبارة ودلالة طوسية كما هو واضح)[٣].

---

(١) و (٢) موسوعة النجف الأشرف ، ص١٥ ، ج٧ ، طبعة بيروت.

(٣) المصدر السابق ، ١٨.

وبنفس الخطوات وغيرها يتناول المقدّس الأردبيلي كقوله : « وإذا كان الكركي يتساهل مع السند إلّا ما ندر، فإنّ الأدربيلي على عكسه تماماً، حيث يعنى بالسند بنحوٍ ملحوظ جدّاً، حتّى إنّه ليحرص في مداخلاته واستدلالاته على التقيّد الكامل بمصطلح الخبر وتحديد نوعه ـ ليس في نطاق التوثيق وعدمه ـ بل حتى في العرض العابر مثل...الخ »[١].

ويتابع بحثه بالأدوات والخطوات عينها مع شخصية (السيّد مهدي بحرالعلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء، والشيخ محمّد حسن الجواهري، والشيخ مرتضى الأنصاري، والسيّد محمّد كاظم اليزدي والسيّد محسن الحكيم والسيّد الخوئي والسيّد محمّدباقرالصدر)، والفقيه الأخير (السيّد محمّدباقرالصدر) لم يكتفِ الباحث بدراسة منهجه في الممارسة الفقهية، بل عرّف بشخصيّته وثقافته ليزيد بذلك من قدرة الإضاءة التي سوف يمنحها إيّاه في تحليل منهجيّته، كقوله :

« إنّ الشخصية المذكورة قد عُرفت بتجاوزها تخوم العلوم الحوزوية إلى العلوم الإنسانية : كالفلسفة والاقتصاد والاجتماع والنفس والأدب والتاريخ...الخ، مضافاً إلى درجة ذكائه الذي تجاوزت المنحى المتوسط إلى النبوغ، وقد انعكس هذان الجانبان على لغته الفقهية والأُصولية ولكن في نطاق متفاوت، حيث يجمع بين اللغتين الحوزوية والإنسانية، وإن كان المنهج بعامّة يظلّ إلى الحوزة أقرب منه إلى غيره ...، كما ينطوي على قدرٍ من استخدام المعرفة الإنسانية مثل توكّئه بعض نظريات علم النفس في دراسته الأُصولية عن مباحث الألفاظ... الخ[٢].

والمهم، ان نشاطاته الفقهية، تمتاز بنقاط متنوعة يمكننا أن نلمع اليها بما يلي :

١) حداثة اللغة :

تتسم ممارساته في ميدان الاستدلال والعرض والمناقشة الفقهية بمواكبة

---

(١) المصدر السابق : ٢٢.

(٢) المصدر السابق : ٤٧.

متغيرات العصر بالنسبة لآلية التوصيل المعرفي ، حيث يعمل على توظيف أدوات اللغة المحدثة في حقل المعرفة الفقهية ، مساهماً بذلك في عملية احياء المنابع الفكرية التي استدل عليها المعاصرون أو المثقفون ستاراً بسبب لغتها ذات الطابع القديم .

فمثلاً : نجده يستخدم مصطلح : (الادلة الرئيسة والأدلة الثانوية) معبراً بالأولىٰ ـ الرئيسة ـ عن الأدلة الأربعة المعروفة [الكتاب ، السنة ، الاجماع ، العقل] .

وقاصداً بالثانية ـ أي الأدلة الثانوية حسب مصطلحهُ بـ (الأُصول العملية وغيرها) .

وبوسعنا أن نذكر شواهد على ذلك نحو : قوله ـ في تحديد منهجية الشهيد الأول ـ [ما تقدّم ، يمثّل (تحفّظ) المؤلف حيال الأدلة التنصيصية والعقلية .

أمّا تعامله مع الأدلة الكاشفة عن النصّ كالاجماع (بصفته دليلاً رئيساً أو الشهرة المجهولة في استنادها ، أو السيرة الشرعية بصفتها أدلة ثانوية) ، فان المؤلّف يتعامل حيالها بـ (تحفّظ) أيضاً في كثير من ممارساته][1] .

وهناك الكثير من الشواهد التي يستشف منها جوانب التحديث الاسلوبي ، والتجديد [المصطلحي] بما يوافق أذواق النخبة المعاصرة .

واجمالاً : فانه قد توفّر على لغة محكمة ، ذلك عبر تجردها من الترهل والاسراف والتراكمات المعقدة التي تطبع أغلبية البحوث الفقهية ، بما في ذلك تداخلات وجهات النظر المتضاربة من ناحية الاستطراد الى جانب التشابك القاتم في الاسلوبيات بنحو يُفقد البحوث الفقهيّة جانباً كبيراً من معطياتها الأصلية ، لابتعادها عن آليات المعاصرة وعن خطوط المناهج العلمية وطرائقها المتفق عليها في الاوساط الثقافية عامة .

---

(١) المصدر السابق ، ص٣٤ .

٢) التركيز العلمي :

ونقصد بذلك ابتعاده عن المنهج [البيوغرافي] الذاهب الى دراسة الشخصيّة العلميّة من خلال الأدوار التي مرّت بها مثل : البيئة والتربية والنشاطات والملابسات التي تلفعت بخيوطها العامة ، منطلقاً من وجهة نظر مفادها : ان العناصر المذكورة تنعكس على الشخصيات العلمية بنحو أو بآخر ، في بلورة عبقرياتها ومنحها الاطار المساعد على البروز والنهوض .

بديهياً ان المنهج المشار اليه يحمل مسوغاته الخاصة به ، كما أنّ له مجالاته المعلومة عند ذوي الاختصاص ، لكن : اقحام الحقل ذاته بالدراسات الفقهية ـ كما هو حال الابحاث التي تتدفق بها المؤسسات ودور النشر ـ ضرورة في غير محلها . وهذه نقطة يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار . إذ من المفروض ان تتكافئ عناصر المنهج البيوغرافي مع عناصر البحث العلمي بحيث توظف [البيوغرافيات] من أجل انارة النتائج العلمية التي يدرسها الباحثون . بعكس ما يلاحظ على الكتابات الموجودة حيث تطغىٰ بها الافرازات المذكورة فتضيع نتيجة ذلك ، الومضات العلميّة في دراسة الشخصيات .

لذا تجدنا نضاعف من تثميننا للباحث بسبب ادراكه هذه الحقيقة الهامة حيث عمل في جميع دراساته على استنطاق النصوص واستكناه الظواهر مضافاً لكشوفاته واحكامه النقديّة بصدد تقويم المستويات الفقهية بغية تجلية الحقائق والافضاء الى نتائج تسهم بدورها في اثراء الحقل أعلاه .

وكنموذج على ذلك ، نعرض لجانب من دراسته التي تناول فيها منهجية [الشهيد] في كتابه الموسوم : [الدروس الشرعيّة] حيث جاءت الادوات البيوغرافية على نحو يعزّز من اضاءة الجوانب العلميّة لدىٰ الشخصية المذكورة ، وبنسق يهب الموضوع طابعاً من الجدة والمتانة . . .

يقول الباحث بالصدد ذاته :

(ولد فـقيهنا الكـبير « الشـهيد الأول » فـي قـرية جـبل عـامل ، حـيث الطـبيعة ومناخها ، يسهمان في إكتساب الشخص صحة عقليّة ونفسية وجسمية تفتقر اليها البيئات الأخرىٰ) .

وبعد أن يمرّ سريعاً على ذكر بيئة الفقيه المذكور والاشادة بفضلها كمدينة أنجبت العديد من الفقهاء ، يعود ليقول : (وكان والد فقيهنا الكبير واحداً من سلسلة الفقهاء المشار اليهم ، وهو أمر له إسهامه ـ مضافاً الى المناخ الثقافي العـام ـ فـي التسـريع باستكمال الشخصية لجميع المقومات التي تدفعها الى التوجه العلمي .

ويبدو أن الخصائص الفردية لهذا الفقيه (ونـعني بـها الذكـاء الذي يـتجاوز بـه المستوى المتوسط) قد اسهمت أكثر من العناصر الأخرىٰ في صـياغة شـخصيته الفقهية .

إلّا أن كلاً من البيئة الثقافية العامّة والاسرة ، والخصائص الفـردية تـظلّ عـناصر متفاعلة في الصياغة المذكورة : بغض النظر عن تفاوت درجاتها . . .) .

وقد انعكست هذه التـفاعلات عـلى نشأتـه العـلميّة ، وعـلى تكـوينه الاسـري الجديد ، وعلى عطائه العلمي . . . اما أثرها على تكوينه الاسري الجديد ، فيتمثل في اقترانه بزوجة فقيهة ، وبإنجابه أولاداً فقهاء ذكوراً وإناثاً .

لقد كانت زوجته ـ كما يقول المؤرخون ـ فقيهة عابدة ، حتىٰ أن الشهيد الأول كان يأمر النساء بالرجوع اليها في المسائل .

وأمّا أولاده الأربعة ففقهاء جميعاً بما فيهم ابنته التي كان يأمر الشهيد الأول أيضاً نساء البلد بالرجوع اليها .

ويختم البستاني ترجمته الخاطفة بجانب فاعل من الجوانب التـي امـتازت بـها الشخصية المذكورة ، يقول :

(إذا تجاوز النشاط العلمي للشهيد الأول ، واتجهنا الى جهاده الاسلامي بعامة أمكننا ان نقدر شخصيته التي ظفرت بدرجة الشهادة ، حيث غتم حياته بالاستشهاد على يد مرتزقة السلاطين الدنيويين ممّن سار في ركابهم من علماء السوء الذين سعوا بالوشاية به لدى الظلمة ، وألصقو به تهماً تكشف عن تخلف عقلية أولئك الغوغائيين ممن نصبوا العداء لمذهب أهل البيت عليهم السلام . . .

وبذلك يكون الشهيد الأول قد جمع بين الفضيلتين مداد العلماء ودماء الشهداء ، حينما سخّر مداده من أجل الاسلام وبذل دمه أيضاً للهدف نفسه)[١] .

لقد تعمدنا أن نذكر هذا النص الطويل كي ما يُتاح لنا أن نعطي تصوراً كافياً ، يستشف منه قابلية الباحث على الافادة من المنهج [البيوغرافي] بنحو يتوازن مع هدف الدراسة ، وإلّا فمن الممكن جداً ، ان يستغرق الباحث بالتفصيل عند كل محطة قد عرض لها .

٣) الموضوعيّة الجادة :

من الظواهر الملفتة ، في تناولاته الفقهيّة ، ظاهرة التجرد والحياد ، أو ما يصطلح عليه بـ(الموضوعيّة العلميّة) حيث تتضح السمة أعلاه مضفية على خطه المنهجي لوناً بارزاً .

ان شخصيات من قبيل : (سلّار ، الكركي ، العلامة الحلّي ، المقدّس الأردبيلي ، الشهيد الأول ، . . . وغيرهم) ، تعدّ في قمّة المستوى العلمي والرياديّ وعلىٰ جميع أصعدة النشاط المورثوي مما يجعل البعض يعزب عن ملاحقة نتاجاتها إلّا في صعيد الاشادة والتعظيم وكثيراً ما يحاول البعض أيضاً ، عند ملاحظته لنوع من المفارقات التي وقع بها بعض الشخصيات الموروثة أن يلتمس لها مختلف التبريرات ظنّاً منهم بان كشفَ ذلك ، يقلّل من خطورة مركزها العلمي .

---

(١) مقدّمة كتاب الدروس الشرعية للشهيد الأوّل الذي تولّى طبعه مجمع البحوث الإسلامية في مشهد ـ ايران.

أقول أن ذلك كله : لا يحتجز البستاني من تسجيل ملاحظاته النقديّة حيال الشخصيات المتقدم ذكرهم أعلاه بالنحو الذي عرضنا له في موضوع العلامة الحلي وملاحظاته على كتابه .

أنه يتعامل مع الحقائق بموضوعية تامة ، مسقطاً من حساباته كل ما يقف عائقاً أو حائلاً بوجه الكشف الموضوعي والتقييم الجاد .

٤) السّعة والشمول :

تجيء سمة الشمول والاستيعاب في مقدمة السمات والظواهر التي تطبع ممارساته عامة . . .

ولا نطيل الوقوف ، فان في [الورقة] التي قدمها الباحث مؤخراً ـ لموسوعة النجف الأشرف ـ ما يكشف بوضوح تام ، علىٰ شمولية بحوثه وجدتها الفائقة ، حيث حاول الباحث في ورقته المشار اليها ، استعراض تاريخ المؤسّسة المرجعيّة منذ تأسيس لبنتها الاولىٰ وحتىٰ فترتنا المعاصرة . كما حاول ان يرصد لعناصر التطوير لكل شخصيّة وما أفادته المتأخرة عن المتقدّمة ، فيما حاول أيضاً كشف اللمحات الرياديّة عبر وقفات عميقة تُثير عند القارئ الدهشة والاعجاب .

وبعامة ، فانه ومن خلال الزاوية نفسها ساهم بتحريك المناخ التراثي وتسخين عمليات الاحياء لذا لا تجدنا مبالغين فيما لو قلنا أنه احدى الشخصيات التي أثبتت عبر نشاطاتها المتعددة ، باستكمالها لأدوات الحقل الفقهي وبنحوٍ لا يدع للآخرين مجالاً للجدل والنقاش .

وفي نهاية مطافنا الفقهي ، أجد من الضروري ذكر بعض الحقائق المتعلقة بالحقل المذكور . فلقد وقفت ـ شخصياً ـ على مسودات دورته الفقهية التي تتضمن أغلبية أبواب الفقه باستدلال واضح وبلغة مشرقة حيث تسهل للجميع اليه الممارسة الاستدلالية ولولا ضيق الوقت لعرضت لبعض نماذجها . بغية التوقف على نوعياتها .

الفصل الخامس

الوعي العبادي

الوعي العبادي

من الطبيعي ، أن تتمايز الأساليب أو المناهج فيما بينها ، ومن الطبيعي أيضاً ، أن نجد فوارق بين باحث وآخر في طريقة معالجته للقضايا التي تمتدّ يده إليها فالفارق أو التمايز في اطار البحث والدراسة يحمل مسوغاته الخاصة به .

بيد ان المهم ، ان نلحظ مدىٰ تمسك الباحث بجوهريّة خطوطه الايدلوجية ، ودرجة تفعيلها بممارساته الكتابية اذ المائز المهم يظلّ في مراقبة المبادئ التي يتحرك من خلالها ، مما يقربه نحو دائرة الايجاب أو بالعكس ، فترتسم نتيجة ذلك أعماله بصبغة معينة وبنمط ذات طابع ملحوظه .

في ضوء هذه الإشارة الخاطفة : يتسنىٰ لنا ـ ونحن نتابع منحنيات دراستنا هذه ـ ان نلج باباً تكمن خلفه خصوصيّة حساسة جداً ، بحيث تلقي مزيداً من الاضاءة علىٰ ملامح (الخطاب المعرفي) الذي توفر عليه البستاني .

الخصوصيّة المشار اليها ، تتمثل في مديات (وعيّه العبادي) وانعكاساتها الواضحة على ما يترشح عقله به من عطاء نفاذ ، بمعنى آخر ان الموقف الفلسفي حيال ظاهرة (الايجاد) أو الخلق ، يظلّ امراً متزاوجاً ومنعكساً في نفس الوقت مع أي ممارسة علميّة ، يخوضها الباحث .

ان المتوفر على قراءة نتاجاته ، يتحسّس بحضور مبادئ السماء في جنب المعرفة التي يتناولها بالدراسة أو التحليل النقدي .

فإن ومضات من قبيل : (حيث تظل (المعرفة الاجتماعية) جزء من المهمة العبادية التي اوكلتها السّماء الى الانسان ، لدىٰ الباحث في علم الاجتماع الاسلامي مما يترتب على ذلك ان تتحدد امامه مهمته العلميّة بوضوح وان تتحدد رؤيته للواقع الاجتماعي ومشكلاته بوضوح ايضاً مادام الباحث في الاجتماع الاسلامي . . .)[١] .

(لكن دون ان يعي هذا الباحث أو غيره الدلالة العبادية لهذه المعايير ـ كما قلنا ـ بسبب عزلته عن السماء ، لكنها ـ أي المعايير الموروثة ـ تُعدّ مؤشراً الى ان الطرح العبادي للظواهر الاجتماعية لابدّ ان يكتسب معنىٰ (البديل) الذي نحاول اسلامياً ان نعرض له)[٢] .

ونتابع في حقل آخر : (والسّر في عدم التزامنا بمناهج البحث الأرضي هو : ان البحث الأرضي منفصل عن السّماء في تفسيره للعمليات النفسية وتنظيمها ، أنه يتسلم الكائن الآدمي : (بما هو أنه موجود فعلاً) لا بما أنه كائن أبدعته السّماء واناطت به مهمة الخلافة في الأرض . . . ان مفهوم (الوظيفة العبادية) أو (الخلافية) يظل الأساس الرئيس في تفسير العمليات النفسيّة وتنظيمها مادامت السماء تقرر بوضوح ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وهذا يعني ان (الخلافة) أو العبادة متمثلة في (الأحسن من العمل) هو الهدف الذي تنشده السماء في صياغتها للعمليات النفسيّة)[٣] .

وفي صعيد آخر يقول :

(ان الأرضيين (وهم في عزلة عن السماء) لا يعون من الحياة ، إلّاكونها مساحة محددة من العمر لا ينبغي ان توظف من أجل اشباع الحاجات العابرة للانسان . . . امّا

---

(١) الاسلام وعلم الاجتماع الدكتور محمود البستاني ، ص١١ ، طبعة بيروت .

(٢) المصدر السابق ، ص١٥ .

(٣) الاسلام وعلم النفس ، الدكتور محمود البستاني ، ص٩ ، طبعة ايران .

لماذا وجد الكائن الآدمي ، وما هي مهمته من الحياة ، وما صلته بالمبدع ، وباليوم الآخر . . . فامر بجهله أدباء الأرض تماماً . . .

ان ما ينبغي ان نقرره بحسم هو : ليس السؤال عن (توظيف) الفنّ بل ينبغي استبداله بسؤال آخر هو : ما هي امكانات (الفنّ) : في تحقيق المهمة العبادية التي خلقتنا السماء من أجلها . . .)[١] .

أقول : يتضح من الايماءات المتقدمة ـ وهي كما لاحظنا متناثرة في عدة حقول معرفية ـ فاعليّة الوعي المذكور في صوغ الخطاب الاسلامي بوجه عام تتضح بالخصوص عند باحث اسلامي ، بَرَعَ في بلورة تجربته مما جعلها تزداد ايجابيةً وتتصاعد معرفةً بمبادئ الله . . .

كذلك ايضاً فان الاشارات السالفة تقتادنا بوضوح الى فهم عدة مفهومات ، جاءت نتيجة الوعي العبادي .

بكلمة ثانية : ان الالتزام العميق في تقديم ما هو موافق لرغبة السماء ، قد استتلى ارتسام بعض الايجابيات في خطاب الباحث والتي يعدّها الناقدون في الوقت المعاصر ضمن لائحة الابداع والاصالة . نلمح اليها بشيء سريع :

ابتكاريّة الطرح :

تعدّ ابتكارية الاعمال ، احدىٰ أهم السمات التي ترتفع بالأديب أو المفكر متألقاً في أُفق المعرفة الانسانية ، بل تمنحه بطاقة الذيوع والحضور المحفوفة بهالة التثمين ، مضافاً الى دخولها في نطاقات التخليد .

ومن الزاوية التحليليّة : فان الابتكار يظلّ في أوسع دلالاته ضرباً استثنائياً ، لا يُتاح إلّا لخواص النخبة المتضلعة بقضايا الفكر والأدب . . . مما يتطلب من الشخصية

(١) الاسلام والفنّ الدكتور محمود البستاني ، ص١٠/ ١٣ (ايران ـ مشهد) .

المبتكرة ان تبذل جهوداً مكثّفة في توليد معمّقة بحيث تسجّل إثراءً نوعيّاً ، يسهم في تطوير البناء المعرفي وترشيد العقل البشري .

يُضاف الى ذلك : ان الابداعات عامة ، وان كانت حصيلتها تنصبّ فيما هو ايجابي ، إلّا أنها قد تختلف منطلقاتها بين باحث وآخر من حيث كونها تحوم حول اشباع رغبات ذاتية أو منطلقة من الترف الفكري المنعزل عن الحاجات الماسة موضوعياً وجوهريّاً .

ومن الحقائق الثابتة اسلاميّاً ـ ان ظاهرة الابداع تنصبّ في كونها هدفاً عبادياً محضاً .

ومثالاً على ذلك : (الباحث الذي حاولنا دراسته) فانه يصدر في ابداعاته من وجهة فلسفية حيال كل ممارسة ـ سواء كانت ثقافيّة أو سلوكية ـ مما يضفي على مضموناتها نمطاً من التحسّس بالجدة والخلوص .

والواقع : ان هذه النظرة انسحبت عليه من خلال (الوعي) المشار اليه . إذ الأعمال التي تستحق ان يكتب فيها ـ في تصوره ـ ينبغي اتصافها بالجدّة وعدم التكرارية فالممارسة المكرورة ، فضلاً عن وصفها بـ (العبث) المنهي عنه عبادياً فهي لا تنطوي على معطىً يستحق ان يتلف الانسان أوقاته ازاءه .

وتقويمياً ، نقول : أن الباحث قد التزم بهذا المبدأ بالذات فالملاحظ ان أعماله ـ كما يوافقنا على ذلك أكثر من باحث ـ قد جاءت متوسمةً باللّمسات الابتكارية والاشعاعات التأسيسية ، ففي حدود ما تمكّنا من رصده . وجدنا ان ثمة تبايناً في الحقول التي توفر عليها ـ البستاني ـ والآخرين . إذ جاء الأول معبراً في أعماله عن مشروع اسلامي أصيل ، يعتمد على منهجية محكمة في طرح وصياغة التصورات الى جانب توخي الدقة والتركيز في نقد الطرف الآخر مع حرصه الصميمي على ابراز الهويّة الاسلامية ناصعة الابعاد في خضم السّجال المحموم .

والجدير بالذكر : ان أول محاولة تاسيس قام بها البستاني تلك التي يعود تأريخها الى ما يقارب الربع قرن من الزمن ، ففي بداية عام (١٩٧٠م) وعندما شغل [كرسي] النقد الأدبي في كلية الفقه بالنجف الأشرف ، حينها وجد أن الموقف الشرعي يحتم عليه ان يقدم مادةً تتناسب مع تصورات الاسلام .

فكتب في النقد الأدبي وفي مبادئ البلاغة الجديدة كما كتب في دراسة التأريخ الأدبي . . . وكلها وفق المنهج الاسلامي الخالص . . .

واستمر بعدها في مشروعه التأسيسية الموسع وكما عرضنا له في حينه . . .

اللغة التوصيليّة :

تجنباً من الوقوع في جدلّيات [الاسلوبية] الصاخبة ذات المظهر الأخطبوطي ، وانسجاماً مع الموضوعيّة في بعض منحنيات النقد الايجابي .

ينبثق السؤال الآتي :

ما هو الهدف الحقيقي في ممارسة النشاط الثقافي؟!!

والجواب : على حدّ ما أعتقد ، هو : الاسهام في تعديل السلوك الانساني العام ، من خلال تقديم الرؤى الحضارية القادرة على بناء مجتمع يعيش حالة من النضج التطوري .

ونعود لنسأل من جديد : عن ماهيّة آليات التوصيل ، بمعنىٰ : كيفيّة تفعيل المبادئ مع الآخرين؟

وبديهياً : ان ثمة قنوات متعددة بالغرض ذاته ، إلّا أننا حينما نحاول قراءة الآلية الثقافية بصفتها العنصر الأساس في تعديل السلوك نصطدم مع واقع معقد تغيبُ فيه الجدّة والواقعيّة في تحقيق المطمح المذكور .

إذ يُلاحظ على النتاج الثقافي والفكري معاً سمة الغموض والتحليق في آفاق

مضببة ، بحيث تتشابك الدلالات على القارئ الممتاز فضلاً عمّا هو متوسط أو عادي ، بسبب غيمومة السياقات القاصرة على تقديم الخطاب الفكري بشكل ينسجم مع تفاعل المتلقي .

والسبب يعود مع بدأ الانفتاح الفكري أي الى نقطة الوقوف على نتاجات الطرف الآخر وبخاصة مع العقود الثلاثة من القرن الحالي ـ الستينيات ، السبعينيات ، الثمانينيات ـ حيث اعتمد الطرف المذكور في خطابه المعرفي على ضبابية اللغة وتناقض الأسلوب ، كما توكأ على الرمز في الاشاره على مفهومات معينة ، فامر حدث نتيجة التلاقح أو بالاحرىٰ : وفود نتاجات الطرف الآخر بزخمٍ مذهل عبر الترجمة والتعليم ـ أن قام جمع من الشخصيات النخبويّة ذات الهويّة أو الانتماء الاسلامي ، في مثل الخطاب الآنف ومجاراة طرائقه في الطرح والتثقيف . لذا برز على السطح الثقافي في أوساطنا بخاصة (خطابان) معرفيان يختلف أحدهما عن الآخر . خطاب تقليدي يمتدّ مع اسلوبية (الموروث) بتفاوت قليل من جهة اللغة .

وخطابٌ يتعامل مع شريحة محدودة ، إذ اعتمد على نمط خاص في صوغ المعرفة .

ونتيجة لهذين الاتجاهين . . . فقد لوحظ ان ثمة انحساراً في متابعة الكتابات المنتمية الى الخطاب الموسوم بالحداثة والتجديد ، كما لوحظ ايضاً انخفاض في تقبل ترشحات انحطاب الموروث الذي تمثل دوره شخصيات متعددة لا يمكن تجاهلها أو التقليل من فاعليتها .

من هنا : فقد انبرى البستاني في معالجة هذه الاشكالية الملحة برسم خطوط تتبلور من خلالها معطيات التجربتين . منطلقاً في ذلك من صميم الوعي العبادي المذكور .

ركز البستاني على مفروغية التوفر الجاد على لغة ذات نسق عصري ، بيد أنه شدّد

من عملية التحفظ خشية الوقوع في شباك التغريب ، ولكي تتضح الرؤية نحاول ان نعرض لنظراته بشيء من التفصيل :

يقول : (سلفاً ينبغي ان نفترض مفروغية الكتابة بلغة العصر مادام العقل يفرض علينا ان نقوم بعملية توصيل المبادئ الاسلامية الى الآخرين. ومن ثمّ لابد من مخاطبتهم باللغة التي يفهمونها ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . . ﴾.

ان التصور العلماني للحياة قد يفرض على كتابه أمثلة هذه اللغة (التغريبية التي تتساوق مع طبيعة حياتهم المنعزلة عن مبادئ السماء . . . إنّهم يمارسون ترفاً فكرياً يتناسب مع عبثية حياتهم . . . أو يمارسون [لغة] تتوافق مع تصوراتهم اللاّمعقولية معقولية الحياة منعكسة على (لا معقولية اللغة) أيضاً أو يمارسون [لغة] تتسق مع الظاهرة المرضية (التأكيد على الذات من خلال بحثهم عن « التقرير الاجتماعي » الخاص بـ (النخبة) المثقفة . . .) .

اما نحن ـ بصفتنا اسلاميين ـ فيتعين علينا أن لا نسمح لانفسنا بمثل هذه (التبعية الذليلة) لشرائع بشرية منعزلة عن السماء ومبادئها . . . بل يتعين علينا أن نكتب بلغة (توصيلية) تتوافق مع مهمتنا العبادية في الحياة مع الأخذ بنظر الاعتبار كلاً من (حداثة اللغة) من جانب وتطبيعها بالسمة (الاستقلالية) من جانب آخر ، بحيث تكون لِلغة الاسلاميين ، خصوصية تماثل خصوصية الفكر الاسلامي نفسه ، على نسق ما نجده من خصوصية لغة القرآن الكريم ونصوص المعصومين عليهم السلام مضافة بطبيعة الحال الى توفر عناصر الفنّ اللغوي من جانب ثالث . . .) .

كما طالب البستاني كذلك . . . الكتاب الاسلاميين بالانسلاخ عن عملية استخدام [المصطلح العلماني] . . . [وان يتوفروا على صياغة مصطلحات تتناغم مع التصور الاسلامي للحياة . . .] [1].

---

(١) الفكر الاسلامي (مجلة) العددان الثالث والرابع ، ص٧.

اقتصاديّة اللغة :

لا زلنا في اطار الحديث عن الآليّة اللغويّة ـ الخطاب من جهة اللغة ـ حيث تبرز ظاهرة [الاقتصاد اللغوي] مفصحةً عن الوعي المذكور من جانب ، ومعربة عن فاعلية الممارسة المتوفر عليها في مجال [التوصيل] من جانب آخر .

بدءً ينبغي التأكيد أو الاشارة إلّا أن الظاهرة المشار اليها ، عرضّت البحث لشيء من النقد الذي يفرض النظر والنقاش .

تحوم [اقتصادية اللغة] على القدرات المركزة في توسّل الباحث بالاداة المحفزة على تنشيط عمليّة الاستجابة ، عبر توظيف المفردة في تفاعل المعرفة ، وتهيئة المناخ الفكري المعتدل . . .

والمُلاحظ ، أنّ ذلك يتم من خلال التخطيط الواعي في انتخاب جزئيات الاسلوب المحكم واختزاليّة التركيب المنطوي على المتانة والنفوذ .

إذ ان الاساليب المهلهلة أو المطبوعة بفجاجة التجربة ، تصنع حواجز غليظة ، بين الفكرة ومتلقيها مما يشكل عرقلةً حادة في عملية التفاعل المنشود .

والواقع ، ان الشخصية الاسلامية وهي تعيش في غمرة الممارسة الثقافية ، يتعيّن عليها ان تكون متناغمةً مع ملامح هويتها الفائقة ، بل يُفترض ان تأتي بأكثر من دلالة أو مؤشر ايجابي في نشاطاتها الكتابية ومنها الاتصاف بـ [الاقتصاد] المذكور .

فثمة من يتسائل بالحاح ، عن المسوغ في كتابة صفحات ملأئ بالحشو والكلمات الفضفاضة بينا من الممكن ، اختصارها بمساحة أصغر من حيث الحجم والنوع ، شريطة ان يرهق الكاتب [عصبه] لتقديم ما هو أفضل وأجود . . .

والملفت ان كثيراً من الكتاب الاسلاميين ، يختل توازنه أثناء عملية الانتاج ، فتتلاعب به السيقان يميناً وشمالاً ، حتى ليخرج عن دائرة الموضوع ، دون ان يرسو على مرفأ الفكرة المراد توصيلها الى المتلقي .

ونقف مع البستاني عند هذه الخصيصة بالذات . لنلاحظ كثافة وعيّه الحاد في تضخيم معطيات الظاهرة اللغوية المشار اليها ، وتجسيدها فعلياً عبر ممارساته . . . فهو يصدر في اسلوب خطابه المعرفي ، من حيث البناء الخارجي له ، عن نص اسلامي ذات قيمة فائقة ، يخبرها المعنيون بعلم [اللّسانيات] المعاصر . لذا لا تجدنا بحاجة للدخول مع ممن أسلفنا في ذكرهم ، حيث يطالبون البستاني بالتبسيط والترسل و . . . الخ .

ان النص الاسلامي المذكور أي النصّ للإمام الصادق عليه السلام يلقي المزيد من الاضاءة الموضوع ذاته إذ يحدد لنا النص ، نجاحية الأعمال عبر توفرها على هذه النقاط الآتية :

١ ـ التقرب من معنى البغية .

٢ ـ الابتعاد عن حشو الكلام .

٣ ـ الدلالة بالقليل على الكثير .

وخاصةً أننا نعلم سلفاً ، ان البلاغة حسب التعريف الاسلامي لها : [التعبير عن الشيء بأقل ما يمكن من العبارات] .

والجدير بالذكر : ان الكلام عن الاقتصاد اللغوي ، لا يعني بالضرورة الغاءً لفاعلية [الاسهاب] أو [التبسيط] فليس من شك ان للاسهاب في بعض الموضوعات ، متطلبات ملحوظة ، لا يمكن اغفالها أو الوقوف حيالها بسلبية ، وهذا ما لم يغفل عنه البستاني : [إلّا أن بعض الموضوعات ، تتطلب عدم الاقتصاد ، بل العكس من ذلك تماماً انها تتطلب مزيداً من التوضيح ، ومزيداً من التكرار : لغرض تعميقها في الاذهان وجعلها مؤثرة على المتلقي] (١) .

ويضع الباحث باصبعه على نقطة مهمة جداً ، حيث أشار الى ما قد يحصل من

---

(١) القواعد البلاغية في ضوء المنهج الاسلامي ، ص١١٤ ، الدكتور محمود البستاني .

المفارقات جراء عمليّة الاقتصاد أو الاسهاب ، فيقول : [ينبغي لفت النظر الى ان لكل من الاقتصاد والاسهاب حداً ، إذا تجوز حينئذٍ يفتقد بلاغته . فالاقتصاد اذا بلغ حدّه ، تحول الى كلام مخلّ وناقص لا يحقق هدفه المطلوب .

والاسهاب إذا بلغ حدّه ، تحول الى حشو وفضول وزوائد لا فائدة منها] (١).

بقي أن نلمح الى أنّ : الخطاب المعرفي الذي افرزته تجربة البستاني كان يقع ضمن تخطيط مدروس تتواشج في نسجه أكثر من أداة ، حاولنا فيما مضى ذكر قسم من نماذجها وتركنا الجزئيات الاخرىٰ لذا فأنه يمثل ، تجربةً متكاملةً ذا اسلوب ، يتسم باعتماده الدقة والخبرات العلميّة في توصيل المعرفة بشتىٰ مستوياتها ومختلف تخومها الى المتلقي ، مما يجعل القارئ أو المتابع يتحسّس بنكهة خاصة وتميز واضح فيما لو حاولنا مقارنتها بأعمال الرموز الاسلامية الآخرىٰ .

وهي بعدُ ذلك كله : أصداء حيّة لوعيه العبادي المذكور .

التجربة الروحيّة وانعكاساتها الثقافية :

نضع بأيدينا عبر الموضوع أعلاه [التجربة الروحية] في مركز دائرة الضوء التي ، تضاعدت بشخصية البستاني روحيّاً وسلوكياً ، فالتهبت نتيجة ذلك أعماله وكلماته ومواقفه . . . بعبق المعرفة الالهية ولفحِ توهجها . . . حيث عايش تجلياتها وما تكتنزه من دقائق بعمق وصفاء وكدح سلوكي يتحسّس أبعاده كلّ من تذوق حلاوة ذلك الطريق . . .

على أية حال : أضفى البستاني على حقول الفكر والمعرفة التي تطرق لموضوعاتها ، زخماً من الرؤى الروحيّة المعبّرة عن خصوبة وفاعليّة المعطى الاسلامي ، بنظراته الواسعة ، للكون والانسان والحياة وعلاقة كل ذلك ، بالمبدع العظيم . إذ ألمح من خلال ومضاته التي نثرها باتقان على جميع نشاطاته المتعددة

(١) المصدر السابق ، ص١١٥ .

[كيفيّة] الانشداد الحيّ بين الذات ومبدعها أو بالاحرىٰ لقد أعطىٰ بسمته المذكورة، نموذجاً واقعيّاً، للصيغة الثقافية ذات الانتماء الاسلامي الرفيع.

اننا لنجد في قراءة نتاجاته، حالةً من التصعيد الروحي، تشعرنا بمناخ من الخشوع والشفافيّة التي نجدها أو نحظىٰ بها في لحظات التعبد والانقطاع.

أنه مذهل حقاً، حيث تتحول عنده الاشياء جميعاً الى مفهومات عرفانيّة بحتة، حتى في تناوله لبعض الجوانب العلميّة الصرفة فإنها تخضع لرؤيته المشار اليها.

خذ على سبيل المثال: دراسته الفقهيّة المتعلقة بالمقدس الاردبيلي(١) حيث أرجع مركزيات الأردبيلي؛ في ممارساته الفقهيّة من قبيل: الاحتياط وظاهرة السهولة واليسر في بعض الموضوعات وتعامله مع الاجماع والمشهور والاصول العملية... الخ الى ماكان يتمتع به المقدس الاردبيلي، من ملكات روحيّة وسمات تتناسب وضخامة الشخصية العارفة أو [التقوائية] وهنا ـ يحسن بنا ـ أن نعرض لبعض النماذج التي يستشف منها أنفاسه الروحيّة المنعكسة على نشاطه الثقافي، علماً بأننا سنقف مع البستاني طويلاً في حوار حول الموضوع بأكمله.

والواقع، ان عملية تفعيل الجوانب الروحية في ممارساته لا تنحصر في نوع معين أو جانب خاص، بل تأخذ أشكالاً متنوعة، بحيث ينفذ نحو أهدافه المخطط لها سلفاً عبر زوايا متعددة...، فتارةً من زاوية أدبية واخرىٰ فنية وثالثة فكرية محضة... وبالوقت الذي يتطرق فيه لعناصر الفنّ ومعطياته في النص الذي يتناوله من الزاوية النقديّة، يطالعنا بنفحات [تقوائية]، تسهم في جمالية التذوق الفنيّ المنطوي عليه النص ذاته. وكذلك فانه يكشف ـ أيضاً ـ في خضم محاكماته للاتجاهات الأرضية، فيما يتعلق بالحق النفسي عن كنوز روحيّة غفل عنها الباحث

(١) الدراسة المشار اليها بعنوان، المقدس الأردبيلي عارفاً وفقيهاً قدمها الباحث ضمن ورقة المؤتمر الدولي المنعقد من أجل تكريم الأردبيلي في ايران، صيف ١٩٩٦م.

الأرضي في حين أكدت عليها السماء .

خذ على سبيل المثال : ما جاء في تناوله للقصة القرآنية الكريمة وبخاصة « قصة مريم عليها السلام » فبعد ان ألمح لعناصر القصة الفنية من حيث تطابقها مع أحدث الاتجاهات في حقل القصّة المعاصرة ، يقفز بنا الى سياق يزدحم بالايحاءات والاشارات الروحية ، يقول تحت عنوان بيئة القصّة : (البيئة التي تتحرك أحداث القصّة من خلالها هي : المحراب والنخلة ... فالمحراب ، أو المكان المهجور ، أو المكان الشرقي : يجسّد مكاناً أبرزُ ما فيه هو : العزلة عن الآخرين والابتعاد عنهم .

بيد أن هذا المكان ، يحفل بامكانات معطاء ، لا تقاس بالامكانات التي يفرزها المكان العادي :

فالمكان العادي قد يحقق للشخصيّة قدراً من الاشباع لكل من الدافعين : الانتماء الاجتماعي والتقدير الاجتماعي . لكنه لا يُقاس بضخامة الاشباع الذي تحققهُ (العزلة) في (المحراب) إنها . أي : العزلة ـ تعوض الشخصية عن انتمائها الى الآخرين ، انتماءً الى الله سبحانه وتعالىٰ .

وتعوضها من التقدير والحبّ اللذين يمنحهما الآخرون ، بتقدير يمنحه الله ... فالآخرون أيّاًكانوا ـ يظلّ تقديرهم وحبّهم محدوداً بقدر محدودية الانسان نفسه من حيث قدراته المحدودة في العطاء .

وهذا على العكس من السماء التي لا حدّ لعطائها .

ان البشر العاديين هم الذين يحسّون بالحاجة الى الانتماء الى مجتمعاتهم . إما الصفوة البشرية فهي التي تنطفأ لديها مثل هذه الحاجة حيث يعوضونها بالحاجة الى الانتماء الى (الله ...) من هنا تحقق العزلة عن الآخرين والاتجاه نحو الله أشباعاً للشخصية لا حدود له ، من خلال احد رموزه وهو : المحراب ، أو المكان المهجور ، فان المحراب أو المكان المهجور من حيث دلالاته العباديّة يمثل وعاءً يحتشد

بالعطاء والامتلاء على العكس من دلالته الاجتماعيّة التي تمثل العزلة والفراغ)[١] .

ان أدنى تأمل في منحنيات النص المتقدم ، يقتادنا الى الوثوق بـوجود تـجربة فعليّة يحياها الباحث ، بحيث انفجر في تعامله مع النـصّ مـعبراً عـمّا تـنطوي بـه أعماقه . . . وما يختزلهُ (اللا شعور) عبر إرهاصات التـجربة . . . وحـظور التـجريد العميق . . .

ويقول في تعامله مع قصّة اخرىٰ :

(. . . والمهم إن إبهام هذه الشخصيّة أو اخفائها [٢] عن الآخرين ، يدلنا على انها لم تُعن بما تُعنى به الشخصية الأرضيّة . . . وواضح ان التأكيد على الذات ، والتعريف بها أمـام الآخـرين ، ومـنه : التـقدير أو الثـناء أو المكـانة الاجـتماعية التـي تـتطلع الشخوص اليها ، يعدّ من إبرز (مظاهر) الزينة الدنيوية التي يُعنىٰ بها الآدميون . فإذا ألغت الشخصية هذه الحاجة الى معرفة الآخرين بها . . حينئذٍ نستكشف بوضوح ، أن هذه الشخصية قد ألغت الحياة وزينتها من الذاكرة تماماً ، وتمحضت في نشاطها العبادي لله وحده)[٣] .

ننتقل في عرضنا للنماذج الى زاويّة اخرىٰ ، ونحدّد بالذات حقل التربية أو النفس الذي يحتشد بالدلالات المذكورة ، جاء في أحدى السياقات : (. . . إما إذا نقلنا هذه الظاهرة الى السماء ، حينئذٍ فان إمكانات السماء التي ابدعت الأرض ومن عليها ، تظلّ بلا حدود من حيث عملية التقدير المتبادل ، فالشخصية التي تمارس الصلاة عندما تنتبه الى أنها واقفة حيال مبدع الأرض ، حينئذٍ فان (الدافـع الى المـعرفة لديـها)

---

(١) دراسات فنية في قصص القرآن ، ص٣٤٣ ، الدكتور محمود البستاني .

(٢) المقصود بالشخصية المجهولة أو الخفية . . . هي صاحبة موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ (سورة الكهف ، الآية ٦٥) .

(٣) المصدر السابق ، ص٣١١ .

سيتجه الى السماء بنحوٍ لا يضارعه أي توجه آخر... وبالمقابل، فان هذه الشخصية حينما تنتبه الى ان (المبدع) متوجه حيالها، وأنه (يثمن) وقوف الشخصية، والى أنه لا يملّ من محادثتها بصفة ان الشخصية مهما أكثرت من ممارسة الصلاة وطالت الوقوف بين يدي الله، حينئذٍ فان (تقدير) الله) يزداد حيالها بعكس الشخصية الأرضية التي تمتلك طاقات محدودة من الاستعداد لمقابلة الشخص الآخر ومحادثته بحيث يدّب إليها عنصر الملل بقدر طول المقابلة والمحادثة بينهما [١].

ونختم عرضنا للنماذج، بهذين النصّين الدقيقين:

يقول: في تعليقه على أحد النصوص الأدبية ـ (ان الوصول الى معدن العظمة لا يتأتىٰ إلّا لمن محضّ كل تحركاته لله تعالىٰ وأفنىٰ كلّ جوارحه تعاطفاً ومعايشةً ووجداً مع الله تعالى)[٢].

والنص الأخير: (... ولعلّ المعطى الدنيوي الذي تفرزه بعض درجات (التقوىٰ)، تتمثل في إمكانية ان (تخرق أبصار القلوب حجب النور) فتتعامل مع قنوات الغيب)[٣].

كانت هذه الاشارات السريعة مجرد اضاءة خفيفة أو اثارة في طريق التحفيز لما هو أشمل وأعمق من حيث البحث والنقاش... بهذا الجانب خاصة.

جلسة الاثنين:

يعود تأريخ هذه الجلسة، الى فترة بعيدة، تتجاوز (الربع قرن) وهي، في شكلها العام، نمط تربوي أصيل، يتكفل بتعديل السلوك واشباع الحاجات الروحيّة، كما يشكّل محطة يراجع بها الافراد أنفسهم بالنسبة الى علاقاتهم مع الله والآخرين.

---

(١) دراسات في علم النفس الاسلامي، ج٢، ص٢٩٢، طبعة بيروت، د. محمود البستاني.

(٢) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي للباحث، ص٢٣٨.

(٣) دراسة للباحث بعنوان المقدس الأردبيلي عارفاً وفقيهاً.

وهي بعد هذا وذاك أحدى مظاهر الولاء لأهل البيت عليهم السلام حيث يبدأ البستاني جلسته، بانتخاب النصوص الأخلاقية من الكتب الحديثية المعتبرة في هذا المضمار، متعرضاً لوجهات نظر الحضور، ومحدّداً لهم، نقاط العمق التي ينبغي أن يحوم النقاش حولها. وكثيراً ما يحدث جراء ذلك اختلاف في وجهات تذوق (الشخوص)، ويحتدم الجدل فيما بينهم، علماً ان الحضور جميعاً ممّن لا نتحرج في خلع سمة (النخبة) عليهم، فهم بين استاذ حوزوي أو كاتب اسلامي...

فيثب البستاني من بينهم حاسماً الموقف بتفسير صائب للنصّ المناقش فيه، وبحذاقة يستجيب لها جميع الجلساء، فيحدث التوافق، لتنطلق الجلسة (بنصّ) آخر.

والجدير بالعرض، ان البستاني ـ من خلال عملية قراءة النصوص ـ يلتقط من الأحاديث مالهُ مساس عمليّ بسلوك أحد الوافدين لجلسته دون ان يشعره أو يشعر الآخرين بقصده، بحيث يبدو للجميع بان العملية عفويّة، ليمرّر من خلال النص الذي يُطرح أرشاداته وتوجيهاته الى الشخص ذاته، وبصورة لا تُثير حساسّية الطرف المقابل أو تعرضه للاحراج و التشهير.

ولشدّة حرصه والتزامه بجلسته هذه، فقد حدثني يوماً، بأنه أقام برنامجها المعتاد ـ النصوص الاخلاقية وذكر مصيبة الحسين عليه السلام في قاعة أحد المطارات خشية أن يفوته الوقت.

كما قال: ـ لي أيضاً ـ (لقد علمتُ بعد مجيءٍ من لندن[1]، بأن جلستنا الاسبوعية، قد أصبحت [سنّة] بين جمع من أصحابنا هناك، حيث أُسسّت على اثرها عدّت جلسات وبنفس النمط المتّبع في جلستنا...

---

(١) كان الدكتور قد سافر خريف ١٩٩٥م الى لندن إثرة دعوة رسميّة وجهتها له: (الجامعة الاسلامية في لندن من أجل تقديم برنامجٍ دراسيٍ على طلابها).

وبكلمة منصفة : فان الجلسة المتحدث عنها ، اطلالة صادقة على عالم النفس ، ودعوة موفقة نحو التصاعد الروحي بغية تحقيق الهدف العبادي المشود .

وهي بعد ذلك كله ، مزيج من الروحانيّة والتجريد الصوفي ، بتفاعل وجداني عميق ، يستولي بنفوذه على جميع المشاركين .

نأمل تكاثر أمثالها في أوساطنا عامة ، لنعالج جزءً من استبدادات الخواء الروحي في زمننا الحاضر .

أشياء تربويّة :

توجد في غضون الكتاب ، اشارات عابرة عن ملامح اسهاماته التربويّة ولكن بشكل عام وغير خاص ، لذا وجدت أن أفرد للموضوع ذاته عنواناً مستقلاً . كيما تكتمل لدينا صورة عامة عن الذات وما حققته في تجربتها الاسلامية الحافلة بالرفد والعطاء .

والواقع ، ان أصدقاء البستاني وتلامذته ، يدركون هذه السمة أو الحقيقة التي هي من أشد سماته العامة ، التصاقاً بسلوكه وحياته .

فلقد أدركت من خلال صحبتي ومعايشي معه ، انه ممن لا يدعون فرصةً ، تمرُّ دون أن يستثمروا أبعادها ولحظاتها في مجال النصح والارشاد والموعظة . . . وبمختلف جوانب الظاهرة الحياتية ـ البيت السوق ، الكليّة ، الزيارة ، الطعام . . . الخ .

ولكن : أن أوضح ممارساته التربوية ، تتركز في فترات وجوده في كليّة الفقه كاستاذ لجملة من الدروس . ولمدة عشرة سنوات حيث أسهم في تغير مجرى العديد من حياة الطلاب والطالبات هناك عبر عمليات بثّه المتواصلة للنصوص الاخلاقية والحكايات ذات التأثير العميق في نفوس الطلبة والسامعين وأحياناً كان يتدخل بصورة مباشرة حينما يلاحظ بعض الانحرافات والظواهر السلبيّة ، فينصح ويعظ في سبيل دعم السلوك الايجابي ورفد مسارات الطلاب الاسلامية .

وفي جانب آخر، فقد شارك في إعداد جملة من برامـج الاذاعـة والتـلفزيون ـ القسم العربي ـ من قبيل: القصّ القرآني الدعاء، والحلقات المتواصلة في الحـقل النفسي... وغيرها الكثير مسـاهماً فـي تـوعية الجـمهور ورسـم الخـطوط العـامة لتحركاته وثقافاته...

الفَصْلُ ٱلسَّادِسُ

حوار متنوّع

يتضمّن جملة قضايا

حوار متنوّع يتضمّن جملة قضايا *

س : أرى من وجهة نظري الخاصّة إنّ المجتمع الذي تعيش داخله ، قد بخسك حقّك ، وبعبارة أدقّ : لم يمنحك المكانة اللائقة كمفكّر ومرشد عمل على رفد وتأصيل هويته ، الإسلامية من خلال الكمّ الهائل من البحوث والمؤلّفات المعرفية ، فماذا تقول؟

ج : إنّ الهدف هو أن يؤدّي الإنسان وظيفته ، والإنسان عندما يضع الله سبحانه وتعالى بنظر الاعتبار ، حينئذٍ ينطفئ المجتمع تماماً في ذهنه ، فالمسألة ترتبط بدرجة وعي الإنسان لذلك ، فإنّ أهمّ شيء يحسّ الإنسان بالتوازن هو أن يعمل من أجل الله ، لأنّه إذا عمل من أجل الناس ، فقد يصاب بالخسران أو الإحباط ، أي إنّ الناس لا يثمّنونه كلّ التثمين ، حينئذٍ إذا كان يعمل من أجل الناس فسيصاب بنكسة وبردّة فعل قويّة تؤثّر على سلوكه ، وهذا ما نجده لدى الأشخاص الدنيويّين ، حيث انّ عدم تشجيعهم ، يجعلهم يتلكّئون في مواصلة أعمالهم ، ويصابون بخيبة أمل كبيرة. وهذه خسارة ، لكن الذي يعمل من أجل الله ، حينئذٍ لا يعنيه تشجيع المجتمع أو تثبيطه والسبب في ذلك أو بالأحرى يمكن القول : كيف يمكن الإنسان أن يستحظر هذه الجوانب في ذهنه ، بحيث يستطيع أن يمارس عمله دون أن يضع المجتمع في الحسبان؟

الحلّ هو أن يسلّط وعيه الكامل على المسألة ويستحضر في ذهنه ، أنّ الله

---

* أُجري هذا الحوار عام ١٩٩٦م في بيت الدكتور البستاني ، ويلاحظ فيه إنّه قد تمّ بصورة ارتجالية.

سبحانه وتعالى مطّلع عليه تماماً ولا يغيب عنه لحظةً واحدةً ، فحينئذٍ انّ التثمين الذي يتسلّمه من الله تعالى ، يجعله ممتلئاً بالغبطة والسرور والإشباع التامّ ، وكما قلت : إذا عرف حينئذٍ ، انّ الذي فلق الكون والإنسان هو الذي يقدّره ويثمّنه ، حينئذٍ ستنطفأ البشرية في ذهنه تماماً وتتحوّل إلى شيء لا وجود له في الذهن وهذا ما يطبع ـكما قلت ـ الأشخاص الذين يتعاملون مع الله سبحانه وتعالى ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر إنّ الملاحظ من النصوص الشرعية ، أنّ الله سبحانه وتعالى يلمّح إلى هذا الجانب ، أي أنّ الإنسان إذا أطاع الله وعمل من أجله ، فإنّه سيحمل الناس على أن يحترموه ويقدّروه ويحتلّ موقعاً خاصّاً بحيث يربح الدنيا والآخرة.

لكن السؤال هنا أيضاً : هل إنّ الإنسان بسبب محبّته لتقدير الآخرين عليه أن يتّجه إلى الله تعالى ويتعامل مع الله في هذا الاطار بغية أن يظفر بالتقدير الاجتماعي من خلال الله هذا أيضاً من الغفلة بمكان كبير ، والمهمّ أن لا يضع شيئاً غيره في ذهنه . يبقى انّ التقدير من المجتمع يترك أثره حينئذٍ فهذا يزيد استبشاراً من الشيء لا مانع منه ، ولذلك لا تضادّ بين قولنا أنّ الإنسان لا يضع المجتمع في الحسبان وبين أن يستبشر إن ظفر بالتقدير الاجتماعي من الناس لأنّ الاستبشار هنا كما هو مدلول النصوص الشرعية معناه أنّ الإنسان يحسّ ما قدّمه من عمل عبادي قد اقترن بقبول الناس ، وهذا يشجّعه ليس ذاتياً وأنّما يشجّعه نوعياً أي بما أنّه أراد أن يوصل مبادئ الله تعالى إلى الآخرين حينئذٍ وجدان هذا العمل قد تحقّق من خلال تقدير الناس لعمله فهو يستبشر لا لأنه حقّق ذاتية أو فردية ، بل لأنه حقّق هدفاً موضوعياً من أجله تعالى.

س : وددنا أنّ نستحصل على رأيكم أو بالأحرى تقييمكم بالنسبة إلى ما يكتب في الوقت الحاضر ، ومدى تمثيل الكتابة والكتّاب الإسلاميّين لوظيفتهم العبادية؟

ج : من المؤسف جدّاً أنّ الكتابات لا تستوعب ما يجب أن تكون عليه ، وأُكرّر قولي

ـ من المؤسف ـ أنّ كثيراً من كتّابنا لا يُعنون بالكتابة الهادفة ، بل تجدهم يطرحون موضوعات لا تخدم الإسلام البتّة ، وهذا في الواقع ضياع للوقت ، إنّ النصوص الشرعية طالما تشير إلى أنّ الإنسان في اليوم الآخر يتحسّر على ضياع وقته وكيف أنّه أضاعه في ما لا فائدة فيه ، فالمفروض أن يلتفت الإنسان ـ قبل فوات الفرصة ـ إلى وظيفته في الحياة وأن يوظّف كتابته كلّها من أجل الله سبحانه وتعالى ومن أجل الإسلام ، أمّا الكتابة عن أشياء مباحة ، صحيح لا ضرر فيها إلّا أنّها لا تنطوي على الفائدة وتعتبر تضييعاً للوقت ، وكذلك تعتبر عملاً عابثاً ، إذا لم تنطو على فائدة اجتماعية ، فحينئذٍ ، سيندم الكاتب ـ دون أدنى شكّ ـ عندما يجد أن ما صرفه من ساعات وليال وأيام وسنوات كلّها مصروفة.

س : المعروف أنّكم لا تكتبون إلّا ما هو مبتكر في بابه ، فما هي الدواعي التي أدّت بكم إلى الكتابة عن تاريخ الأدب العربي وهو موضوع كتب عنه الكثير؟!!

ج : بالنسبة إلى تاريخ الأدب ، الملاحظ أنّ كلّ من كتب في هذا التاريخ ، حاول أن يؤرّخ للأدب في كلّ مستوياته سواءً أكان الجانب إيجابياً في ذلك أو كان سلبياً ، وبما أنّ الأدب السلبي يترك أثره على القارئ ، حينئذٍ فإنّ هذه النظرة الذاهبة إلى أنّه ينبغي تسجيل كلّ شيء ، هذه النظرة أراها لا تتّسق مع الهدف الإسلامي.

إنّ كُتب التاريخ الأدبي ، غالباً ما تكون كتباً دراسية ، أي أنّ الطالب الجامعي يقرأ هذه الكتب ويحفظ نصوصها الشعرية والنثرية وفي الغالب ـ كما تعرفون ـ أنّ الشعراء وهذا شيء يؤسف له جدّاً في غالبيّتهم غير ملتزمين ، فتراهم يتناولون مسائل محرّمة شرعاً أو محظورة كشعر الخمر والجنس والهجاء واللهو... الخ حينئذٍ فإنّ تسجيل مثل هذه المادة وتحميلها على الطالب سوف تترك أثراً سلبياً عليه ، مضافاً إلى أنّه تشجيع إلى نشر كتب الضلال ، فكيف نسمح لأنفسنا كإسلاميّين أن نكتب بحثاً أدبياً مليئاً بالظواهر السلبية التي تتنافى مع التشريع الإسلامي وندع الطالب يحفظ هذه النصوص المنحرفة ، ولا شكّ أنّ هذه

النصوص تترك أثرها بشكل لا شعوري على الطالب بحيث تبقى محفورة في ذاكرته إلى آخر عمره وهذا ما لحظناه عند الكثير ممّن تخرّج من الجامعات واحتفظ لا شعوره بالمخزونات التي تلقّاها في المرحلة الجامعية أو ما قبلها تُحفظ أشعار الغزل أو الخمرة أو مدح السلاطين الظلمة والطغاة... الخ. لذلك وجدت أنّ الحاجة ماسّة جدّاً ـ ونحن نسعى إلى أسلمة العلوم الإنسانية ـ أن نكتب تاريخاً للأدب جديداً، يؤرخ للحياة الأدبية بشكل موضوعي، إلّا أنّه لا يستشهد بالنصوص المنحرفة بقدر ما يشير إليها، فمثلاً نحن نرسم خارطة لكلّ الشعراء والكتّاب الذين عاشوا في هذه الفترة أو تلك، ونشير إلى أنّ هذا الشاعر كان منحرفاً وإلى أنّه عرف بهجائه أو غزله أو بانحرافه... لكنّنا لا نستشهد بنموذج انحرافي عُرف عنه بقدر ما نعرّف بشخصيّته في هذا المجال، ثمّ ننقذه لأنّنا إذا لم نلفت نظره إلى الانحراف، فإنّ الطالب الذي سوف يقرأ هذا الكتاب، يخيّل إليه أنّ هذا الأدب مباح ولا غبار عليه، ولكنّنا إذا نقدناه وقلنا: إنّ هذا الأدب منحرف، حينئذٍ سيفهم الطالب انحراف هذا الجانب وسيترك أثره في تعديل سلوكه، لذلك عندما بدأت الكتابة عن التاريخ الأدبي، كنت اختار النصوص الإيجابية فحسب، وأحياناً اختار النصوص المحايدة [كوصف الطبيعة] مثلاً، وأمّا النصوص المنحرفة فلم استشهد بها البتّة للأسباب التي ذكرتها وأهمّ شيء هو أنّ كتابة هذه النصوص تنقد في ضوء المنهج الإسلامي أي أنّ كلّ نصّ نجده لا يتناسب مع جوهر التشريع، حينئذٍ نشير إليه وننقده دون أن نستشهد به ـ كما قلت ـ وأمّا النصوص الإيجابية في الغالب نختارها، أمّا تتّصل بتوحيد الله أو بمدح المعصومين عليهم السلام أو ظواهر أخلاقية... الخ.

هذا من جانب ومن جانب آخر وجدت أنّ غالبية المؤرّخين يُخضعون تاريخ الأدب إلى تقسيم سياسي أيضاً، وهذا التقسيم السياسي ـ بالواقع ـ تقسيم مرسوم، مثلاً: الأدب في عصر صدر الإسلام، الأدب في العصر الأموي، العصر العباسي الأوّل، العصر العباسي الثاني، في العصر الأندلسي، في القرون

المظلمة ، وجدت أنّ هذا التقسيم لا يأتلف أيضاً ، مع ما ينبغي أن نختطّه من خطّة في تقسيم الأدب ، والملاحظ في السنوات المتأخّرة أنّ غالبية النقّاد يحتجّون على مطلق التقسيمات التأريخية ويرون أنّ أفضل تقسيم هو تقسيم النصّ الأدبي إلى مسائل فنّية صرفة ، أي الأشكال الأدبية وتطوّرها والأساليب الأدبية... وليس تقسيمها من خلال العصور ، فإذا أخذنا هذا الجانب بنظر الاعتبار فحينئذٍ ، انّ تقسيم الأدب إلى عصور سياسية ، لا يأتلف أوّلاً مع طبيعة الأدب كفنّ ثمّ لا تأتلف مع تصوّرنا الإسلامي ، فنحن كإسلاميّين ننتمي إلى الطائفة المحقّة حينئذٍ ينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار ، أنّ العصور في الواقع هي عصور المعصومين عليهم‌السلام : عصر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ، عصر الإمام عليّ عليه‌السلام ، عصر الحسنين عليهما‌السلام ، عصر السجّاد عليه‌السلام ، عصر الصادقين عليهما‌السلام ، عصر الكاظمين عليهما‌السلام... الخ عصر الغيبة... لذلك وجدت أنّ تقسيم الأدب وفق تاريخ مذهبي ، يتناسب مع طبيعة إيماننا بمشروعية المعصومين عليهم‌السلام ، فالعصور هي عصورهم وليست عصور أُولئك الأُمويّين أو العباسيّين وغيرهم من المنحرفين.

س : مادام السياق قد وصل بنا إلى أشكالية التقسيم ـ تقسيم العصور الأدبية ـ نرجو من جنابكم ، أن تحدّثونا بشيء من الوضوح ، حول الموضوع بخاصّة ، عن الأسئلة التي أثارها العديد من النقّاد المعنيّين؟

ج : الواقع أنّ الانتقادات كانت تصبّ في جانبين :

الجانب الأوّل هو نفس التقسيم الذي ذكرته ، والجانب الآخر هو أنّني لماذا لم استشهد بالأدب المنحرف!!؟

أمّا الاستشهاد بالأدب المنحرف فقد ذكرته قبل لحظات ، وقلت إنّ هذه مسؤولية شرعية على المؤلّف والمدرّس والناشر ، لأنّنا نسهم في نشر الضلال ، من خلال استشهادنا بالنصوص المنحرفة ، وهذا هو أكبر مسوّغ يدفعنا بأن لا نذكر النصوص المنحرفة في تاريخ الأدب.

نعم، نشير إليها فقط، نقول: ثمّة ديوان لفلان والقارئ بمقدوره أن يقرأ هذا الديوان، وقد يكون قرأه فعلاً، نشير إلى أنّ هذا الديوان ـ مثلاً ـ بأجزاءه الأربعة، يمدح به الخلفاء العبّاسيّين، وهذا الديوان بجزئيه مليء بشعر الخمر والديوان الآخر بكلّ أجزاءه مليء باللهو والجنس وما إلى ذلك. ونشير مجرّد إشارة وهذا ـ كما قلت ـ هو المسوّغ لعدم ذكر الأدب المنحرف، حتّى لا يترك أثره على القارئ أو الطالب.

بالنسبة إلى التقسيم السياسي من المؤسف جدّاً، أنّ هؤلاء النقّاد أو هؤلاء الذين أثاروا غباراً حول الكتاب، هم لا يزالون ضحية لتربيتهم السابقة، أي إنّهم تدرّبوا أو تعوّدوا على دراسة تاريخ الأدب، وفق تقسيمه السياسي ونصوصه المنحرفة وتركت هذه الآثار انعكاساتها على أذهانهم بشكل لا شعوري، لذلك تجدهم مقتنعين بأنّ الأدب ينبغي أن يقسّم تاريخياً، بتقسيمه المعروف وأن يدرس أدبياً، بأشكاله المعروفة كشعر الغزل وشعر النسيب والهجاء والمديح... إلخ. وهذا أكبر برهان على أنّ كتابة تاريخ الأدب هي كتابة مغلوطة في السابق، بدليل أنّها تركت آثارها حتى على كتّابنا الإسلاميّين الذين نقدوا هذا الكتاب.

وكما قلت: فإنّ نقدهم كان منصبّاً على هذين الجانبين، وبخاصّة الجانب الأخير وهو التقسيم السياسي.

حتى أنّ بعضهم قال ما المانع أن تقسّم التاريخ وفق التقسيم المألوف، ثمّ تنقد الأدب المنحرف، وكان جوابي هو أنّ تقسيم الأدب إلى عصر ما يرتبط بالأيدلوجية التي ينطلق منها المؤلّف، فالذين قسّموا التاريخ إلى هذه العصور، ينطلقون من أيدلوجية خاصّة، هي قناعتهم بمشروعية الخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين، إلّا أنّنا لا نعترف بمشروعية خلافتهم البتّة، وإنّما نؤمن بأنّ المشروعية تتمثّل بالمعصومين عليهم السلام، ولذلك فإنّ تقسيم الأدب وفق عصورهم، يمثّل واقعاً مقتنعين به تماماً وليس يمثّل مجرّد هوس أو رغبة غير مشروعة، أو غير مستندة إلى واقع.

س : لكن يوجه إليكم أنّ الدارس أو القارئ لا بدّ له من الإلمام الكامل بالاتّجاهات الأدبية ، وإن كانت منحرفة فكرياً ، ذلك ليكون في داخله رؤية شاملة عن الحياة الاجتماعية وقتئذٍ ، فلماذا تركتم هذا الجانب؟!!

ج : قلت قبل لحظات أنّني عندما كتبت تأريخ الأدب ، لم أتوقّف لحظة عن تسجيل كلّ ما يتّصل بهذا التأريخ ، فمثلاً : بالنسبة إلى الأدب الجاهلي ، فلقد ذكرت كلّ خصائص الأدب الجاهلي فكرياً وفنّياً ، من الناحية الفنّية ذكرت كلّ الأساليب أو القيم الجمالية التي انطلق منها الشعراء الجاهليّون ، وفي هذا العدد لم يكن ثمّة فارق بين ما أكتبه أنا وبين ما يكتبه الآخرون عن تاريخ الأدب ، ولكن فكرياً كنت فقط أنتخب النصوص الإيجابية أو المحايدة ، ومع ذلك أُشير : أنّ الشاعر الجاهلي ـ فلان ـ كتب قصيدة هجاء ،كتب قصيدة مدح ،كتب قصيدة في وصف الخمر والجنس... الخ.

وأبيّن أنّ هذا الشاعر كيف مارس الشعر من خلال مختلف اتّجاهاته ، كلّ ما في الأمر الاستشهاد لا يتمّ إلّا بنصّ إيجابي ، وهذا النصّ الإيجابي يكشف عن الأُسلوب الجمالي لدى الشاعر من جانب ويكشف أيضاً عن اتّجاهه الفكري من جانب آخر ، فكلّ ما في الأمر عندما يقرأ القارئ قصيدة ـ على سبيل المثال ـ تدعو إلى الصلح بدلاً من الحرب وتدعو إلى العفّة بالنسبة إلى المرأة ، بدلاً من التبرّج فهناك نصوص جاهلية مأثورة في هذا الصدد ، أنا استشهد بأمثلة هذه النصوص التي تدعو إلى العفّة والتي تدعو إلى الموادعة والمهادنة بدلاً عن التفاضل القبلي ؛ لذلك فإنّ القارئ عندما يقرأ هذا النصّ يفهم أنّ في الأدب الجاهلي أدباً سويّاً مضافاً إلى وجود أدب منحرف أيضاً ، فإذن القارئ يكون قد أخذ انطباعاً كاملاً عن هذا الشاعر أو عن الحياة الجاهلية ،كلّ ما في الأمر ، أنّ هذا الانطباع عزّز مرّة بنصوص حفظها ، ومرّة لم يعزّز بنصوص وإنّما عرفها من خلال تعريفي أنا للعصر الجاهلي ، فإذن القارئ يكون قد ألمّ بالجانب الفكري والفنّي بهذا العصر وأضاف إلى ذلك معطىً خاصّاً هو : حفظ ما هو أدب سوي وإيجابي.

س: الملاحظ أنكم بنفس الوقت الذي انتقدتم به الشعر ومن خلال زوايا متعدّدة كـ(النفسية، الشرعية وغيرها) حاولتم دراسة بعض أنماط الشعر، عبر قيمه الجمالية والنفسية، وهذا ما يدع المتابع لنتاجاتكم في وضع شبه غامض حيال رؤيتكم للموقف الشعري، فما هو تفسيركم لهذه الظاهرة؟

ج: أوّلاً: الأدب لا يختصّ بالشعر فقط، فهناك النثر وعندما أرّختُ للأدب لم أؤرّخ للشعر فحسب، بل أرّخت للنثر بمستوياته المتنوّعة هذا من جانب، ومن جانب آخر الإضافة التي أضفتها إلى تاريخ الأدب، هو التبنّي لأدب المعصومين عليهم السلام ومن قبل ذلك، أدب القرآن الكريم، فكتب تاريخ الأدب لا تشر إلى أدب القرآن ولا لأدب المعصومين إلّا بشكل عامّ جدّاً، بينما أنا وظّفت في كلّ فصل أن أكتب مفصّلاً عن الأدب التشريعي قبل أن أتحدّث عن الأدب العام، ففي عصر النبيّ صلى الله عليه وآله تحدّثت عن كلٍّ من أدب القرآن والأدب النبوي، فتحدّثت عن أدب القرآن وبيّنت كثيراً من خصائص النصّ القرآني بشكل لم يذكره المؤرّخون الآخرون، وكذلك عندما تحدّثت عن الأدب النبوي وقسّمته إلى سبعة أشكال من النصوص الفنّية مثل الخطبة والخاطرة والمقالة والحوار... الخ.

وهذا كلّه نثر ولا علاقة له بالشعر، هذا من جانب، ومن جانب آخر أجد أنّ غالبية الجمهور يحبّ الشعر والأدب وهذا أمرٌ لا مناص منه، صحيح أنّ لي تحفّظاً حيال الشعر وهو تحفّظ مستقىً من القرآن الكريم نفسه، عندما نزّه النبيّ صلى الله عليه وآله عنه ومستقىً من الأحاديث التي نزّهت أيضاً المعصومين ومن نفس شخوص المعصومين عليهم السلام، حيث لم يؤثر عنهم شعراً، إلّا الاستشهاد في نطاق محدّد وفي ضوء ذلك، عندما وجدت أنّ الجمهور لا بدّ أن يقرأ. حينئذٍ وجدتُ أنّ وظيفتي تحملني على أن أكتب تاريخاً للأدب ما دام أمراً لا مناص منه. فبدلاً من أن تدرس الكتب المشحونة بالانحراف، الأفضل ـ قطعاً ـ أن ندرس الكتب التي تشمل ما هو سوي من الأدب، فإذن الذي حملني على أن أكتب عن الشعر هو وجود الجمهور المتطلّع إلى الشعر، فإنّنا أمام أمرين، أن نترك الجمهور يقرأ

أدباً منحرفاً وأمّا نُسلكه وهو يقرأ أدباً سوياً ، ولا شكّ أنّ قراءة الأدب السوي هي الأفضل والترجيح هنا له وإلّا لو خُلّينا وذلك لما كتبت عن تاريخ الشعر ولا تحدّثت عن خصائصه.

والمسألة لا تختصّ بالشعر فقط ، حتى بالنثر فهناك كتّاب منحرفون ، أو بالأحرى أُدباء منحرفون في العصور المنصرمة وفي العصر الحاضر أيضاً ، يؤرّخ لهم مؤرّخ الأدب ويستشهد بنصوصهم في تأييد أو تعزيز قاعدة بلاغية معيّنة ، إلّا أنّني لم أتوكّأ على هؤلاء ، ووجدت أنّ الأفضل أن أتوكّأ على نصوص القرآن الكريم وأدب أهل البيت عليهم‌السلام لأنّها نصوص هادفة ومنطوية على أبعاد عبادية مهمّة.

س : هناك كتاب قد صدر مؤخّراً لكم يحمل عنوان : (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي) وكما تعلمون أنّ البلاغة وقواعدها تعدّ من الموضوعات الموروثة ، فما الذي دفعكم لاختيار هذا الموضوع؟

ج : هناك سببان رئيسيّان لكتابة القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي :

السبب الأوّل : سبب فنّي ، والسبب الآخر سبب فكري.

أمّا السبب الفنّي :

أنّ البلاغة الموروثة ـ كما تعرفون ـ أُلّفت قبل ألف عام بشكل يتناسب مع البيئة التي كانت تعيشها تلك القرون ، أمّا الآن فإنّ البلاغة تطوّرت تطوّراً ملحوظاً ، وظهرت نظريات بلاغية حديثة ، وحينئذٍ إذا كنّا نريد أن نتابع العصر ونكتب بلغته ـ كما ذكرت ـ حينئذٍ ينبغي أن نكتب بلاغة حديثة أيضاً ، تتناسب مع العصر واستطيع أن أُشبّه البلاغة القديمة بالسلاح القديم كالسيف والرمح ، هذه الأسلحة في وقتها كانت نافعة جدّاً وضرورية أمّا في العصر الحديث ، عصر الطائرات والصواريخ وما إلى ذلك ، هل نستطيع أن نتّكأ على سلاح السيف أو الرمح ونحوهما؟! كلا هذا من جانب ومن جانب آخر ، هناك قواعد بلاغية

مخطئة في الواقع ، وقد ذكرت ذلك في مقدّمة الكتاب ، منها أنّها بلاغة جزئية تتناول حدود الجملة فقط ، ومنها أنّ المعايير نفسها خاطئة ، وهذا كلّه أيضاً ، لا يتناسب مع هدف التأليف البلاغي في ذلك العصر ، فمثلاً : البلاغيّون في ذلك العصر ، قالوا : انّما ألّفنا هذه الكتب ، لكي نتبيّن من خلالها إعجاز القرآن الكريم ، ولكنّنا إذا دقّقنا النظر في تلك البلاغة ، وجدنا أنّ قسماً منها ينطلق من معايير إذا أردنا أن نطبّقها ، حينئذٍ سنخرج بنتيجة وهي : أنّ القرآن الكريم ليس بليغاً لأنّه لا يأتلف مع تلك القواعد التي صيغت ، وهذا هو كفر ببلاغة القرآن. لهذه الأسباب وجدت أنّ الحاجة تدعو بشكل ملحّ إلى أن نؤلّف كتاباً بلاغياً جديداً ، تطرح فيه مفهومات البلاغة القديمة في قسم منها ، مضافاً إلى مفهومات البلاغة الحديثة ولهذا قسّمته إلى ثمانية أقسام وفرزت فيه كلّ قسم من الآخر وأسّست فيه قواعد اُخرى جديدة. والمهمّ هو وجود جانب ثالث بالنسبة إلى النصوص . البلاغة القديمة أيضاً وجدتها تستشهد بنصوص منحرفة في سبيل تعزيز أو الاستشهاد بقاعدة ما ، ورأيت أنّ هنا واجباً شرعياً عليّ ، هو أن لا أسمح للنصوص المنحرفة بأن تأخذ طريقها إلى ذهن القارئ ، فاستشهدت أو اكتفيت بأن استشهد فقط بنصوص القرآن الكريم وبأدب أهل البيت عليهم السلام وهذا هو ـ في رأيي ـ أوّل عمل بلاغي يتوفّر على دراسة البلاغة الحديثة ، وفق نصوص يستشهد بها القرآن الكريم ونصوص المعصومين عليهم السلام .

س : **ما دمنا في اطار موضوع البلاغة ، نتوخّى منكم توضيح مدى تناسب كتابكم الجديد مع مناهج البلاغة التي تتعاطاها المؤسّسة الحوزوية؟**

ج : الحوزة ـ بطبيعة الحال ـ ينحصر اهتمامها بالنصّ الفقهي والنصّ الفقهي قد يؤخذ من القرآن الكريم وقد يؤخذ من الحديث ولا أعتقد أنّ ثمّة ضرورة قصوى تدفع الفقيه إلى الاستفادة البلاغية إلّا بشكل ثانوي ، ولا شكّ أنّ الذي يمتلك ثروة بلاغية جيّدة ، يستطيع أن يفهم النصوص ، بشكل أكثر عمقاً من الشخص

العادي ، وهذا ما وجدته منسحباً على بعض الفقهاء بالفعل ، حيث لحظت أنّهم يستفيدون من الآية الكريمة أو الحديث نمطاً من الاستخلاص يرتبط ولو بشكل غير مباشر بنفس الحكم الشرعي الذي يستنبطونه ، لذلك فإنّ الثروة البلاغية أو الحسّ البلاغي الموجود عند الفقيه ـ قطعاً ـ يساعده .

أقول : يساعده ولا أقول يتوقّف عليه ، يساعده على فهم أفضل للنصّ ـ دون أي شكّ ـ مضافاً إلى ذلك أنّ الإعجاز في القرآن الكريم والكمال الأدبي في نصوص المعصومين عليهم السلام أيضاً من الأفضل لكلّ من يقف على هذه النصوص أو يتعامل معها من خلال الصلاة أو الدعاء أو المناجاة أو الذِّكر إلى آخره ، عندما يعرف مستوياتها البلاغية يكون ـ أيضاً ـ تجاوبه وتفاعله بشكل هو أفضل ممّا لو كان يجهله.

س : انّكم ـ كما هو معروف ـ شاعر ومجدّد للشعر ، فما هي الدواعي التي جعلتك تتخلّى عن الشعر وتتّجه إلى مجال النقد الأدبي؟

ج : انطلاقاً من المقولة الذاهبة إلى أنّ الإنسان ينبغي أن يمارس دوره العبادي في الحياة ، حينئذٍ فإنّ أي نشاط يقوم به يتعيّن عليه أن يكون هادفاً ، وعندما كتبت الشعر ـ مدّة عشر سنين أو أكثر ـ توصّلت إلى أنّ الشعر لا ينطوي على فائدة ضخمة بقدر ما تتحقّق فائدته بنطاق ضيّق جدّاً ، لا يستطيع أن يحقّق الهدف الذي يسعى الإنسان عبادياً إليه ، مضافاً إلى ذلك فإنّ الشعر يعدّ تعبيراً عاطفياً عن الحقائق ، والإسلام ـ في الواقع ـ يطالبنا بأن نتعامل عقلياً مع الحقائق وليس عاطفياً. صحيح أنّ العاطفة ضرورة لا مناص منها ، إلّا أنّها ينبغي أن تستخدم في نطاق محدود بحيث لا تطغى على العقل.

بهذه الأسباب وغيرها ، وجدت أنّ هناك نشاطاً آخر يمكن أن يوظّفه الإنسان لتحقيق المهمّة العبادية في الحياة ، ألا وهي عملية النقد ، فالنقد أو بالأحرى مطلق النشاط النثري يستطيع أن يوصل الأفكار العبادية إلى الآخرين.

س: لكن بماذا نواجه الجمهور الكبير الذي يتفاعل مع الشعر ويتجاوب مع معطياته بدرجة لا يمكنه التخلّي عنه؟

ج: صحيح أنّ غالبية الناس تميل إلى الشعر، إلّا أنّ هذا الميل يظلّ ـ في الواقع ـ غير مرصود من الناحية العبادية؛ لأنّ الإنسان يمتلك ميولاً متنوّعة، وهذا لا يعني أنّنا ينبغي أن نملأ أو نشبع هذه الميول كيف ما اتّفق، بل علينا أن نحمل القارئ أو نوجّهه توجيهاً آخر.

فإذا كان القارئ يحيى حياة عاطفية حينئذٍ نستطيع بطريق آخر أن نملأ حياته العاطفية من خلال النثر الأدبي أيضاً، فالنثر الأدبي ينطوي على معطىً عاطفي إلّا أنّه معطىً نسبي من جانب ويستطيع أن يتجاوز النطاق العاطفي إلى النطاق العقلي من خلال أساليب معيّنة، بحيث يوصل من خلالها الأفكار التي يستهدفها.

من هناك اتّجهت إلى النقد الأدبي، وقلت: استثمر هذا الجانب لكي أُوصل الأفكار إلى الآخرين وأُساهم في إمكانية تعديل سلوك الآخرين من خلال نقد النصوص الأدبية.

على أيّة حال: اتّجهت إلى النقد الأدبي واستطعت بواسطته أن أُحقّق الهدف الذي كنت أنشده، وفي الواقع عندما قرّرت أن أترك الشعر وجدت أنّ في النقد الأدبي نصوصاً متنوّعة: فهناك نصوص منحرفة وهناك نصوص سوية وهناك ما هو أهمّ من هذه النصوص: نصوص التشريع الإسلامي كالقرآن الكريم وأحاديث المعصومين عليهم السلام لذلك رأيت أنّ الأفضل هو أن أتوفّر على دراسة النصوص الشرعية ذات الطابع الفنّي، ومن خلال ذلك أستطيع أن أُحقّق الهدف. لكن بما أنّني كنت معروفاً شاعراً، حينئذٍ قرّرت أن أُؤلّف كتاباً نقدياً محايداً ليس فيه توظيف إسلامي حتى اكتسب سمعة نقدية من خلال الجمهور وبعد أن أكتسب هذه السمعة أن أتوفّر على دراسة النصوص الشرعية واكتبها بالشكل الذي يتناسب مع مستوياتها.

من هنا بدأت وألّفت كتاب (في النظرية النقدية) واستطعت من خلال هذا الكتاب أن أرصد الاتّجاهات النقدية الأرضية جميعاً وأُوضّحها بشكل أو بآخر ، لكن دون أن أُدلي بوجهة نظر فكرية ، بقدر ما كانت وجهة النظر تنصبّ على الدلالات الفنية فحسب.

وفي الواقع أنّ الكتاب يمثّل نقداً نظرياً ، حيث رسمت خطوطاً للنقد النظري وكيفيّة تعامل الناقد مع النصّ من وجهة فنّية خالصة.

المهمّ ، ألّفت هذا الكتاب بهذه النيّة ، بمعنى أنّ الكتاب مقدّمة لنشاط إسلامي خالص ، وصادف أنّ ألّفت الكتاب في شهر رمضان المبارك وكان يتألّف من أربعة عشر فصلاً وكتبت كلّ فصل في ليلة واحدة تيمّناً بأربعة عشر معصوماً عليهم‌السلام وبالفعل استطعت أن أُؤلّف الكتاب خلال أربعة عشر يوماً فقط ، وصدر إلى الأسواق ونفدت نسخه خلال أيام قليلة ورافقه إعلام عجيب بدرجة أنّ الصحف والمجلات والإذاعة وكلّ وسائل الإعلام كانت تتحدّث عن هذا الكتاب ، وكما أتذكّر أنّ النقّاد الذين تناولوا هذا الكتاب بالنقد اعتبروه أفضل كتاب يصدر في ذلك الفصل حتى أنّ ناقداً معروفاً في العالم العربي كلّه أجريت معه مقابلة في إحدى المجلّات وذكر هذا الكتاب وأوضح : « بأنّه أحد كتب أربعة صدرت في هذا العالم ليس في العالم العربي ، بل حتّى في اوربا ، يمتاز بالجدّة في طرح الأفكار والتخطيط لنظرية في النقد الأدبي » ، والذي أعتقده أنّ سبب الاهتمام بهذا الكتاب وتوظيف الإعلام له هو النيّة التي كنت استهدفها فيه فالنيّة كانت خالصة...

المهم ، أنّ نجاح الكتاب ـ كما قلت ـ عائد إلى النيّة الخالصة لله سبحانه وتعالى ، وبالفعل عندما واصلت الكتابة النقدية استطعت أن أُولّف عدّة كتب في نطاق القرآن الكريم وفي أحاديث أهل البيت عليهم‌السلام مثل : دراسات فنّية في قصص القرآن الكريم ودراسات فنيّة في عمارة السورة القرآنية الكريمة وتاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي... الخ ، وحتّى في مجال البلاغة ألّفت كتاباً

بعنوان (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي) وهو في الواقع نقد نظري لأنّ الفارق بين النقد والبلاغة : أنّ البلاغة هي مجموعة قواعد نقدية تتناول النصّ الأدبي ، فهي قواعد تنظيرية وعندما يطبّقها الإنسان على نصّ أدبي حينئذٍ يكون مارس عملاً نقدياً.

على أي حال : الشيء الذي أودّ أن أُركّز عليه ، هو النيّة الخالصة لله ـ سبحانه وتعالى ـ تجعل الإنسان أيّاً كان نشاطه موفّقاً في ممارسة نشاطه هذا في النطاق الدنيوي وأمّا في النطاق الأُخروي فالمسألة لها حساب آخر دون أدنى شكّ.

س : من المعلوم أنّكم تحملون شهادة في مضمار النقد الأدبي ، فيا حبّذا لو كشفتم لنا سبب اختياركم لهذا الفرع من المعرفة دون غيرها؟

ج : الواقع أنّ اختياري للنقد الأدبي ـ وقد درست في جامعة القاهرة ـ كان بسبب أنّ النقد الأدبي هو من الفروع المعرفية الحديثة في ذلك الوقت والإنسان عندما يريد أن يوصل أفكاره إلى الآخرين عليه أن يتوسّل بلغة وثقافة العصر ، فاخترت النقد الأدبي الحديث ومن جانب آخر تقترن عملية النقد بضروب متنوّعة من المعرفة الإنسانية كعلم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة و... الخ.

س : هل كانت لديكم وجهة نظر حيال النقد القديم؟

ج : النقد الأدبي القديم ـ في الواقع ـ نقد جزئي وبسيط ، لا أعتقد أنّه يتناسب مع ثقافة العصر ومتطلّبات العصر وما إلى ذلك... بعكس النقد الأدبي الحديث الذي يتوكّأ على ثقافة العصر بشكل ملحوظ لأنّ النقد الأدبي الصحيح يتناول الجانب الفنّي من النصّ ، إلّا أنّ الاضاءة الخارجية من النصّ تصبح ضرورية ولا أعتقد أنّ هناك ناقد ما يستطيع أن محّص دراسته للنصّ جمالياً فقط بقدر ما يضطرّ ـ حتى ولو لم يشأ ذلك ـ إلى أن يطرح خلال نظراته النقدية وجهة نظره في الحياة والإنسان والمجتمع وما إلى ذلك.

س : كيف كانت معايشتكم للأجواء المصرية أثناء تحضيركم لأُطروحتكم؟

ج : الواقع أنّني كنت كالآخرين عندما كنت في القاهرة لم تكن لي نيّة هادفة بقدر ما كنت أسعى كالآخرين للحصول على شهادة ليبس أكثر وهذا النوع من الهدف لا أستسيغه الآن أبداً ، لذلك لو كنت الآن لا أحمل شهادة الدكتوراه من المستحيل أن أذهب إلى القاهرة وأسعى لنيل هذه الدرجة ، لأنّ هذه الدرجة اعتبرها شيئاً دنيوياً يتّصل بالجاه والسمعة وما إلى آخره... ، ولكن في حينه لم يكن لدي هذا الوعي الحالي ، لذلك عندما ذهبت إلى القاهرة ودرست النقد الأدبي وحصلت على شهادة الدكتوراه لم تكن لي نيّة هادفة بقدر ما حصلت هذه النيّة قبل اسبوع أو عشرة أيام قبل الحصول على شهادة الدكتوراه ، حيث أتذكّر أنّني كنت ذات ليلة جالساً في الفندق ووجدت أنّ الأمور متشابكة جدّاً ، من حيث تهيّوأ الوقت المناسب لمناقشة الدكتوراه والظفر بالشهادة فالمشرف والمناقش كلّ يتذرّع بوسيلة من الوسائل ، لكي يتخلّص من تحديد الوقت الذي أُريده ، وهو وقت محدّد خلال العطلة الصيفيّة فوجدت أنّ التأخير سوف يتسبّب إلى تأجيل هذه الشهادة إلى السنة الثانية عندما واجهت هذه المتاعب ـ أيضاً ـ عشت متاعب أُخرى كنت أُفكر من خلالها في مدينتي وفي وضعي العائلي الخاص حيث يوجد بعض المرضى وقد تركتهم على حالهم واتّجهت إلى مصر ، مضافاً إلى ذلك وجدت نفسي وأنا أُحضّر الدكتوراه التي كان عنوانها (المناهج النقدية في نقد المعاصرين) وهذا يعني أنّني كنت أبحث عن النقد الأدبي ومناهجه في العصر الحديث ليس على نطاق العالم العربي فحسب بل على نطاق العالم الغربي أيضاً ، فكنت منغمراً في دراسة نصوص تابعة لنقّاد من انكلترا وأمريكا وألمانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي سابقاً... الخ ، في ذلك الوقت هجمت عليّ هذه الأفكار ووجدتني وأنا غارق في البحث عن شخصيات كلّها منحرفة وكافرة بتعبيرنا... فتسائلت مع نفسي ما هي الفائدة التي توخّيتها من هذا البحث؟ إذ قضيت عدّة سنوات وأنا أبحث عن نقّاد غربيّين وغيرهم في حين أنّ لي مهمّة

في الحياة... لماذا لم أختر موضوعاً عن التشريع الإسلامي مثلاً؟ لماذا لم أختر مادة تخدم الإسلام؟... الخ . في خضم هذه الصراعات الفكرية التي عشتها قرّرت أن أترك الدكتوراه وأرجع إلى بلدي واتّجه إلى العمل العبادي الذي ينفعني في الدنيا والآخرة ، ويتناسب مع طبيعة المهمّة العبادية التي خلق الله الإنسان من أجلها ، وهذه الفكرة انبثقت في ذهني ـ رأساً ـ وعندها قرّرت ـ كما قلت ـ أن أترك هذه الشهادة وأن أرجع إلى العراق ، إلّا أنّ مجموعة من الأصدقاء منعوني وقالوا : كيف ترجع ، بعد أن طويت أعواماً طويلة ، وقلت لهم : أنّ المسألة بهذا الشكل... إلّا أنّه في تلك اللحظة انبثقت في ذهني فكرة خاطفة هي : لماذا أعود وأنا صفر اليدين من هذه الشهادة وسوف تفسّر بتفسيرات كثيرة ، لا تتناسب وسمعة الإنسان إسلامياً ، لذلك كانت الفكرة المشار إليها تفرض عليّ بعد حصولي على الشهادة أن أُوظّف كلّ نشاطي من أجل الله سبحانه وتعالى ، ولذلك نذرت ـ لله ـ وقلت إذا أُزيلت هذه المصاعب خلال هذين اليومين أو الثلاثة ، حينئذٍ سوف أُكرّس كلّ نشاطي من أجل خدمة الإسلام ـ فعلاً ـ ما أن قرّرت هذا الجانب ، حتى وجدت في اليوم الثالث أنّ الأمور حلّت مباشرة وبعد ثلاث أيام ناقشت الرسالة وحصلت على الشهادة بدرجة الشرف الأُولى ورجعت إلى العراق ، ومنذ تلك اللحظة بدأت أكتب : النقد الأدبي وسائر ألوان النشاط الفكري من خلال وجهة النظر الإسلامية وهذا ما وفّقت إليه ، ولله الحمد.

س : الملاحظ أنّ بعد عودتكم من مصر واشتغالكم في عالم النقد الأدبي ـ تدريساً وبحثاً ـ أنكم بدأتم منحىً موازياً للجانب النقدي إلّا وهو المجال الفقهي حيث صدر ـ في ذلك الوقت ـ كتاب لإحدى الشخصيات الكبيرة عند الطائفة الشيعية ـ وكنتم قد أشرفتم على تحقيق ذلك الكتاب والتعليق عليه ، وقد تضمّن الكتاب نفسه مقدّمة هي أشبه ما تكون بدراسة نقدية ـ فقهية ـ صغيرة ، فما هي الدواعي التي أدّت بكم إلى الدخول في هذا المجال؟

ج : الواقع ، أنّ الفقه ـ أيضاً ـ له سبب دفعني إليه. أتذكّر عندما كنت في القاهرة ـ في نفس الأيام التي تحدّثت لكم عنها ـ أتذكّر أنّ الأُستاذ المشرف سألني عن مسألة فقهية ، لكنّني لم أستطع أن أُجيبه عليها ، وحينئذٍ شعرت بخجل شديد وقلت في نفسي : أنّني أعرف ـ الآن ـ النظريات الغربية في مجال النقد الأدبي ولكنّني لا أعرف شيئاً عن أحكام الشريعة ، أليس هذا عيباً كبيراً ، لذلك في غمرة تلك الملابسات قلت ـ من جملة ما قرّرته في ذلك الوقت ـ : أنّني سأتفقّه أيضاً حتى تكون الكتابات التي أكتبها مرتكنة إلى أساس سليم من الناحية الشرعية ، وبالفعل عندما رجعت ، وجدت نفسي راغباً كلّ الرغبة في أن أتفقّه ، وبالفعل بدأت أتفقّه وكنت أصرف أحياناً في اليوم تقريباً ثمانية عشر ساعة بدراسة الفقه وأُصوله وما يتعلّق به وكذلك بدأت أقرأ واسأل واتّصل بالفقهاء ، لأنّني وجدت أنّني لو انخرطت بالسلك الحوزوي بالشكل التدريجي لاستغرق ذلك سنيناً طويلة ، لذلك قرّرت أن أقرأ بنفسي هذه الكتب المعروفة بالحوزة وأن اسأل فيها المختصّين عن كلّ نقطة غامضة واستطعت ـ ولله الحمد ـ خلال سنة أن أتوفّر على دراسة هذه النصوص وأن أكتب دورة فقهية كاملة لي بشكل خاص كتبتها واحتفظت بها واستغرقت سنة وأربعة أشهر.

س : ما هو نتاجكم على الصعيد الفقهي؟

ج : قلت : إنّ السبب في التوجّه إلى الفقه ، ليس هو ممارسة النشاط الفقهي ، بل هو أن أتفقّه فحسب حتى استطيع أن أكتب المسائل اليومية التي يعيشها مجتمعنا ، فالإنسان إذا لم يمتلك أرضية فقهية لا يستطيع أن يطرح وجهة نظره الإسلامية من خلال المادّة التي يدرسها ، وأنا ـ كما تعلمون ـ لم أتوقّف في نشاطاتي على مجال النقد الأدبي فقط ، بل تجاوزه إلى نشاطات أُخرى مثل علم النفس وعلم الاجتماع... الخ.

والمهمّ أنّ النظرات التي كنت أطرحها إذا لم تكن مستندة إلى تكيّف فقهي لها

حينئذٍ فإنّ من الصعب أن يستطيع الإنسان أن يخطّط لنظرية معيّنة تتناسب مع طبيعة التشريع الإسلامي ، لذلك لم أتوفّر على الكتابة الفقهية لكثرة الفقهاء ولعدم الحاجة إلى ذلك واكتفيت بكتابة المقدّمات لكتب مهمّة للشهيد الأوّل والعلّامة الحلّي وسلّار وغيرهم ولكن كانت هذه المقدّمات ذات طابع نقدي بطبيعة الحال.

س : الملاحظ أنّ أُسلوبكم في الكتابة قد مرّ بمرحلتين ، المرحلة الأُولى كان ذات طابع ضبابيّ غامض ، وأمّا في المرحلة الثانية أصبح أكثر إضاءة ووضوحاً فما هي وجهة نظركم حول هذه النقطة بالذات؟ وما هي رؤيتكم حول كيفيّة الاسلوب الكتابي بالنسبة إلى الكتّاب الإسلاميّين؟

ج : في الواقع عندما بدأت أكتب ، كنت متأثّراً بالتيارات الحديثة في الكتابة والتيارات الحديثة ملفعة بالغموض والضبابيّة ـ كما تعرف ـ إلّا أنّني عندما وظّفت الكتابة إسلامياً ، وجدت أنّ الغموض لا يأتلف البتّة مع هدف الكاتب الإسلامي ، فالمفروض أن نوصل مبادئ الإسلام إلى الآخرين وإيصال هذه المبادئ إذا لم يكن بنحو مستيسر فحينئذٍ لا فائدة من ذلك ، من هنا فكرت في أن أكتب بوضوح ، بخاصّة أنّ أكثر القرّاء كانوا يشكون من الغموض الذي يلفّ الكتابة.

والواقع ، أنّ البحث عن الأُسلوب الغامض أو الأُسلوب الواضح يظلّ موضع نقاش في الأوساط الثقافية وبعض الكتّاب يصرّ على أن يكتب بأُسلوب غامض انطلاقاً من مقولة تذهب : إلى أنّ القارئ ينبغي أن يرتفع إلى مستوى المؤلّف بيد أنّ هذا الكلام لا ينبغي أن نقتنع به إسلامياً لأنّ المفروض هو إيصال المبادئ ـ كما قلت ـ والقارئ الخاص من الممكن أن يفهم اللغة الغامضة إلّا أنّنا نخاطب القارئ المتوسط .

طبيعياً القارئ العادي لا نعنى به لأنّ العناية به تتطلّب التدنّي إلى أُسلوب مبتذل وهذا لا يتّسق مع مهمة الكاتب الإسلامي ، لذلك فإنّ القارئ المتوسط هو

الذي ينبغي أن نأخذه بنظر الاعتبار والقارئ المتوسط يحتاج إلى لغة مفهومة ليست بالشكل المبتذل ولكن بالشكل الرصين والمتّسم بالوضوح، وفي الواقع: عانيت صعوبة كبيرة في بداية الأمر عندما تحوّلت من الغموض إلى الوضوح إلّا أنّني بعد محاولات قليلة استطعت أن أُبدّل لغتي وأن أكتب بالشكل الواضح والكتب الأخيرة كلّها مكتوبة بهذه اللغة الواضحة وصادف أنّ سألت الكثيرين ممّن قرأ هذه الكتب فأجابوني بأنّهم استطاعوا أن يفهموها بشكل واضح وهذه هي المهمّة التي وفّقت إليها ولله الحمد.

س: إذن كيف تفسّر بعض الكتابات التي يصدرها الإسلاميّون المعاصرون وهي مغلّفة بالطابع نفسه من الغموض والتعقير و... الخ، أو بالأحرى كيف تنصحون هذه الشريحة من الكتّاب؟

ج: قلت ـ قبل قليل ـ أنّ الأُسلوب الغامض لا يأتلف مع الاتّجاه الإسلامي الهادف أبداً. أنّ الغربيّين أو الأرضيّين بشكل عام، من الممكن أن ينطلقوا من وجهات نظر خاصّة لأنّهم منعزلون تماماً عن مبادئ السماء، لذلك فإنّهم لا يفكّرون بالوظيفة التي خلقوا من أجلها وإنّما ينطلقون من حياة مليئة بالترف، ومن هنا نجدهم يتحذلقون في صياغة المبادئ والنظريات في الكتابة وغيرها، نظراً لعدم تحسّسهم بالمسؤولية التي نتحسّسها نحن كإسلاميّين ومن المؤسف جدّاً أنّ كثيراً من كتّابنا الإسلاميّين وأخصُّ الشعراء منهم والقصصيّين هؤلاء ـ من المؤسف ـ أنّهم تأثروا بالأُسلوب الغربي أو تأثروا باللغة الحديثة في الشعر وهي لغة ملى بالضبابية والغموض بدرجة أنّ الناقد المتخصّص أيضاً، قد يعاني صعوبة في فهم المادة المطروحة.

والواقع أنّ هذه المقولة الذاهبة إلى أنّ الشعر الجديد والقصّة الجديدة هي لغة مضبّبة بشكل عام... هذه المقولة ـ كما ذكرت ـ ينبغي أن لا يؤمن بها الإسلاميّون أبداً. فالإسلاميّون ماداموا يستهدفون توصيل مبادئ الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى

الآخرين فعليهم أن يتّخذوا أُسلوباً خاصّاً بهم ، طبيعياً هذا لا يعني بأن يبقوا مقلّدين أو تقليديّين للسلف حيث يمتاز النصّ السلفي أو الكتابة القديمة بالوضوح أو ما يمكن أن نسمّيه بالأُسلوب الكلاسيكي أو التقليدي. هذا أيضاً لا يناسب الكتابة الحديثة ولا الشعر الحديث ولا كذلك القصّة... المفروض بالكاتب الإسلامي والشاعر الإسلامي والقاصّ الإسلامي أن يستقلّ بأُسلوب خاصّ له ، فلا يعتمد على الأُسلوب البالي الذي لا يتناسب مع العصر وفي الآن نفسه أن لا يتأثّر بالموضات الأوربيّة ، عليه أن يتّخذ لنفسه أُسلوباً خاصّاً يستقلّ به كاستقلال هويّته الإسلامية ومن جانب آخر ينبغي أن يكون هذا الأُسلوب متّسماً بالوضوح ، لذلك فإنّ المسألة ليست سهلة وصادف أن طُرحت في إحدى الندوات مسألة تتّصل بهذا الجانب وسُئلت وكانت مجموعة من الشعراء حاضرة في تلك الندوة وكلّهم ينتسب إلى الجيل الحديث جدّاً وصارحتهم بأنّ أساليبكم هذه ـ في الواقع ـ لا تأتلف مع التصوّر الإسلامي للكتابة والشعر والقصّة ، لذلك ينبغي على الشاعر إذا أراد أن يكون شاعراً حقّاً ، أن يتعب نفسه ويجهدها في سبيل أن يؤسّس لنفسه أُسلوباً خاصّاً يجمع بين الوضوح من جانب وبين الحداثة من جانب آخر وبين الاستقلالية للشخصية الإسلامية من جانب ثالث وهذا الأمر يتطلّب جهداً كبيراً بمعنى أنّ الشاعر أو القاصّ أو الكاتب وبخاصة الشاعر والقاصّ ـ بطبيعة الحال ـ سيعانون أزمة شديدة في هذا الجانب إلّا أنّهم يستطيعون أن يجتازوها بسلام إذا أُتيح لهم أن يتعبوا أنفسهم في نحت وصياغة جديدة تتّسم بالسمات الثلاث المشار إليها ، وإلّا فالأفضل لهم أن يتركوا كتابة الشعر أو القصّة لأنّه لا سبيل إلى كتابة غامضة مضبّبة لا تستطيع أن توصل أفكارها إلى الآخرين. من هنا ، أُكرّر بأنّ الشعراء أو القصصيّين أو المسرحيّين الإسلاميّين أمّا أن يستقلّوا بأُسلوبهم وأمّا أن يتركوا ذلك ، فهذا أجدى للإسلام من أن يواجه أُدباء سائرين في ركاب الغرب أو أُدباء متخلّفين وحينئذٍ فهذا لا يتناسب مع سمعة الإسلام.

س : لكن تبقى أشكالية التأثير بالطرف الآخر ضرورة لا مناص منها؟

ج : قلت ـ قبل قليل ـ أنّنا في الواقع نتأثّر في التيار الاوربي ، فالتيار الاوربي يفد قبل عشر سنوات ـ على سبيل المثال ـ ثمّ يترجم إلى اللغة العربية ويتأثر العرب بهذا التيار، ثمّ يأتي الإسلاميّون بعد ذلك ـ مع الأسف ـ فيتأثّروا أيضاً بهذا التيّار ، وهذا التأثّر ينبغي أن نميّز فيه بين نمطين : نمط نستفيد فيه بشكل عام من الأُسلوب أو من اللغة الحديثة ، ومن طرف آخر ـ كما قلت ـ ينبغي أن نتعب أنفسنا لكي نصوغ لغة خاصّة بنا وهذا أمر صعب دون أدنى شكّ ولكن لا مناص منه ، أمّا أن نكتب بأُسلوب ببغائي كما يكتب الأرضيّون فهذا لا يتناسب مع سمعة الإسلام أبداً.

س : الحداثة أو التجديد موضوعة كثرت حولها الجدليات والكتابات.. فما هي كلمة الفصل عندكم؟

ج : سأتحدّث عن هذا الجانب من زاوية التصوّر الإسلامي وليس التصوّر العلماني له ، الحداثة مرّة تكون في المادة ومرّة تكون في اللغة ومرّة تكون في المنهج ، المنهج لا مانع منه ، وأمّا المادة فهي نمطان : كمادة علم النفس وعلم الاجتماع و... الخ ، فنحن كإسلاميّين ينبغي أن نستفيد من أي تراث كان ومن أي ثقافة كانت نأخذ منها الإيجابيات ونترك سلبياتها ، فلو لم نتأثّر بالتيارات الحديثة حينئذٍ لا نستطيع أن نوصل أفكارنا الإسلامية إلى الآخرين على سبيل المثال : عندما أتناول نصّاً قرآنياً أو حديثاً لأحد المعصومين عليهم السلام عند ذلك عندما أتوسّل بالمعرفة الحديثة كعلم النفس والاجتماع والتربية وأستفيد من هذه النظريات المطروحة هناك واستخدمها كإضاءة لتوضيح الآية القرآنية أو النصّ الوارد عن المعصومين عليهم السلام في هذا الإطار ينبغي أن نفيد من التيارات الحديثة ، وهو ما أُسمّيه بالعلوم المحايدة ولكنّ هناك علوم منحرفة ، فنفس هذه النظريات في النفس والاجتماع والتربية تنطوي على نظرات وآراء منحرفة ـ دون أدنى شكّ ـ

لذلك ينبغي على الكاتب الإسلامي أن يكون حذراً في هذا الجانب فيتّخذ من الآراء والنظريات ما لا يصطدم مع وجهة النظر الإسلامية ويترك ما يصطدم معها وهذا يحتاج ـ في الواقع ـ أن يكون للكاتب أو الشاعر أو القاصّ أرضية فقهية أو ثقافية إسلامية بشكل عام، حيث يستطيع أن يميّز المنحرف من السويّ من الأفكار.

هذا ما يتّصل بالجانب المعرفي من التيار الحديث، أمّا ما يتّصل باللغة والمنهج، بالنسبة إلى المنهج فلا مانع أبداً من أنّ نتأثّر بالمناهج الحديثة ونطبّقها في ممارساتنا الثقافية ولكن مع ذلك هناك بعض المناهج التي لا تأتلف مع تصوّرنا الإسلامي أيضاً، ينبغي على الكاتب أن يكون حذراً في هذا الجانب وأن يكون على إحاطة تامّة بالتصوّر الإسلامي للظواهر حتى يستطيع أن يتّخذ من المناهج ما يتناسب مع التصوّر المذكور وأمّا اللغة وهي أهمّ شيء الآن عندنا وهي كذلك ذات جانبين: جانب إيجابي، وجانب سلبي.

الجانب الايجابي: هو أن نكتب وفقاً للمفردات والعبارات والتراكيب التي تستخدم حديثاً ولكن ينبغي أن نكون على حذر من أن نستخدم الأساليب المغرقة في الترف أو المغرقة في الضبابيّة والغموض، فعلينا أن نأخذ ما هو مشرق من العبارة وما هو محكم من التركيب وأن ندع ما هو ملتوٍ وما هو معقّد وما هو غامض ثمّ إذا استطعنا من خلال التدريب على الكتابة انتخاب هذه الأساليب حينئذٍ يمكن للكاتب الإسلامي أن يستقلّ بأسلوب خاصّ له في ضوء ما تتوفّر لديه من درجة وتجربة في الكتابة.

س: مسألة أسلمة العلوم مشروع كبير تناولتم فيه عدّة ضروب من المعرفة الإنسانية كيف بدأت هذه الفكرة، ومتى مارستم العمل بها؟

ج: عندما اتّجهت إلى الكتابة الإسلامية وجدت أنّ الزمن الذي نعيش فيه يتطلّب أنّ نواكبه من جانب وأنّ نحقّق فيه هويّتنا الإسلامية من جانب آخر. وتجيئ العلوم

الإنسانية في مقدّمة ضروب المعرفة التي يحتاج إليها الإسلام لتوصيل مبادئه إلى الآخرين ، ومن هذه العلوم علم النفس والتربية والاجتماع.

طبيعياً ، ثمّة تسائل يُثار : أنّ الإسلام لم يقدّم نظرية علمية لأحد ضروب المعرفة ، فكيف ينتخب عنوان علمي لهذه المعارف؟

وجواباً على هذا السؤال أقول : الواقع أنّ الإسلام هو مجموعة توصيات متناثرة ، تُقال في سياق خاصّ ، فالقرآن الكريم ـ على سبيل المثال ـ يطرح مئات الظواهر إلّا أنّ كلّ ظاهرة أو أكثر يطرحها في سياق خاصّ قد يتطلّبها الظرف الذي أُلقي فيه الوحي وقد يتطلّبها وضع الإسلام بشكل عام وكذلك أحاديث المعصومين عليهم‌السلام فثمّة مناسبة تستدعي الإمام عليه‌السلام أن يلقي كلمة أو حديثاً... ووظيفتنا نحن الإسلاميّين أن نلتقط هذه الأحاديث وأن نبرمجها ونصنّفها ونبوّبها على نحو ما نجده في الفقه مثلاً. فهذه الأبواب التي نجدها كالطهارة والصلاة والصوم والخمس والحجّ... الخ ، لم تطرح إسلامياً بهذه الصياغة بل طرحت بشكل أحاديث متناثرة ، فجاء الفقهاء فبرمجوها وبوّبوها ومنهجوها بالشكل الذي نراه الآن ، وهكذا بالنسبة إلى العلوم الإنسانية ، فالإسلام لم يقدّم نظرية خاصّة في علم الاجتماع أو في التربية ، وإنّما هي مجموعة أحاديث ولذلك فإنّ وظيفتنا نحن الإسلاميّين أن نلتقط هذه الأحاديث ونحلّلها ونفسّرها ونضع لها برنامجاً خاصّاً ثمّ نبرمجها على ما نجده في العلوم الحديثة التي تخضع لمنهج خاصّ ولتبويب خاصّ ولحقول خاصّة وهكذا... من هنا وجدت أنّ الحاجة ملحّة لهذا النوع من المعرفة لأنّ الفقه وأُصوله وما يتّصل بالدروس الحوزوية ـ ولله الحمد ـ قد توفّر عليها الآلاف من فقهائنا ، إلّا أنّ البحث النفسي والاجتماعي... الخ ، لم يتح لكتّابنا الإسلاميّين أن يتوفروا عليه إلّا في السنوات الأخيرة ، ووجدت أنّ الحاجة لعلم النفس خاصّة وعلم الاجتماع ملحّة لأسلمتها ، لأنّ المادة النفسية هي أساس السلوك البشري على شتّى مستوياته ، وكذلك علم الاجتماع هو أساس السلوك الاجتماعي للبشر ، وهذان النمطان من المعرفة

يتخلّلان عصب الحياة جميعاً، لذلك فإنّ التأكيد عليها يظلّ من أهمّ العلوم الإنسانية التي ينبغي أن تؤسلم، وهذا ما دفعني إلى أن أكتب عن هذين العلمين بالشكل الذي رأيتموه.

س : قبل أن ندخل معكم في حوار حول نمط منهجيّتكم في هذين العلمين، نودّ معرفة مدى درجة اعتمادكم على تجارب الآخرين من الإسلاميّين في هذين الحقلين؟

ج : قلت : إنّ الكتّاب الإسلاميّين لم يتوفّروا على هذين الجانبين إلّا في السنوات المتأخّرة. بَيْد أنّ الذي لاحظته هو أنّ غالبية الكتّاب الإسلاميّين ـ وقد بدأوا منذ الخمسينيات من هذا القرن يكتبون في هذا المجال ـ وجدتهم يغيبون عن تراث ضخم لأهل البيت عليهم السلام فهذا النمط من الكتّاب نظراً لعدم وقوفه على تراث أهل البيت عليهم السلام نجده يقدّم بحثاً شاحباً في هذين الجانبين ؛ لأنّ الأحاديث الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وآله أو الآيات القرآنية الكريمة آيات محدودة في الواقع، وكذلك الأحاديث محدودة إلّا أنّ أهل البيت عليهم السلام لديهم تراث ضخم في هذا المجال حيث ألقوا الأضواء على مئات المسائل النفسية والاجتماعية لذلك فإنّ الكاتب الإسلامي إذا لم يتح له أن يقف على تراث أهل البيت لا يستطيع أن يقدّم نظرية متكاملة في علم النفس أو الاجتماع من زاوية التصوّر الإسلامي لأنّ الأحاديث والآيات محدودة لديه فكيف يستطيع أن يخطّط لنظرية كاملة أو حتى شبه كاملة.

من هنا يجيئ البحث الاجتماعي أو النفسي متكلّفاً بحيث يحمّل الآية أو الحديث أكثر من واقعه فيضطرّ من هنا وهناك أن يتشبّث بوجهات نظر اُخرى وقد يستطرد في بحثه بحيث يبتعد عن الخطّ الإسلامي فيطرح وجهات نظر أرضية ثمّ يعود ثانية ليربطها بشكل أو بآخر بالخطّ الإسلامي، فيجيئ البحث في نهاية المطاف شاحباً لا يُسمن ولا يغني، لذلك عندما كتبت عن البحث النفسي والاجتماعي وجدت أنّ هناك المئات ـ ولم أقل العشرات ـ من النصوص التي تستطيع أن تؤلّف منهجاً أو نظرية شاملة في هذا الميدان وهذا ما توفّرت عليه

ـكما قلت ـ بحيث لاقى الكتابين وبخاصّة علم النفس صدى واسعاً في مختلف الأوساط ودُرِّس في أكثر من جامعة واستفيد منه في أكثر من مؤسّسة وطبّقت تعاليمه ـ أيضاً ـ في بعض المؤسّسات؛ إذ انّه ينطوي على دقائق وتفصيلات ـ هي في الواقع ـ صدى لكثير من المشكلات التي يعانونها علماء النفس والتي طرحوها وتفاوتوا في وجهات النظر حيالها حيث جاء الإسلام وطرح تصوّراً خاصّاً بها وحسم كلّ هذه المشكلات، لذلك عندما يجيئ النصّ الإسلامي ويحسم المشكلة الاجتماعية أو النفسية، حينئذٍ فإنّ الإفادة من هذا الجانب ستكون كبيرة دون أدنى شكّ.

س: نستشف من كلامكم بأنّكم لم تستفيدوا من الكتّاب الإسلاميّين في هذين الحقلين؟

ج: ذكرت أنّ الكتّاب الإسلاميّين الذين كتبوا في هذا المضمار كانت كتاباتهم جزئية وغير شاملة لذلك لم أستطع أن أستفيد منها شيئاً إلّا الوقوف عليها، أمّا الإفادة منها مادياً أو منهجياً أو لغة... الخ أستطيع أن أقول: إنّي لم أستفد منها إلّا بقدر ضئيل جدّاً، وكلّ ما لدينا ـ ولله الحمد ـ هو من عطاء أهل البيت عليهم السلام لأنّ أحاديثهم بها الكفاية ويستطيع الإنسان يتوكّأ عليها ويخطّط لنظرية في هذه المعرفة أو تلك.

س: هناك مؤتمر عُقد في مصر وكانت تدور محاورة حول قضايا علم النفس الإسلامي وقد نشرت بعض تلك الدراسات المقدّمة في المؤتمر أو الندوة في إحدى المجلّات الإسلامية وكان من بينها بحث لأحد الباحثين وقد وجّه لكم به نقداً، حيث اعتبركم تحاولون أتؤسّسوا علم نفس إسلامي على أساس شيعي ـ كما يزعم ـ فما هو جوابكم على ذلك؟

ج: الملاحظ أنّ الباحث المذكور أخذ على هذا الاتّجاه ـ أي الاتّجاه الشيعي ـ أنّه يعتمد فقط على المصادر الشيعية وقد قرأت ما كتبه في تلك المجلّة وكان

ملخّصها أنّني أعتمد على أقوال الإماميّين عليّ بن أبي طالب عليه السلام والإمام جعفر الصادق عليه السلام وهذا ما لفت نظره ، حيث طالب بأن أتجاوز هذا الجانب وأنقل عن جميع قادة التشريع الإسلامي وهذا السؤال ـ في الواقع ـ يرتبط بالإجابة السابقة التي قدّمتها قبل قليل ، وقلت فيها : أنّ المصادر التي يطالب بها هذا الباحث لا تنطوي على أيّة مادة نستفيد منها في هذا الجانب بينما وجدت تراث أهل البيت عليهم السلام مليئاً بمئات الأحاديث التي أستطعت من خلالها ، وكما قال الباحث نفسه : أنّ النظريات التي قدّمتها في علم النفس تعتمد فقط على هذا الجانب والسبب يعود إلى شحّة المصادر الأُخرى ، فليس ثمّة مصادر استطيع أن افيد منها ، مثلاً : تحدّثت عن مراحل الطفولة الأُولى والثانية وتحدّثت عن مراحل المراهقة وفي كلّ مرحلة هناك منحنيات من النمو في السنة الثالثة من العمر فالرابعة فالخامسة فالسادسة وهكذا في الثامنة والعاشرة... الخ.

هذه التفصيلات فيما يتّصل بمنحنيات النمو عند الطفل في مرحلته الأُولى أو الثانية لا أثر لها في غير مصادرنا نحن الشيعة.

لذلك لا يمكنني أن اعتمد إلّا على هذه المصادر ، فالذنب ليس ذنب الكاتب بقدر ما هو ذنب شحّة المصادر الموجودة لدى غير الطائفة الشيعية.

وأمّا أسباب ذلك الهجوم أو النقد فأمر لا أستطيع أن أتحدّث عنه لأنّني أجهل أسباب ذلك الهجوم ، قد تكون ناتجة عن التعصّب أو لعدم اطّلاعه على تلك المصادر... المهم أنّنا عندما طرحنا وجهة النظر الإسلامية طرحناه بشكل إسلامي والإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وسائر الأئمّة عليهم السلام هم باعتراف الجميع قادة التشريع الإسلامي ولا حرج في ذلك أبداً.

س : الملاحظ أنّ ثمّة علاقة وثيقة كانت تربطكم ـ خلال مسيرتكم الحياتية ـ بجملة من الرجالات المصلحة والمعروفة بضخامة وعيها العبادي وكان تأثير تلك العلائق واضحاً على مجمل نشاطاتكم حيث انعكس التأثير المذكور عليكم سلوكياً وكتابياً.

فالمطلوب هو توضيح طبيعة تلك العلاقة وكيفيّة نشؤوها وامتداداتها؟

ج : منذ الطفولة كان يتردّد على والدي جملة من الأشخاص ، وكنت أتحسّس أنّ لهؤلاء الأشخاص ميزة خاصّة تختلف عن غيرهم ، حتى أنّني أتذكّر ـ وأنا ابن الخامسة أو السادسة من العمر ـ أنّ أحد الأشخاص ـ وهو يرتدي الكوفية والعقال ـ كان يتحدّث عن الله سبحانه وتعالى وعن المحبّة والعلاقة بالله تعالى وكان له أثر خاصّ وأنا طفل أتحسّس نمطاً خاصّاً من العلاقة بين الله تعالى والإنسان بشكل مؤثّر وجذّاب لا أستطيع لحدّ الآن أن أُفسّر سببه بقدر ما استطيع أن أقول : إنّ أُسلوب الشخص وهو رجل عرفاني معروف وصدقه في التعامل مع الله سبحانه وتعالى هو الذي جعل كلامه يؤثّر في النفس حتى بالنسبة للأطفال الذين لم يبلغوا السادسة من العمر ، منذ ذلك الحين كنت ألتقي هؤلاء الأشخاص وفي بداية شبابي وفّقت ولله الحمد على التعرّف على أكثر من شخص من هذا القبيل وكان يتردّدون على محلّنا ـ ببيع العطور ـ عن طريق والدي إلّا أنّني كنت أيضاً استفيد منهم وبدأوا يتردّدون عليّ ، بعضهم يتردّد كلّ يوم ، وبعضهم بين مدّة وأُخرى ، ومن خلال هذا التردّد اكتسبت مجموعة من الأشخاص المعروفين في هذا الجانب.

واستفدت منهم ـ في الواقع ـ كثيراً من خلال القنوات الخاصّة التي كانوا يتعاملون معها. هذه القنوات هي ـ في الواقع ـ ليست بالأمر الهيّن الذي يمكن أن يقتنع به كلّ شخص إلّا إذا مارس عدّة تجارب أو بالأحرى عندما يشاهد تجارب من حصيلة هؤلاء الأشخاص حينئذٍ يستطيع أن يوفّر له قناعة يمثّل هذا السلوك.

س : ينسب إلى تلك الشخصيات أُمور من قبيل الكشف ومعرفة السرائر وهذه قضايا قد لا يقرّها العقل ، فما هو تفسيركم العلمي لتلك القضايا؟

ج : الواقع أنّ في النصوص الشرعية مؤشّرات إلى هذا النمط ولا شكّ أنّ القوانين الطبيعية هي التي تأخذ مسارها في السلوك... سلوك الناس أو في تعاملهم مع

الظواهر إلّا أنّ هناك حالات استثنائية وفي هذه الحالات الاستثنائية يمكن أن يتجاوز ما هو مألوف إلى ما هو غير مألوف وكما قلت أنّ في النصوص مؤشّرات إلى ذلك ، فالقرآن الكريم نفسه وهو يحدّثنا عن القوانين الطبيعية يؤشّر بشكل أو بآخر إلى حدوث أمثلة يتجاوز بها قانون الطبيعة مثلاً ـ بالنسبة إلى أهل الكهف : جرى لهم وضع خاصّ خارج قانون الطبيعة مع أنّهم ليسوا أنبياء حتى يقال : إنّ الإعجاز أو خرق قوانين الطبيعة لا يتمّ إلّا لنبيّ لكي يثبت بذلك رسالته ، كذلك هناك اشارات قرائنيّة تدلّ على خرق قوانين الطبيعة ، مثل إماتة أحد الأشخاص وإحيائه بعد مائة سنة وغير ذلك... أمّا بالنسبة للأحاديث فهناك عشرات الأحاديث التي تقول ما مؤدّاه : أنّ للمؤمن أربعة أعين ، اثنان ينظر بها أُمور دنياه واثنان ينظر بها أُمور غيبه... وأتذكّر من الأحاديث أنّ جماعة قالوا للنبيّ ﷺ بما مؤدّاه أنّنا عندما نجلس عندك ننسى الأهل والأولاد والدنيا كلّها ولكنّنا عندما نغادرك تعود لنا الحياة كما هي ، فأجابهم النبيّ ﷺ بما معناه لو بقيتكم على تلك الحالة لمشيتم على الماء. ونستخلص من تلك الحادثة أنّ الإنسان إذا تعامل مع الله سبحانه وتعالى تعاملاً خاصّاً ونفض يده من أوساخ الدنيا حينئذٍ فإنّ الله سوف يفتح له مجالات للنظر من خلال قنوات الغيب كذلك نقرأ في بعض الأدعية ومنها المناجات الشعبانية ونحن الآن في شهر شعبان.

لو قرأنا هذه المناجات الشعبانية لوجدنا إشارة إلى ذلك على سبيل المثال ـ يقول النصّ ـ « وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتّى تخرق أبصار القلوب حُجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك... » أمثلة هذه النصوص تؤشّر بدورها أيضاً إلى أنّ الإنسان إذا نفض عنه غبار الحياة الدنيا حينئذٍ تفتح له قنوات غيبية خاصّة في إطار معيّن يستطيع أن يفصل بها أُمور تخفى على الآخرين وهذا الجانب ـ في الواقع ـ مدعم بتجريب عشرات الأشخاص الذين التقيناهم ورأينا منهم هذه المكاشفات والتي تدلّ على تزكية النفس وتجلّيتها وتصفيتها من التعامل مع ما هو مادي صرف.

على أيّة حال : أنّ المسألة إذا كانت من الجانب العلمي ، فإنّ النصوص الشرعية هي السند في ذلك ، وقد أشرت إلى بعضها. وإذا كانت من الجانب العقلي ، فالعقل لا يستبعد ذلك ، ما دمنا نرى ليس في نطاق الشخصيات الإسلامية ، بل أنّنا قرأنا عشرات المقالات والكتب التي جرت حتى بالنسبة إلى الأشخاص غير الإسلاميّين ، ممّن تميّزوا بروح خاصّة وبمزاج خاصّ خال من الأدران ، فهناك كثير من الأشخاص يتّسمون بسلامة النفس وبساطتها على الرغم من أنّهم ليسوا إسلاميّين حتّى في هذا الاطار نقرأ في الكتب الغربية تجارب حدثت لعشرات الأشخاص من هذا القبيل ، والذي أودّ أن أُركّز عليه أنّ أمثلة هذه القضايا ليست ضرورية للإنسان أن يؤمن بها أو لا يؤمن بها فهي ليست وظيفة شرعية لكي يقتنع بها أحد الأشخاص ، كلّ ما في الأمر أنّها تمثّل حجّة على الآخرين فكما أنّ الإنسان في زمن المعصومين عليهم السلام يستطيع أن يستفيد منهم تجارب كثيرة ، حينئذٍ فإنّ هؤلاء الأشخاص في زمن الغيبة يمكن أن يكون حجّة على الشخص بالنسبة إلى تعامله مع الله سبحانه وتعالى ، فالمهمّ أن نتعامل بإخلاص مع الله سبحانه وتعالى وليس المهمّ أن نترقّب على أنماط هذا التعامل كرامات أو مكاشفات أو ما شابه ذلك... فالكرامة أو المكاشفة ـ هي في الواقع ـ أثر من آثار تصفية النفس ليست إلّا... فلذلك إذا كان هدف الإنسان هو مجرّد الوصول إلى هذه المرحلة فهذا ممّا يتناقض مع روح الكرامة أو المكاشفة لأنّ المكاشفة لا تتمّ إلّا من خلال التعامل المخلص الذي يئد الذات والأشخاص الذين رأيتهم والتقيتهم كانوا لا يرون لذاتهم أي وجود أنّهم مندكّون بهذا الوجود بشكل لا يرون لهم أي قيمة بالقياس لعظمة الكون أنّهم يرون أنفسهم ذرّة سابحة ولذلك فإنّ التطلّع إلى مرحلة معيّنة هو تأكيد على الذات وليس محواً للذات.

من هنا فإنّ الشخصية الإسلامية ينبغي أنّ لا تطمع للوصول إلى هذه الدرجة إلّا إذا وئدت ذاتها وأخفت كرامتها ومكاشفتها أمام الآخرين وإلّا إذا كان الهدف الوصول إلى هذه المرحلة وعرض العضلات حيالها حينئذٍ فإنّ المسألة تظلّ

متناقضة تماماً مع هذا الاتّجاه العرفاني.

س : الملاحظ أنّ هناك مسارين للعرفان ، مسار يعتمد على الرياضة الدينية السوية والمسار الآخر تمتزج فيه القنوات الرحمانية والغير رحمانيّة ممّا يفرز نتائج خطيرة؟ كيف نتمكّن من معرفة المسارين وما هي رؤية الإسلام حيالها؟

ج : بالنسبة للعرفان هو كما قلت : ثمّة خط واضح يتمثّل في أنّ يسلك الإنسان مع الله سبحانه وتعالى سلوكاً خالصاً ويتعامل مع الله تعالى بشكل لا يغفل عن إدراك وظيفته العبادية في الحياة فعندما يعيش الإنسان كلّ لحظاته مع الله سبحانه وتعالى حينئذٍ تتكشّف له تنمايا معيّنة يستفيد منها ويفيد الآخرين بها أيضاً هذا هو الخطّ المعروف ، يبقى أنّ هناك خطوطاً انحرافية وخطوطاً مرضية فمن الممكن لمن أُصيب بخلل في جهازه العقلي أو جهازه النفسي قد تظهر له هلوسات خاصّة يخيل إليه أنّها واقع بينما هي مجرّد أوهام تفرضها طبيعة الخلل الموجود في جهازه النفسي أو العقلي وعلماء النفس يطرحون أمثلة كثيرة لهذا النمط لذلك فإنّ التميّز بين ما هو سوي وما هو عصابي أو ذهاني إذا صحّ التعبير... التميّز يعود إلى ملاحظة نمط السلوك الذي يختطّه الشخص فإذا كان الشخص يتمتّع بجهاز عقلي سوي وذو تعامل واضح مخلص مع الله سبحانه وتعالىٰ حينئذٍ فإنّ ما يتراءا له من قنوات غيبية حينئذٍ ستكون صحيّة دون أدنى شك ، أمّا من يستطيع أن يلحظ في سلوكه خلل أو في نمط عبادته خلل... فهناك نمط من النسّاك يطعهم الجهل دون أدنى شكّ ولا يدركون الطريقة الصائبة التي ينبغي أنّ تسلك للتعامل مع الله سبحانه وتعالى ، أمثلة هؤلاء أيضاً من الممكن أن يميّزهم الإنسان ومن ثمّة فإنّ تمييز ما هو صائب ممّا هو خطأ يعود إلى ذكاء الشخص الذي يتعامل مع هؤلاء الأشخاص ولذلك يمكن التمييز بسهولة بين أشخاص مؤمنين حقّاً وأشخاص جهلة وأشخاص أيضاً غير أسوياء يعانون من خلل في جهازهم العقلي والنفسي لذلك ينبغي أن لا تخلط بين هذه المستويات والمسألة

تحتاج إلى تمييز ليس إلّا فإذا قلنا إنّ الهدف من السلوك العرفاني هو أنّ الإنسان يستطيع أن يستفيد من تجارب الآخرين حينئذٍ فإنّ هؤلاء يشكّلون حجّة مثلاً: بالنسبة للنصوص الشرعية طالما تشير إلى أنّ من عمل فلان عمل أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يبشّره بمقام خاصّ كأن يرى مكانه في الجنّة... أو إذا أراد الله بعبده خيراً أراه في منامه رؤياً تدلّه على هذا الفعل أو ذاك... الآية القرآنية الكريمة تشير إلى البشارة بالنسبة إلى المؤمن... أمثلة هؤلاء الأشخاص في الواقع يستطيعون أن يدفعوا إلى الإنسان إلى ملاحظة سلوكه فإذا رأوا من خلال مكاشفاتهم سلوكاً سلبياً لديه ينبّهوه إلى أن يسلك هذا السلوك أو ذاك فالهدف إذاً من أمثلة هذا السلوك هو الاستفادة منها لتعديل سلوك الإنسان ليس إلّا خارجاً عن هذا يظلّ البحث عن هذه المسألة مجرّد إحساس بالحاجة إلى إشباع نزعة الاستطلاع ونزعة الاستطلاع إسلامياً لا قيمة لها بل تعدّ عملاً عابثاً كما هو واضح ، فالمهم ليس أن يكون للإنسان فضول لمعرفة هذا الشيء أو ذاك المفروض أن يعدل نفسه وأن يستفيد من أمثلة هذه القنوات التي تكشف له جانباً من عيوبه أو تخطّط له جانباً ممّا ينبغي أن يمارسه من سلوك هذا هو الهدف الأوحد لمثل هذه المسألة وما عداه كما قلت يضلّ أمراً لا قيمة له.

س : من الغريب أن نجد ثمّة صورة ترتسم في ذهنيّة شريحة واسعة من المثقّفين عن الشخصية العرفانية حيث يعتقد هؤلاء المثقّفون بأنّ العرفاني يؤثر العزلة والانكفاء على النفس ولا يسمح لنفسه بأن يحتك بالمجتمع خشية أن يتأخّر في سيره وسلوكه نحو الله...؟!

ج : طبيعي ثمّة تفاوت في سلوك الناس ، فالشخصية المنعزلة أو الشخصية المتكيّفة اجتماعياً لا تنحصر في هذه الأنماط ، بل كلّ الشرائح الاجتماعية نجد فيهم من يميل إلى العزلة ومن يميل إلى الألفة الاجتماعية ، وهذه المسألة تتصل من جانب بطبيعة تركيبة الشخصية وسلامتها من الأمراض النفسية أو وقوعها في هذه

الأمراض، من جانب آخر فإنّ المسألة نسبية فترى شخصاً ينعزل اجتماعياً لظروف خاصّة تفرضها عليه، وهناك من ينعزل لسبب مَرَضي، فينبغي أن نميّز بين هذين النمطين، من ينعزل لأنّ الظروف تدفعه إلى ذلك، ومن ينعزل لأنّ واقعه النفسي المريض يدفعه إلى ذلك، وهؤلاء العرفانيّون ـ في الواقع ـ نظراً لتعاملهم مع الله سبحانه وتعالى وأُنسهم به حينئذٍ لا يجدون الحاجة ملحّة بأن يتعاملوا مع الناس في سلوكهم الذي لا صلة له بالله فهم مقيّدون بأن لا يحضروا مجلساً إلّا به ذِكر الله سبحانه وتعالى وهم مقيّدون بأن لا يطرحوا حديثاً إلّا به فائدة، حينئذٍ لا يجدون ثمّة ضرورة بل يجدون حرجاً في ذلك إذا أرادوا أن يتكيّفوا اجتماعياً مع كلّ الطبقات لأنّ في ذلك ضياعاً للوقت. ولكن في الوقت نفسه ـ من خلال تجربتي مع هؤلاء ـ وجدت أنّ كثيراً منهم يتكيّف اجتماعياً بشكل غريب ويخفي نفسه بشكل غريب أيضاً بحيث لا يعرفه إلّا أفراد قلائل فهو يتعامل مع الناس إلّا أنّ ذهنه مشغول بالله سبحانه وتعالى وهو يتحدّث إليهم إلّا أنّه بشكل أو بآخر يحملهم على أن يدخلوا أحاديث ذات فائدة فهو يتعامل اجتماعياً كالآخرين إلّا أنّه في الحين ذاته لا يعزل نفسه عن الله سبحانه وتعالى وهناك من لا يجد الظروف تسمح له بذلك فيضطرّ بأن يعتزل اجتماعياً. إذن ليس هؤلاء جميعاً على خطّ واحد، بل كما قلت بعضهم يتكفّأ اجتماعياً وبعضهم يعتزل اجتماعياً وبعضهم بين بين، كلّ واحد منهم يعرف وظيفته فهناك من الأشخاص ما يحقّق نفعاً اجتماعياً حينما يتّصل بالآخرين وهناك من يجد أنّ النفع يفرض عليه أن ينعزل، إذن المسألة نسبية وليس هناك خطّ معيّن ثابت يحدّد بأنّ هؤلاء تميّزوا بسمة انعزالية أو سمة مشابهة لها.

س: هناك من الشخصيات المنتسبة إلى العرفان تجعل من الناس ينفرون منها بسبب طريقة تعاملهم المتّسمة بالخشونة وعدم التسامح... إلى درجة تجد جملة من الناس يخلعون على هؤلاء الأشخاص سمات من قبيل العقدة والتكبّر... الخ؟

ج : قلت : إنّ الشخص ينبغي أن يميّز بين عدّة أنماط فهناك شخص هو بالفعل معقّد إلّا أنّ تعقيده ليس ناتجاً عن انخراطه في هذا الخطّ وإنّما بناءً على نمط تركيبته التربوية ونمط آخر يتسّم بالجهل أي أنّه لا يعرف كيف يسلك مع الآخرين السلوك الصائب فالذنب ليس ذنب الخط نفسه ، بل ذنب الشخص الذي يتعامل مع هذا الخط ، فالشخص إذا لم يكن ملمّاً بمبادئ التشريع الإسلامي وجوهر هذا التشريع حينئذٍ قد يخطأ في سلوكه كما وجدنا ـ فعلاً ـ أشخاصاً يتّسمون باصفرار الوجه وبالعزلة والعقدة... الخ وهؤلاء دون أدنى شكّ جهلة لأنّ الواعي عبادياً يستحيل أن يسلك مثل هذا السلوك.

أنا أعرف أشخاصاً كانت الابتسامة لا تفارق شفاههم البتّة هؤلاء منذ أن يستيقظون صباحاً وحتّى الليل لا يشغلون بغير ذِكر الله ولكنّهم في الوقت نفسه تحسّهم معك أين ما ذهبت أنّهم في السوق والشارع والمسجد والاجتماعات يتعامل معك أحدهم بهذا الأُسلوب : هشّ ، بشّ ، ضاحك ، خلوق ، ليّن الجانب ، تتمثّل فيه كلّ الأخلاق الحسنة هذا هو النمط الذي يتناسب مع الخط المذكور أمّا النمط الآخر الذي أشرت إليه فهو ـ في الواقع ـ أمّا أن ينسب إلى النمط الجاهل أو النمط الغير مكتمل أي النمط الذي تسيطر عليه تركيبته النفسية أكثر ما تسيطر عليه تركيبته الأخلاقية أو العبادية أو العرفانية ولذلك فإنّ التمييز بين هؤلاء ينبغي أن يتمّ ليس على حساب شجب هذا الخط بل من خلال الذهاب إلى القول : بأنّ نمط الواعي وحجمه ومقداره هو الذي سيحدّد هذه الشخصية العرفانية أوتلك والمسألة لا تتّصل بالشخصية العرفانية فقط بل بمطلق الشخصية العرفانية فالإسلاميّون أنفسهم ـ بعيداً عن هذا الخط ـ نجد من يتّسم بأخلاق حسنة ومن يتّسم بأخلاق سيّئة ومن هو بين بين فالمسألة تتّصل بمقدار الوعي العبادى الذي يمتلكه الشخص فبقدر ما يتضخّم وعيه نجد سلوكه يتصاعد إلى ذروة الأخلاق الحسنة لأنّ الشخصية الإسلامية والنبيّ ﷺ... نموذجاً لنا وصفه القرآن الكريم بحسن الخلق.

س : هناك جمع من أصحاب الفكر والمعرفة يرغب في توظيف اختصاصه إسلامياً ولكن لا يعرف كيفيّة انجاز ذلك؟ فكيف توجّهون مثل هذه الطاقات؟

ج : طبيعي ثمّة معارف متنوّعة ، فبعض العلوم تتّسم بالحياد مثل العلوم البحتة والعلوم الطبيعية ، بيد أن كلّ شخص ينبغي أن يوظّف ما هو محايد للإسلام وإلّا فإذا افترضنا أنّ أحد الكتّاب سوف يتناول موضوعاً يتعلّق بالطبيعة ، قد يصف لك هذه الطبيعة من خلال خاطرة فنّية وقد يحلّلها علمياً ولكن فائدة هذا التحليل العلمي من جانب أو فائدة تلك الخطرات الفنّية من جانب آخر ما هي؟ وكيف توظّف إسلامياً ، المفروض يمثّل هذه الحالة : أنّ الباحث الذي يتحدّث عن القوانين العلمية للطبيعة حينئذٍ يستطيع أن يستثمر هذا الجانب ، ويربط بينها وبين إبداعه سبحانه وتعالى للطبيعة وتسخيرها للإنسان وبهذا يكون قد وظّف عمله العلمي من أجل الله ، وهكذا عندما يصف الطبيعة من خلال خاطرة فنّية على سبيل المثال : حينئذٍ فإنّ مجرّد الوصف لا يحقّق هدفاً ذا بال ولكنّه يستطيع أن يربط أيضاً بين الطبيعة وبين إبداعها من خلال الله سبحانه وتعالى وبذلك يكون قد استثمر هذا الجانب ووظّفه من أجل الله تعالى.

المهمّ أنّ كلّ نقطة يجب أن يوظّفها الإنسان ويربطها بالله سبحانه وتعالى لحقيقة واضحة معروفة وهي : كلّ شيء ما خلا الله باطل ، وكلّ شيء هو بفاعلية من الله سبحانه وتعالى ، الإنسان ، الطبيعة ، مطلق المخلوقات الأُخرى ما هي إلّا فيض من الله سبحانه وتعالى ، فلو سحب الله لحظة رعايته للكون لتهدّم دون أدنى شكّ ، فلذلك فإنّ النظر للكون بكلّ ما يدبّ فيه من خلال الله سبحانه وتعالى وربطه بإبداعه حينئذٍ يكون مثل هذا العمل عملاً واقعياً من جانب وعبادياً من جانب آخر...

س : الملاحظ عليكم أنّكم غالباً تهملون الإشارة إلى ذكر المصادر التي تنقلون عنها بعض النظريات أو وجهات النظر؟!!

ج : يستخدم المصدر على عدّة مستويات ، مرّة يستخدم المصدر كبحث أكاديمي موثّق وهذا ما يتوفّر في الجامعات كتحضير رسائل الماجستير والدكتوراه أو حتّى في مطلق النشاط العلمي الذي يتطلّب توثيقاً للفكرة المطروحة هناك ، فعليه ينبغي أن نميّز بين نمط البحث المطروح الملاحظ أنّ المنهج الأكاديمي أصبح منهاجاً جافّاً لدرجة أنّ الباحث يتكلّف كثيراً في الرجوع إلى المصدر حتى لو لم تكن الحاجة داعيةً إلى ذلك وهذا ما نلاحظه في عشرات البحوث المطروحة ، وحتّى أنا شخصياً أتذكّر منها إلاّ أنّني انسياقاً مع التقليد العلمي الأجوف وهو أن أذكر المصادر كنت أتكلّف ذكر المصادر التي لا ضرورة لها أبداً وبالفعل كانت هذه البادرة تقابل بالاستحسان من قبل الهيئات العلمية في حيث أنّني كنت أضحك في أعماقي من هذا الزيف العلمى ، هناك ـ على سبيل المثال ـ عندما أنقل نصّاً شعرياً حينئذٍ اضطرّ لذكر المصدر أو حينما أُريد أن أذكر نصّاً إسلامياً حينئذٍ من الأفضل أن أُشير للمصدر ولكن هناك أبحاثاً عامّة تنطوي معطياتها على دلالات الأحاديث المعروفة عند الجميع حينها فما هي الضرورة إلى ذكر المصدر؟

على سبيل المثال : لو أردت أن أتحدّث عن فضيلة الصبر ألا يكفي أن أُشير إلى أنّ الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأحاديث المعصومين عليهم السلام كلّها تؤكّد على أنّ الصبر فضيلة.. الخ حينئذٍ لا أحتاج إلى ذكر الآيات واحدة واحدة.. السورة الفلانية... الآية رقم كذا.. المصدر الفلاني للأحاديث.. هذا كلّه لا ضرورة له أبداً لأنّني أتحدّث عن مفهوم الصبر بشكل عام وعن مرتكزات موجودة في أذهان المتلقّين جميعاً وهكذا عندما استعرض النظريات على سبيل المثال : وأنا أكتب عن نظريات علم النفس والموقف الإسلامي منها حينما أذكر : نظرات رواد معروفين ، وأفكارهم مطروحة ومعروفة لدى الملايين هنا لا أجد حاجة إلى أنّ أذكر المصدر الذى يوجد فيه رأي المفكّر الفلاني أو رأى المفكّر الآخر لأنّ هؤلاء المفكّرين معروفين في وجهات نظرهم يعرفها القارئ تماماً ، حينئذٍ استشهادي في الكتاب ونوع طبعته وصفحته

ورقمه... الخ أعدّه عملاً عابثاً لا فائدة فيه أبداً أو لا ضرورة له على الأقلّ.

فلذلك أنّ استخدامي للمصدر أو عدم استخدامي يعود إلى نمط البحث المطروح فبعض الأبحاث يتطلّب ذكر المصدر، مثلاً: عندما كتبت تاريخ الأدب العربي شحنته بمئات المصادر لأنّه مشحون بمئات النصوص المأثورة عن المعصوم عليه السلام في هذا الجانب أو ذاك وحينئذٍ يكون المصدر ضرورياً لأنّ القارئ سوف يعود إلى هذه المصادر ويفهم ما تنطوي عليها من أحاديث ذات معطى فنّي تتوفّر فيه الخاصية الفنّية وما إلى ذلك... أمّا عندما اتحدّث عن جانب آخر بالنحو الذي أشرت إليه سابقاً حينئذٍ لا أجد ضرورة لذكر المصادر.

إذن ذكر المصادر وعدمها يخضع للسياق الذي يتطلّب حيناً ذكره وحيناً لا يتطلّب ذلك، وليس لشيء آخر أبداً، والعملية سهلة جدّاً لا تكلّف الإنسان شيئاً سوى أن يعود إلى رقم الصفحة وطبعة الكتاب وهذا قد يستطيع أن يتوفّر عليه تلميذ في السنة العاشرة من العمر ولا يحتاج إلى موهبة علمية أو تتبّع... الخ.

س: المتتبع في سيرتكم الحياتية، يلاحظ بأنّكم قد قضيتم شطراً كبيراً من الحياة في حانوتكم المعروف في مدينة النجف الأشرف، فما هي ذكرياتكم عن ذلك الحانوت؟

ج: الواقع أنّ هذا المحل محل مبارك، نظراً لنطوائه على عدّة فوائد فالكسب أساساً هو عمل فيه ثواب وأحاديث أهل البيت عليهم السلام كلّها تنصّ على أن يأكل الإنسان من كدّ يده ومجرّد أن يحترف هذه المهنة أو تلك فهو عمل ثواب يكتسب من خلاله العيش الذي طالبنا الله سبحانه وتعالى توفيره، النقطة الثانية الذي استفدت منها هي: الإخلاص في المعاملة فالملاحظ أنّ كثيراً من الكسبة والتجّار وغيرهم من خلال حرصهم على المادة يمارسون الكسب بشكل غير مشروع حرصاً على توفير المادة، ولذلك نجد أنّ النصوص الإسلامية طالما تطالب المتبحّر أن يتفقّه أوّلاً حتى لا يرتطم بما هو محرّم نظراً لما ينطوي عليه العمل التجاري من مسائل

يستغلها الإنسان في صالحه المادي وكان والدي رحمه الله... معروفاً بتديّنه وإخلاصه في العمل بحيث كان محلّنا على صغره ناجحاً في هذا المجال للسمعة الطيّبة التي اكتسبها والدي من خلال بيعه العطور وقد تعلّمت ـ بطبيعة الحال ـ منذ طفولتي منه الإخلاص في العمل والإجمال في الطلب أيضاً. طبيعياً في البداية لم أكن واعياً إلى هذا الجانب فربّما كنت أتأخّر إلى وقت من الليل طمعاً بالحصول على مشتري جديد وأحياناً كنت أُبكّر في الذهاب إلى السوق للسبب نفسه إلّا أنّني بعد أن قرأت الأحاديث التي تحمل على الداخلين إلى السوق في أوّله والخارجين في آخره حينئذٍ استفدت من هذه التوصيات بأنّ العملية ينبغي بأن لا تقترن بالحرص على المادة بل بالإجمال في الطلب وأنّ الله هو الرازق... وأيضاً ممّا استفدت منه بالنسبة إلى مسألة الصلاة كنّا في المواسم المزدحمة قد نتأخّر أيضاً عندما يحين وقت صلاة الظهر أو المغرب فكنّا مشغولين بالمشترين إلّا أنّني بعد أن وعيت أنّ المسألة تتّصل بالله سبحانه وتعالى وليس بذكاء الإنسان أو نشاطه حينئذٍ كنّا نترك العمل وقت الصلاة مهما كان الزحام وبالفعل كنّا نجد أن الطلب على الشراء يزداد بل نجد أنّ كثيراً من الأفراد ينتظروننا لحين عودتنا من الصلاة لهذا الغرض وهذا كلّه يؤكّد ما تقوله النصوص الشرعية : أنّ الإنسان عندما يتّجه إلى الله سبحانه وتعالى حينئذٍ فإنّ الرزق هو على الله وليس على ذكاءه أو نشاطه... الخ ومن المسائل التي استفدتها هي كثرة الآتين والمتعاملين فالمحلّ كان ـ في الواقع ـ محطّاً لكافّة الشخصيات من الشخصيات الغنية إلى الشخصيات الفقيرة ومن الشخصيات التي تحتلّ موقعاً اجتماعياً إلى الشخصيات التي لا موقع اجتماعي لها أيضاً من حيث الاتّجاهات والمذاهب والمستويات كنّا نواجه أشكالاً من البشر وهذه كلّها تفيد إثراء تجاربنا في الحياة والاستخلاص لعضات كثيرة من خلال هذا الحشد الاجتماعي الذي نواجهه يومياً. والأهمّ من ذلك كلّه : أنّ الذي وجدته هو أنّ العمل إذا كان من كسب اليد ومقروناً بالإخلاص من جانب ومقروناً بالتوكّل على الله من جانب آخر فإنّ هذا لا يحتجز الإنسان من

أن يمارس سائر أعماله الأُخرى فمثلاً: كنت أتفقّه وأنا جالس في المحلّ وأقرّ أو أتلو ما أجده متوفّراً من الأدعية والأذكار والأوراد.. الخ في المحل نفسه وأُؤلّف وأكتب في المحل نفسه ولذلك لم يكن العمل حاجزاً عن ممارسة سائر الأدوار الثقافية التي كنت معنياً بها منذ الطفولة فالجمع بين الكسب من جانب وبين التفقّه بالدين من جانب ثاني وبين التوفّر على الكتابة من جانب ثالث كلّ هذه لم تكن حاجزاً عن تحقيق هذه المستويات من الممارسة العلمية وهذا ـ في الواقع ـ ما كنت أجده منعكساً على كثير من الأفراد الذين كانوا يمتنعون عن ممارسة العمل الحرّ بحجّة أنّ العمل الثقافي يمنعهم من ذلك وأنّ الذي اكتسبته من خلال التجربة أنّ العكس هو الصحيح تماماً. فالإنسان يستطيع أن يوفّق بين كسب يده وبين عمله الثقافي بدلاً من أن يتجّه إلى منعطفات أُخرى قد تكون بها شبهة وقد يفتقر بها إلى النيّة العبادية الخالصة بخاصة إذا اقترن العمل العبادي بالحصول على المادة فكثير من الأفراد نجدهم ينخرط في هذه المؤسّسة أو تلك ليس من أجل أن يكتب من أجل الله سبحانه وتعالى بل لأنّ الوضع المعيشي يتطلّب ذلك إذا كان الإنسان مستغنياً عن هذا الجانب من خلال عمل يده حينئذٍ فإنّ العمل الثقافي الذي يتوفّر عليه سيكون مقروناً بمرضاة الله سبحانه وتعالى.

س : المعروف أنّكم كنتم تذهبون صباحاً إلى الكلّية من أجل التدريس وبعدها تكملون عملكم في المحل نفسه فكيف كنتم تواجهون بعض الانتقادات التي يفرضها العرف الاجتماعي.. بالنسبة إلى دكتور في الكلية لا يتحرّك من بيع العطور في السوق؟!

ج : في الواقع عندما كنت أذهب إلى المحل كنت أذهب بنيّة هي مساعدة الوالد، وهذا عمل يترتّب عليه الثواب لأنّ الوالد رجل كبير السن ومتعبّد وحينئذٍ عندما أكون قد ساعدته في المحلّ أكون قد مارست عملاً مرضياً إن شاء الله، أمّا بالنسبة للنظرة الاجتماعية الواقع أنّ نفس المحل هو محل بيع العطور وبيع العطور شيء

فيه من الأناقة والذوق و... الخ فنفس ممارسة هذه المهنة هي لا غبار عليها اجتماعياً كلّ ما في الأمر أنّ كثيراً من الأشخاص وهو ينقصه الوعى العبادي ويبحث عن السمعة والجاه وما إلى ذلك قد لا يرتضي ذلك. وبالفعل أتذكّر بعض الطلاب كانوا يستنكفون من ذلك فكان أولياء الطلّاب يطالبونني بأن أنصح أبناءهم في أن يساعدوهم في أعمالهم التجارية وهم طلاب فكانوا يطالبونني بأن أوضّح لهم بأنّني أنا أُستاذهم لا أستنكف من مساعدة الوالد في عملي التجاري فكيف هم طلاب ويستنكفون من مساعدة آبائهم في أعمالهم.. هذه النظرة في الواقع هي من مخلّفات الوضع الاجتماعي الذي يُعني بالزخرف والسمعة الزائفة وما إلى ذلك... أمّا الشخص الذي ينطلق من تصوّر عبادي للمسائل حينئذٍ لا يقيم وزناً لهذه المسائل ومن ثمّة تصبح المسألة طبيعية جدّاً، أتذكّر أنّ أحد المحاضرين الذي كان يأتي من مكان بعيد ليحاضر في نفس الكلّية زارني في المحلّ ووجّه لي هذا السؤال: ما هو إحساسك وأنت تجلس على منصّة التدريس ثمّ تجيئ إلى هذا الحانوت الصغير تبيع به العطور؟

طبيعياً ،كنت أفهم الدوافع التي تدفع هذا الأُستاذ الجامعى المعروف ولا أذكر اسمه لإثارة مثل هذا السؤال ، لأنّه يستنكف مائة بالمائة بأن يقوم في مثل هذا العمل وربّما خيّل إليه أن يريد أن يخجّلني بذلك. ولكنّني أجبته بإجابة هي لا فرق أبداً بين أن أُحاضر هناك وأن أجلس هنا العملية واحدة لأنّها ممارسة عبادية في الحالتين ، هنا أُساعد الوالد وهناك أُوجّه الطلاب ولا تعارض بين المسألتين.

س : سألت أكثر من شخص ـ كان قد تتلمذ على أيديكم في الكلّية ـ عن طريق تدريسكم وكلّ أجاب بأنّ أُسلوبكم في التدريس كان يختلف عن كافّة الأساتذة حيث يتمثّل أُسلوبكم بكلمات محدودة لا تتجاوز بعض الدقائق في المحاضرة ا لواحدة فما هي الدواعي التي جعلتكم تتّخذون هذا المنهج؟

ج : عندما عيّنت في السنوات الأُولى كنت أُمارس التدريس بالشكل الاعتيادي وهو إلقاء محاضرة باللغة العربية الفصحى ولكنّ النتيجة التي انتهيت إليها هي أنّني وجدت أنّ المحاضرة تدخل من الأُذن اليمنى وتخرج من اليسرى بدون أي فائدة مترتّبة على أمثلة هذه المحاضرة لذلك وجدت أنّ الفائدة العلمية أو العبادية منتفية في مثل هذا الأُسلوب من هنا اتّخذت أُسلوباً آخر وهو أُسلوب السؤال والجواب وهو كنت أُطالب الطلاب بأن يقرأوا المادة سلفاً ثمّ أُوجّه إليهم أسئلة ومن خلال هذه الأسئلة التي قد تكون مصيبة وبعضها مخطئة فكنت اعتمد على طالب بإثارة سؤال معيّن وإذا أخفق بالإجابة أُكلّف طالباً آخر وهكذا أدع الطلاب جميعاً متهيّئين لأن يجيبوا على هذه الأسئلة وفي نهاية المطاف أتدخّل فأُكمل النقص الموجود في الأسئلة وفي هذا الأُسلوب كان الطلاب جميعاً يستفيدون من المادة وأنا شخصياً أُحسّ بأنّني استطعت فى إدخالها إلى أذهانهم. طبيعياً ، الشكلانيون بشكل عام قد لا تعجبهم مثل هذه الأساليب وسمعت من بعضهم يتّهمونني بالكسل ولا مزاج لي بالتدريس وكذا وكذا.. وكلّها تُهم تستثير السخرية دون أدنى شكّ. والمهم ، هو ملاحظة هذه النقطة علماء النفس والتربية عندما وضعوا أساليب في التدريس إنّما وصفوا هذه الأساليب لمصلحة الطلاب ولمصلحة توصيل المادة إلى الأذهان لذلك أنّ الجمود على طريقة معيّنة بشكل آلي وميكانيكي يكشف عن عطل الذهن الموجود لدى الأُستاذ والطالب أيضاً المفروض أنّ نوصّل المادة إلى ذهن الطلاب وحينئذٍ أي أُسلوب نتّبع في هذا المجال فهو الأفضل دون أدنى شكّ بخاصّة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ هدفنا من التدريس ليس ايصال المادة العلمية منعزلة عن المعنى العبادي لها فعندما كنّا ندرّس مادة النقد الأدبي أو البلاغة أو أيّة مادة أُخرى حينئذٍ كنّا ـ في الواقع ـ نوظّفها إسلامياً وننتخب نقاطاً معيّنة في هذا الجانب لإدخالها في أذهان الطلاب. من هنا كنت أطرح مسائل معيّنة وأُشير سلفاً إلى أنّ الأسئلة ستتركّز على هذا الجانب وهدفي من ذلك أن يتّجه الطالب إلى هذه المادة دون غيرها لأنّها تنطوي

على هدف عبادي خاصّ قد لا يعيه الطالب أبداً إلّا أنّني أسلك سلوكاً خاصّاً أحمله على أن يتّجه إلى هذه المادة المعيّنة دون غيرها وأوفّر له وقتاً دون أدنى شكّ إلّا أنّ الهدف من ذلك هو عندما يركّز على المادة الفلانية فحينئذٍ بشكل لا واعٍ ستختمر هذه الفكرة في ذهنه وستنعكس على سلوكه لاحقاً دون أن أُشعر الطالبَ بذلك. وبالفعل فإنّ كثيراً من الطلاب وهم يسخرون من هذا الأُسلوب الذي كنت أتّبعه إلّا أنّهم عندما كانوا يتخرّجون حينئذٍ بدأ الكثير منهم يستوعب المغزى الذي كنت استهدفه في حينه وكثير منهم صرّح لي بأنّه الآن بدأ يفهم أهمّية الأُسلوب المشار إليه والذي كان يقترن في وقته بعدم قناعة الطلاب وحتّى الأساتذة.

الفصل السابع

البستاني

في دائرة الضوء

الشيخ محمّدمهدي الآصفي

«... فقد عرفت هذا العبد الصالح منذ أربعين سنة، وكانت بداية تعارفنا في الأوساط الفكرية والثقافية للنجف الأشرف، وكان حفظه الله يومئذٍ شاباً طموحاً متطلّعاً نشطاً في هذه الأوساط.

وقد تحوّل ذلك الطموح خلال أربعين سنة من عمره المبارك إلى أعمال فكرية وثقافية إسلامية وقرآنية قيّمة وجليلة في أسلمة المعرفة الإنسانية في حقول النفس والاجتماع والفنّ...

وقد وفّقه الله تعالى خلال هذه الفترة من عمره المبارك لخدمات علمية جليلة في حقول عديدة من المعرفة الإسلامية، ولا سيّما في حقول البيان والنقد والدراسات الأدبية.

أسال الله تعالى أن يمدّ في عمره، وينعم علينا بالمزيد من علمه وفكره الخصب...».

محمّدمهدي الآصفي

٩ ذي القعدة ١٤١٧هـ

السيّد الدكتور زهير الأعرجي

لا شكّ أنّ الأدب لون من ألوان الفنون الإنسانية الذي يمنحنا شعوراً بالافتخار بهويّتنا الثقافية والاجتماعية والدينية. فهو ليس تجميع عشوائي لكلمات متفرّقة على

قطعة من الورق، بل هو بناء معرفي إنساني على لوح الواقع. والدخول إلى عالم الكلمة من نثر وشعر ونقد وتفسير، يجعلنا نحسّ بقيمة الجهد الذي يبذله الكاتب ويصنعه مثمراً يانعاً بين ثنايا السطور والفقرات. فالكاتب المبدع يصنع الحقائق على صحائفه البيضاء، ثمّ يقارن الغثّ بالسمين، ويمحّص الخرافة عن الحقيقة، وينظر إلى التقاليد والأعراف ثمّ بعدها يضع نظريته الأدبية على طبق من فضّة إلى الأُمّة المتعطّشة وإلى الأجيال المتلاحقة بعدها من أجل استيعابها واستلهام دروسها العلمية والأخلاقية.

ومن الطبيعي فإنّ الكاتب الإسلامي الملتزم بتعاليم الشريعة لا يشبع عقل القارئ وينمّي فكره فحسب، بل يحرّك في روحه دوافع الإيمان بالغيب والاعتقاد برسالات السماء. فذلك الكاتب، وبسبب قدرته الخارقة على الابداع، يفهم ما يريده المكلّف المثقّف من حاجة فكرية وزاد ثقافي يعينه على شقّ طريقه الصاخب في هذا البحر الاجتماعي المتلاطم. وهذا لا يتمّ إلّا عن طريق صعب وهو أن يتسلّق الكاتب جدار نفسه ويهرب عنها لينظر بعين القارئ في المجتمع الكبير أُطروحات الفكر والمعرفة التي طرحها في كتابه. ومن هذا الفكر الذي نحن بصدده هو فكر الدكتور محمود البستاني، الذي لمسنا فيه كلّ عناصر الجمال والخير والابداع.

فقد عشنا مع الدكتور البستاني، في كتبه وأفكاره وشخصه، أجمل اللحظات. ورأينا من خلال أفكاره طبيعة الفنّ والنفس والاجتماع في الإسلام؛ بل جعلنا ننظر إلى مباني العمارة الفنية القرآنية وكأنّها حقيقة أمام أعيننا، وجعلنا ننظر إلى التاريخ الأدبي من زاوية العين الرشيدة المعصومة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام لا من زاوية عيون الطغاة والظالمين، ووضع لنا صورة الإنسان المثقّف بإطارها الفكري البعيد عن الحواجز العرقية الضيّقة. وبكلمة، فقد كان الهدف الفكري للأُستاذ البستاني ثابتاً واضحاً ومتلخّصاً بكلمتين: (الوعي) و(الأصالة) في طرح المفاهيم الإسلامية. وعن طريق فنّ ربط الكلمات وصياغة الأفكار الجديدة، جعل البستاني للثقافة الأدبية الشيعية مقعداً متميّزاً في قاعة الثقافة الإنسانية.

فقد أضاف الأُستاذ البستاني إلى العلوم التجريبية طعماً أدبياً رائقاً، وعطراً شذياً

ندياً. بل انّه حاول بناء المفاهيم العلمية لعلوم النفس والاجتماع والقيم بناءً فكرياً أدبياً مسبوكاً فيه الكثير من الإيجاز والعمق والبلاغة. ولا شكّ أنّ جسراً من هذا القبيل يربط بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية ليس من السهولة تأسيسه أو تشييده ما لم يتسلّح ذلك المؤسّس بعمق فكري وطبيعة استدلالية وذوق أدبي جمالي. وقد كان الدكتور البستاني جامعاً ومتسلّحاً بكلّ تلك الأدوات الإبداعية في عمله الفكري الرائع الذي أتحفنا به. فأعماله الفكرية المتعدّدة مثل (تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي) و(في النظرية النقدية)، ودراساته القرآنية المتعدّدة قد أثرت كلّها الفكر الأدبي الملتزم عند الطائفة، ووضعت المصنِّف في مصاف كبار أُدباء العرب المعاصرين. فأصبح الأُستاذ البستاني يمثّل مدرسة فكرية لها خصائص متميّزة منها: جمالية الذوق، وإسلامية المنهج، وإبداعية المحتوى.

والحمد لله ربّ العالمين

زهير الأعرجي

١ رمضان المبارك ١٤١٧هـ

الكاتب الأديب ضيـاء موسى
وردة من حديقة البستاني

(١)

أجئ إليك، أرى أصابعك تختزل الحروف إلى نغمات خالدة، أُشاهد الكلمات مصبوغة عندك بلون أخضر، تتلألأ مثل ندى الفجر، سيرتك الذاتية سرب من سنونو، ترفرف بأجنحة الابداع الأدبي، تحلّق في سماء مثالية، ترجع في المساء إلى أعشاشها الربيعيّة، تحكي للأجيال قصّة شاعر، شاعر صاغ من عطر الزهور قصائد، قصائد تشعّ بالسمو الروحي، تحث الإنسانية على التمسّك بالأخلاق، تدعو البشرية إلى السير نحو المبادئ الإلهيّة، تدعوها إلى الالتزام بتعاليم الرسول الأعظم،

الرسول الذي حطّم أصنام قريش، أمر الإمام علي أن يكتب على جدران الكعبة: الفدائي شجرة مزروعة في رياض الجنان، المجاهد تندلع الفتوحات من بين يديه، الشاعر الثائر يسهر على ضفاف المدافع، يدنو من أبطال التاريخ، يصيغ لون الثورات بلون الدم، دم الإمام الحسين ما زال مانحاً رمال الصحارى ربيعاً دائماً، اليد المقطوعة الاصبع تمنح السحاب مياه الجراح صباح مساء، أبعدت عن المسلمين الزمان الأسود، الزمان الذي يعبد فيه أُميّة، الزمان الذي يدمّر فيه معاوية الذات الإنسانية الصافية، الزمان الذي يقذف فيه يزيد مستقبل الكون نحو الوديان المنبوذة، الشاعر الثائر يقاتل على مرّ العصور أفاعي الظلم والاستبداد، يرفع فوق المدن رايات الحرية والعدالة الاجتماعية.

(٢)

محمود البستاني شاعر موهوب، أديب يتدفّق بالنور، سرّ نجاحه تعامله مع مستويات متعدّدة الأشكال فنّياً، يرسم بقصائده لوحات رائعة، قصائده بالغة الجمال، عميقة الدلالة، مخضوضرة بالفنّ العالي، منذ الخمسينات من هذا القرن وموسيقاه الشعرية لا يمكن تقليدها، صاغها بفرادته الابداعية، قوافيه تزهو بالجديد، الجديد الذي يحارب آنات الأفعاعيل، الجديد الذي يعادي مهرجانات الأحسنت الرسمية، محمود البستاني واصل حياته شاعراً، ناقداً، مفكّراً، أُستاذاً جامعياً، مفسّراً لكتاب الرحمن الرحيم، متهجّداً في محراب العبادة، كلّ مؤلّفاته متوهّجة بجمرات الابداع، مُنِح وسام الغربة، الغربة المحفورة على جبينه، آهات المنفى أنبتت الشيخوخة في جسده، من يبتعد عن الوطن تنهال عليه الرماح، من يبتعد عن النجف تتقاذفه أمواج الحزن، النجف بحر يموج بالشعر الفصيح، النجف مدرسة صفوفها الفقه والأُصول، النجف جامعة للتاريخ والنقد الأدبي، محمود البستاني الابن الوفي لجامعة النجف، الابن الذي ساهم في تجديد قوافي شعرها البالية، ستبقى الأجيال ترتوي من شلالات فكره، الفكر المشحون بالعمق وبالديناميكية، المفعم بالقيم الأخلاقية.

بعض ما ورد في ترجمته
في جملة من الكتب والدوريات

«لم أستطع الحصول على معلومات لترجمة الشاعر، له قصيدتان عموديتان بقافية موحّدة تعتبران من أجمل ما ضمّت هذه المجموعة، وخاصّة قصيدته «ألف مرحى للدماء الزاكية» التي استعرض فيها بطولات الجزائريّين وجرائم فرنسا».

الثورة الجزائرية في الشعر العراقي

عثمان سعدي

ص٣٦٢، القسم الثاني

«ولد سنة ١٩٣٧م، وحصل على الماجستير سنة ١٩٦٩، وفي سنة ١٩٧٠ عيّن أُستاذاً في كلية الفقه ثمّ حصل على دكتوراه في النقد الأدبي عام ١٩٧٣ من جامعة القاهرة.»

«دكتوراه في النقد الأدبي وأُستاذ في كلية الفقه، ومؤلّف كتاب علم النفس الإسلامي الذي يدرّس في الجامعات، ويعدّ عالماً من علماء الفقه الإسلامي، حيث كتب دورة فقهية كاملة بالإضافة إلى نشاطاته الثقافية والفكرية، ويعدّ من كبار مفكّري النجف والعالم الإسلامي».

موسوعة النجف الأشرف: المجلّد الثاني

«وأستعيد سوق النجف الكبير: فأقف عند دكّان صغير فيه لبيع العطور، لاتشكّل مجموع مساحته عمقاً سوى ٧٥ خمسة وسبعين سنتمتراً مربّعاً، تسأل عن اسم البائع الوقور الهادئ الذي يجلس فيه يبيع قنينة العطر بـ(٢٠) عشرين فلساً عراقياً، وتُفاجأ بالجواب: إنّه الدكتور: (محمود البستاني)، صاحب النظريات النقدية الجريئة في ما يتّصل بالشعر والأدب».

كتاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف للكاتب علي البهادلي

«شاعر مبدع وأديب جليل، وكاتب فاضل ومن خريجي كلّية الفقه، ذا أدب وخلق كريم، وإباء وشهامة وأريحيّة ونفسية عالية، لم يدع ساعة من نهاره تذهب سدى، لذلك تجده في مواصلة مستمرة في إطار النظم والتأليف. وقد نشرت له الصحافة العراقية قصائد رائعة، وشعراً منسجماً عذباً ظهرت فيه خفّة روح قائله، وطيب سريرته وسلامة ضميره. انتقل إلى القاهرة وواصل دراسته وحصل على شهادة الدكتوراه. وهاجر إلى ايران وسكن مدينة قم، ومن ثمّ انتقل إلى مشهد الإمام الرضا عليه السلام ولم يزل به. ورحم الله أباه فقد كان من أخلص أصدقاء الشيخ الأكبر العلّامة الأميني.. مؤلّف الغدير.. انتقل إلى مدينة قم وانصرف إلى التهجّد والعبادة والزيارة إلى أن وافاه الأجل في ١٤٠٦هـ.

مؤلّفاته المطبوعة: تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي. الإسلام وعلم النفس، الإسلام والفنّ، دراسات فنّية في قصص القرآن، دراسات فنّية في التعبير القرآني، في النظرية النقدية، المراسم لسلّار (ت)، البلاغة الإسلامية، الإسلام وعلم الاجتماع، دراسات في عمارة السورة القرآنية».

كتاب معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام

للشيخ محمّدهادي الأمين،المجلّد الأوّل

البستـاني*

«البستاني ممّن غنّى فلسطين بشعره، ولا يكاد أن يُفهم منه اتّجاه معيّن في معالجة القضية بشكل نهائي كحقيقة يبتّ فيها، فـهو ممّن سلك المنهج الحديث في شعره، فاللفظ العذب، والكلمة الموسيقيّة، والاطار الخارجي، كلّ أُولئك ممّا يستهويه في تصميم القصيدة، لذلك نجد طغيان الألفاظ على المعاني في شعره يكاد أن يأخذ طريقه إلى الحقائق الثابتة الملموسة، بَيْدَ أنّ قصيدته «همسات في ليل الصمت في فلسطين»، التي نَظَمها عام ١٩٦٣م، تقارب في ألفاظها وأفكارها ومعطياتها الاتّجاه الإسلامي في مؤدّاه، فالتعابير الدينية، والهمسات الإسلامية، تتجلّى بارزة بين سطورها، لذلك أدخلته في هذا الاتّجاه تجوّزاً باعتباره لم يفصح عن حلٍّ أو معالجة على هذا الصعيد، وإنّما حام حوله، وسار بخطوطه جانبياً، فهو يقول:

هـجسةُ اللهِ من نهور عطاياه ... الغوالي لألف صدرٍ خفوقِ**

بوركت هجسة يسلسلها الله ... وبوركت يا عطاء الشفيقِ

وتمليتُ أشعل الليل بالخصبِ ... وفي خاطري عطاء الشروقِ

يتخطّى مسارب الفكر البيض ... أفيقي مع الزحام أفيقي

خطوات، وما تراءت أطلي ... (بفلسطين) بالتراث الصديقِ

عبقُ الأنبياءِ يهدر في الساحِ ... وكم أشتهيه في أن تذوقي

أشتهي لو تصل نجواك عطر ... الله ملأى بزاده الموثوقِ

تباركت هجسة الله، وبورك عطاؤها، متملياً الشاعر الليل بالخصب، يتخطّى مسارب الفكر، داعياً إلى الإفاقة، مطلّاً بالتراث الحبيب إلى قلبه في

---

* محمود ابن الاج عبدالحسين البستاني، ولد في النجف الأشرف عام ١٩٣٧م. شاعر مبدع، وأديب لامع، طاهر الضمير، طيّب النفس، تخرّج في كلّية الفقه في النجف، نشر شعره في أُمّهات الصحف والمجلّات العربية، يعمل الآن بائعاً للعطور في النجف.

** البستاني، محمود، مجلّة الكتّاب، السنة الثانية، العدد الأوّل (بغداد ٩٦٣م)، ص٦٨ (تصدرها جمعيّة المؤلّفين والكتّاب العراقيّين).

فلسطين، فهناك عبق الأنبياء وتراثهم، وعطر الله ملآن يهزّه للتطواف في مسجده الأقصى، ليعلّ عطر الرسول الأعظم(صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم)، يتصباه سنى الاسراء، ووهج الذكرى، وهجس البريق، وإيماءة النصر ملوّحة، وانجلاء خيال الرعب، وامتداد حبال النور، بنجوم البشرى، مشدودة للتصديق برسالة النبيّ الكريم(صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم)، وذلك قوله:

ثمّ طوفي يجرّك (المسجد الأقصى)	لمنى طوافه المرموقِ
ستعلين عطر (أحمد) ينهل	وبحراك فيه لمح الغريقِ
يتصباك من سني (ليلة الإسراء)	وهج الذكرى وهجس البريقِ
كلّ إيماءةٍ تلوح بالنصرِ	وتجلو خيال رعبٍ وضيقِ
ونجوم البشرى تمدّ حبال	النور، مشدودة إلى التصديقِ

ثمّ يستمر الشاعر في المسير على هذا الدرب المروح بظلال الله، الذي لايضيره المارق عنه، يستفيق منه على واقع البلاد في فلسطين، وهجير مأساتها، هذه الهمسة التي سمّرت قواه، فلا العار برانٍ، ولا الخنا بمطاق، ولاالنسيم بطليق، ولا الأغاريد بمشّعة، تبدو وكأنّها تتلاشى ويغتالها جحيم الأذى حينما عطّلت أفراحه، أعاصير مجده، في مطاف دام، لواقع فلسطين... من خيام اللاجئين، وصمت النازحين، وعراء البائسين، في صحارى التشريد، ومن بقايا الجياع، وفي ضيعة الحقوق تلك الصور التي تدع الحياة قفراء جرداء، والأحياء لا يفقهون المُثُل الإنسانية...».

كتاب فلسطين في شعر النجف المعاصر ١٩٢٨/١٩٦٨

الدكتور الشيخ محمّدحسين الصغير

وأمّا «انتصار شاعر» ففيها نغم حاو، وإنسيابية عذبة، أمد الشاعر بهما بحر الرمل وفي القصيدة إيحاء شفافة مباركة واطلاع للشاعر واسع وعليها إلى

جانب ذلك، مسحة من أُسلوب نواسي ثائر عـلى التـقليد داع إلى الابـتكار والخلق وعمران القصيدة بالحياة وأنّها بعد ذلك فكر وفكرة في لحن ولكن اللحن ما يزال ينمّ عن فجاجة التجربة*.

مجلّة الآداب، العدد الثالث (آذار ـ مارس) ١٩٦٣، السنة ١١

«تخرّج من كلّية الفقه، وذهب إلى القاهرة لتحصيل الماجستير ثمّ الدكتوراد. وهناك أقبل على الله بالمزيد من العبادة وأقبل عليه سبحانه بألطافه. فبعد رجوعه عُيّن أُستاذاً في كلية الفقه. قال لي: رأيت عند الأُستاذ العلّامة الشيخ محمّدتقي الايرواني جزءاً من كتاب الحدائق النـاظرة فـاستعرته فـقرأتـه، وهكذا حتّى قرأت المجموعة كلّها، ثمّ أخذت أقرأ كـتب الحـديث وجـواهـر الكلام وبقيّة كتب الفقه ولمدّة سنة ونصف أقرأ في كلّ يوم أربع عشر ساعة حتى قال لي بعض الأعلام أنت مجتهد ولا يجوز لك أن تقلّد، سافرت معه إلى الحجّ سنة ١٣٩٨هـ ومعه بعض كتبه في الفقه الاستدلالي.

وسألته: هل استغلقت عـليك عـبارة أو أشكـل عـليك مـطلب فـي وقت التحصيل؟

فقال: نعم، وكنت أرجع بالسؤال والايضاح من بعض الأعلام.

وأعظم من هذا عندي هو تقوى الدكتور وانصرافه عن الدنيا وما يحمله من ولاء لأهل البيت عليهم السلام».

كتاب نجفيّات ـ علي محمّدعلي دخيّل: ص١٣٥ ـ ١٣٦

---

* القصيدة نُشرت في العدد الثاني من المجلّة، ص٤٧.

«الدكتور محمود عبدالحسين البستاني الأديب الكبير، والشاعر المجدّد، والكاتب المبدع، ولد في النجف الأشرف عام (١٩٣٧م)، تخرّج من كلية الفقه وحصل على الماجستير عام (١٩٦٩م)، ثمّ حصل على الدكتوراه في النقد الأدبي سنة (١٩٧٣م) من جامعة القاهرة، عمل أُستاذاً في كلية الفقه للأدب العربي، والنقد الأدبي، ولجملة من العلوم. هاجر إلى الجمهورية الإسلامية وسكن في قم، ومشهد ويعمل الآن في مؤسّساتها العلمية... ينطوي البستاني على خلق كريم وإباء وشهامة. وهو متعبّد زاهد منقطع إلى الله تعالى معرضاً عن الدنيا.

ويعدّ البستاني على رأس قائمة الباحثين الإسلاميّين يكتب في الأدب والنقد وعلم الاجتماع وعلم النفس والتفسير والبلاغة والفقه الاستدلالي وله مؤلّفات كثيرة في كلّ ذلك، وهو يسعى لأسلمة العلوم وإخضاعها للمناهج الإسلامية».

تاريخ الأدب العربي

تأليف لجنة الأدب العربي في وحدة تأليف الكتب الدرسية

الناشر: المنظّمة العالمية للحوزات

في حقل الشعر

في ذكرى الزهراء*

دمع أذيل!! فيا كواكب، سامريه، و يا نجومْ
ذريه في الأبعاد، عبر مجاهل النجوى، يحومْ
ذريه في هدبيك. يطفر من حواشيه الوجومْ
أو سمريه على المدى قطرات... لألاء.. عظيمْ
تنسلّ، عن قدسية بيضاء..، في الليل البهيمْ
حتى كأنّ المأتم العلوي، يغتال النسيمْ
فيها ـ ويهوي كالفناء، على محياها الوسيمْ
لا همس ضوء.. لا شذى يهفو.. ولا شجراً بهيمْ
عجنته مأساة الحياة.. وأطبقت فيها الغيومْ
والنكبة السوداء.. تذروها بقاياً من هشيمْ

❊ ❊ ❊

يا غرسة الهادي تمور، تمور، بالعبق الكريمْ
أولست من عبق السماء.. ومن تفتحها العظيمْ
حسب الرسالة. أن طهّرك.. بعض مجراها السليمْ
وسنى الإمامة من نثارك يستطيل ويستديمْ

* مجلّة أضواء، العدد السادس، السنة الثالثة ١٩٦٢.

ليظل . ينسج في الحياة . ضفائر الدين القويمْ
ويظل يرفد، واحة الأجيال.. بالخير العميمْ
كالنبع.. لم يسكت عن الجريان . للرمل العقيمْ
ليمدّه .. بالمعطيات.. وبالخصوبة، والنعيمْ
كالشمس .. لم تسكت، عن المدّ الشعاعي الرحيمْ
تتمسّح الدنيا.. بها، بيداً أفاويقاً تخومْ
قسماً.. ودين الله، عبر المعطيات . فم بسيمْ
نستلّ منه الضحكة السمحاء... تهزأ بالهمومْ
سنظلّ نفتح من مساكبه،.. حياة تستقيمْ
وعلى دروب هديرها العلوي .. لألاء عظيمْ

❊ ❊ ❊

يا غرسة الهادي!! ويغسل راحتي هدير خطبة
تنسلّ من رشح العصور.. وفي دمي، مطر، وتربة
غمست فيها! ماتتيه به، هضاب الروح!! خصبه
ولهى!! تحدق في العصور، وتستشفّ رؤى الأحبة
وتلم مجد الخطبة الملأى!! شذى قدس، ورهبة
(الله) في هدراتها ألمحت، موكبه، ودربه؟!
ومحمّد يهتزّ، يسفح في ضمير القوم عتبة
والجرح لما يندمل إنّي أكاد، أحسّ ندبه
وهدرت شامخة البلاغة، والخناجر مشرئبّة
حرف يسيل، وألف معذرة!! وأقوى أن أصبه؟!
حرف البلاغة، من سماء الله، واستجمعت شهبه
لترنحيه على سماع القوم ملحمة وخطبة

❊ ❊ ❊

قســماً!! وأوديـة الحياة.. مـلاعب سـمحاء، رحـبه

سنظلّ نـنسج مـن خـطى الزهـراء ألف رؤى مـحبه

بـيضاء تـنثر جـيل أُنـثى يحضن التـاريخ ركـبه

جـيل يـموسق مـن هـدى الزهـراء مشـعله، ودربـه

لا وحلة الفـوضى، تشـلّ خـطى الحـقوق المسـتتبه

لتـرجّـه مـعنى يـغيم صـداه فـي عـتمات رغـبه

صـــرعت بـأبواب الشـراك وسـمرتها ألف عـتبه

البـهرج المســحور طـاووس، يـجر، يـجر، ثـوبه

وهــج عـلى مسـتنقع، والأعـين الحـولاء شـربة

لا، لن نــعل بــهارج العــقم البـليد ـ ولن نـعبّه

شـــيئاً إبـــاحي الهـــوى شــيئاً ابـاحي المـغبه

❊ ❊ ❊

محمود البستاني

النجف الأشرف

مع القرآن*

طالعت ركبي، أستشفّ ماذا، وراءاللمح، يغفو
ألف مـــن المـــتع الحـــيية، تــزرع الدنــيا، وألف
سبحان، من وهب الرؤى، بالعطر، والنـجوى، تـرف
بـــيضاء، بســـمنها، نـــهار الله، نــعماء، ولطـف
الله يكـــتب حـــرفه،... ومـــحمّد شـيئاً، يـزف
الله، يـــنثر بـــاقة الدســـتور.. والأجـيال، تـهفو
أبـــداً.. تـــطّلع، تــلثم القـرآن؛كـنزاً، تسـتشف
.. مرحى، لروّاد الجنى، هنّا، وهـنّا، آن قـطف
.. مرحى، لمـزرعة السـنا،... وأنـامل البـارى، تـحف
يـا راحـة اليـد، لمـلمي،... ولنـثر، بـالنعماء،كـف
خســـرت أيـــاد، لا تـلم، وراحـــة، عـنها تكـف
شـربت أحـاسيس الضـباب،... وراح مـوكبها، يـلف
لتظلّ تستسقى؛ لغـى الشـيطان.. يـقعى مـنه حـرف
وتـعاف زاد الله،.. كـيف يـعافه الطـاوى،.. ويـحفو
وإذا آلعـمى، سـرق البـصيرة،.. واسـترقّ النـور، لف
هـيهات،.. أن يـلج الشـعاع.. إلى مسـاربها، ويـصفو

***

---

* مجلّة أضواء، العددان السابع والثامن، السنة الثالثة ١٩٦٣.

يـا أمّـة القـرآن.. ركـبك هـاهنا.. فـليسر،زحـف
الديـــن عـنـد الله، إسـلام[1] عـلـى الدنـيا... يـرف
النـبع ثـر.. هـل يـغض عن النمير الثرّ، طرف؟!
مـاذا؛ عـلى شـفة السـراب... عـواءه الخـاوي.. يـأف
إلّا مـتاهاً، لا حـدود له، عــلى أرض، تـصف
هـيا،.. تـرقك أظـلّة القـرآن.. عـن وهـج تشـفّ
تـرفدك أفـياء الجـلال وهـيمنات الله، تـضفو
إنّـي لألمـح، مـوجة الابـداع.. والآيـات، تـطفو
الشـمس تجري[2] في الحـياة لمسـتقر ـ لست أقـفو ـ
ـ أثـراً؛ لهـا ـ لكـن، تـقدير العـزيز.. هـدى ولطـف
ويـموج زخ المعصرات[3] ومـاءها الثـجّاج، رشـف
للحب آنـا، والنبات[4] وكـلّ مـا فـي الأرض، يشـفو
والأرض فـي الدنـيا، ذلول[5] فـي مـناكبها.. نـخف
يـحثتنا مـن رزقـه..كـتل، وأكـداس، ورصـف
رب المشــارق والمــغارب.. ألف إيـماء، يـهفّ
ويظلّ يومىء.. لو ترامى البحر.. فـي مـجراه وصـف
مـجرى إلى كـلمات ربـي[6] أو مـداد.. لا يـجف
لم تنفد الكلمات!!، إن تستجلي حرفاً، يـزه حـرف!
بوركت يا حـرف الإله، عـلى هـداك السـمح، نـغفو

---

١ ـ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾.
٢ ـ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.
٣ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾.
٤ ـ ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً﴾.
٥ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾.
٦ ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾.

أمطر جوانحنا، شذى، وأسـله، يـهدر، مـنك عـطف

أنا في نشيدك هادر، مـا، مـال عـنك، وحـاد، عـزف

.. أبــدأ.. وصــفو ســريرتي.. لم تـمحه، كـلم تـخف

لتـــرود أُفـقاً.. ظـنّه الرائـي بـه.. قـلمي، يســف

أبداً.. جناح عقيدتي. لم يـنكمش، لم يـعش طـرف

لكـنّها.. كـلم تـقال.. بـها صــفاء النـفس، يـخفو

تـطوافـها أبـداً .. إليك.. وإن، جـرت شـيئاً، تـزفّ

أنا لو أسيء ـ وفي دمي هـذا الصـفاء ـ فـأنت، تـعفو

محمود البستاني

النجف الأشرف

وتدلّت مـن السـمـاء، عـناقيدك
يــــاوحي، بـــــالعطاء تــبوح

يـا مـطاف الحياة!! زنـبقة الذكـرى، عـلى سـاحل الحياة، فـتوح

بـاركت عـطرها السـماء..كـما بـارك إيـماءة النسـور الطموح

.. وتـمليت... أرقب الموكب الأبـيض... يـجتثّ أصـغري الجـنوح

كـــالعصافير، شـــدّها ألق الصـحو، إلى حـيث ربــوة، وسـفوح

عـــربات النســيم، إذ، تـتصباها، وإشـراقـة المـدى، إذ تـلوح

كـالفراشــات.. والرحـيق تـهامى جـدولاً فـي خـيالها، يستريح

فـاجأتها مـن العـطاءآت، مـا يـغري، ومـن هـزّ ذاتـها.. مـا يـبيح

لا تسـلني عـن العـطاءآت، والاسـراء يكـتظّ مـجده، ويسـوح

أغـرقتنا طـيوبها.. يـا مسـافات!! تـدانـي، ولملمي يـا جـروح

بـوركت دفـقة النبيّ عـلى الكـون، تـهامى غـديرها المسفوح

وتـــدلّت مـن السـماء، عـناقيدك، يـا وحـي.. بـالعطاء، تـبوح

يلقح الكون، روعة المبعث المشـهود.. ايـماءها الجـميل الصبيح

كسخاء الأقـمار.. يـثري بـها الأفـق.. فـيسبى قـلب، ويـفتن، روح

لا تسـلني عـن العـطاء.. عـطاء الله، هـذا الذي.. بـدربي، يـفوح

فـي انـفلات الطـيوب، مـن شـفة الغـار بـوشي نـثارها التسـبيح

فــي تـلاوينها.. وعـاء مـن التـاريخ، مـا فـضّ لغـزه التصريح

طـــالما الأربـــعون لم يـترنّح لدنـى العـالمين مـنه الوضـوح

غـير نـجوى.. رحـيقها، يـعبد الله... وإيـماءها، الثـنا، والمـديح

فإذا الغار!! جنّة من خشوع وریاحینها الدعاء الربیح
والحجار العتاق.. مبتلّة باللطف، مما یغدو، بها و یروح
ولسان الجدران، یحفظ ممّا هلّ فیه، وناله الترشیح
والنسیم الذي احتواه کأنّي بمباهاته، أوان یسیح
یتهادی، علی اللدات، ـ وإیماءآته الکبریاء، والتلویح
في مجالیه، في زحام المباهاة، وحقاً لو لم یرقه النزوح!!
والعظیم!! الذي، یزاحمه الکون، وتکتظّ، في، لقاه السوح
ـ أبداً، تشرئب، لو أنّ مغناها، بنعمی أذیاله ممسوح
لاستطارت تیهاً... وغلف دنیاها، فخار زاه، وجاه فسیح

❊ ❊ ❊

وتلفت!! والحیاة، تمطی عن مغالیقها، لسان فصیح
یتشهی جناه، جوع اللیالي والحضارات، والمنی، والطموح
صادع بالرسالة البکر، یا شرك، تهدم، ولا تني، یا صروح
وترامت، یبادر الصحوة السمحاء، یسقي الدني، جناها الصریح
وضحی البشریات، ذراته البیضاء، عدل بان، وزحف صحیح
لم تکشّر، علی مسافاته الأهواء، أنّی ینالهنّ الفحیح؟!
صحوة صاغها الإله، فسیروا في مجالاتها الکبار، وسیحوا
والذي یستریح، في خیمة الإسلام،... هیهات.. لم تجد له، ریح
وهدیر الطوفان لن یبلغ الصحوة، والملتقی سفین ونوح

محمود البستاني

النجف الأشرف

المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

